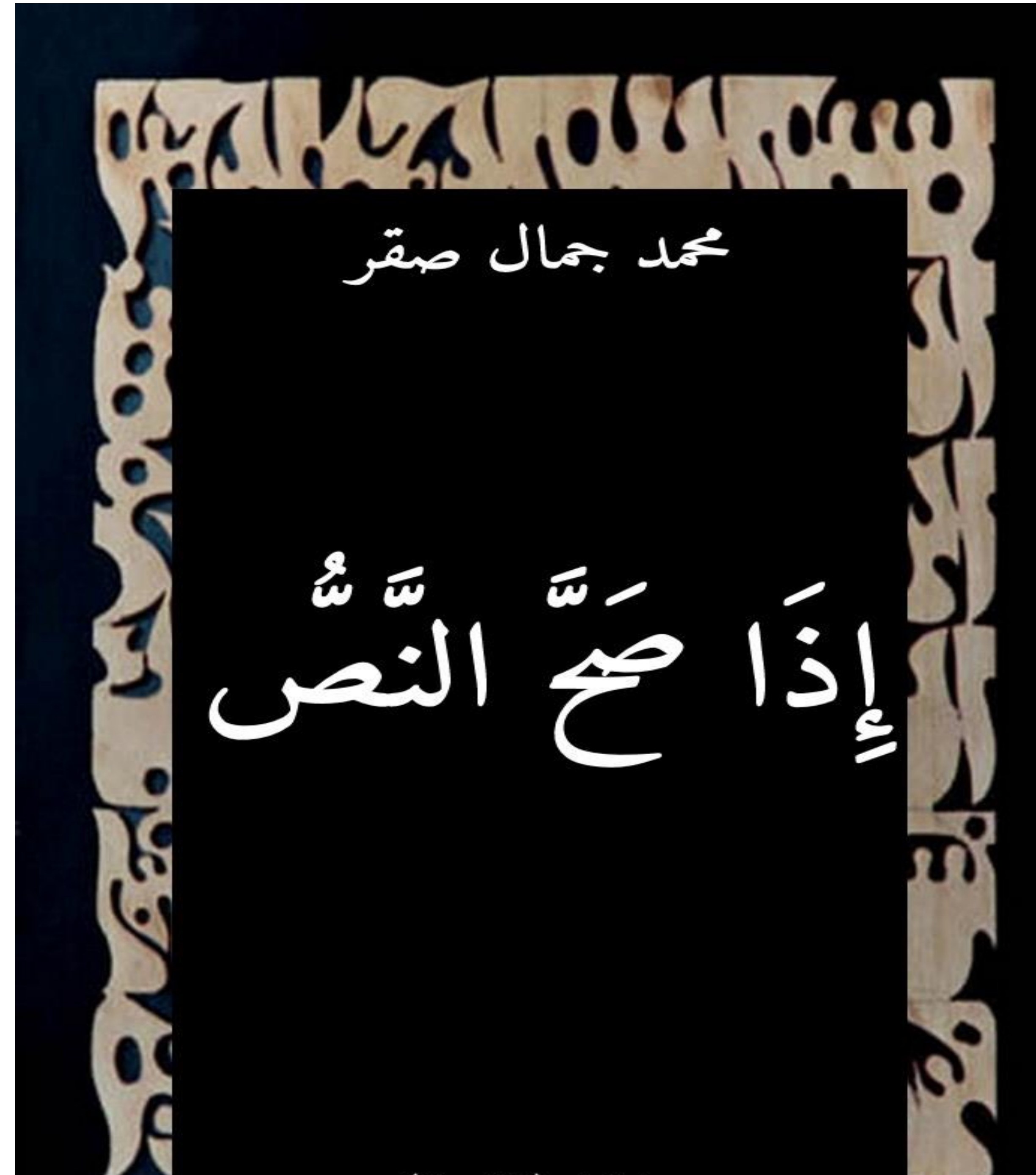


محمد جمال صقر

إِذَا صَحَّ النَّصُّ

١٤٤٥ (٢٠٢٣)
www.mogasaqr.com

بِسْمِ اللَّهِ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِحَمْدِهِ

وَصَلَاةً عَلَى رَسُولِهِ وَسَلَامًا

وَرِضْوَانًا عَلَى صَحَابَتِهِ وَتَابِعِيهِمْ

حَتَّى نَلْقَاهُمْ

فِهْرِسٌ

مُقَدِّمَةُ هَذِهِ النَّشْرَةِ الثَّانِيَةِ الرَّقْمِيَّةِ

نَشَأْتُ مولَعًا بنصوص الكلام العربي: قرآنا كريما، ونثرا شريفا، وشعرا نفيسا، أتذوقها، وأحفظها، وأؤديها. ثم لما تَخَصَّصْتُ لِتَعَلُّمِ نَحْوِ الْكَلامِ العربي، وعِلْمِه، وتَعْليمِه، لم يكن في وسعي إلا أن أجري مجرى أساتذتي المولعين مثلي بذلك؛ فأشتغل من كل نص منها بمكونات الجملة الواحدة التي أفاضت في بيانها كتب علم النحو، أو بروابط الجملتين الاثنتين التي أفاضت في بيانها كتب علم المعاني، أظن أن في ذلك كفاية التعبير عن طبيعة النص النحوية!

واهتديت في خلال ذلك إلى كتب شرح الكلام العربي، ثم اشتغلت منها بصفات العلاقات النحوية المختلفة، ثم احتفزت بها إلى تأمل ما وراء الجملة والجملتين من النص، حتى إذا ما كَرَبَتِ الباحثين مَقالاتُ "نحو النص"، أَلَّفَ بيني وبينها أنها "بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا"!

هي رحلة مستمرة إلى النص المستمر، أُحِسُّ بعد كل مرحلة من مراحلها، بمثل ما كان فَرَطُنا على فقه الحديث النبوي يحس بعد كل مرحلة من مراحل رحلته إليه، فيقول عبارته الخالدة الضابطة:

"إِذا صَحَّ الْحَدَيثُ فَهُوَ مَذْهبي"[١]!

كأني به يطلب الحديث مرة بعد مرة، كلما تغيرت الحياة مرة بعد مرة؛ فسرقتُ منه "إذا صَحَّ الْحَدَيثُ"، ووضعت "النَّصّ" موضع "الْحَدَيث"، واستغنيت عن "فَهُوَ مَذْهَبِي" -ولن يفتأ القارئ يُقَدّره!- إيحاءً بظَرفيَّة "إذا" خاليةً من الشَّرطيّة، وكأنه أوانُ الصحة سَيَئِين بعدما يَبِين ما يبين!

---

[١] عبارة معروفة للإمام الشافعي، رضي الله عنه!

هي رحلة ذات مراحل؛ كل مرحلة مقام، ومقاماتها ذوات أبحاث؛ كل بحث مزاجان: عِلْمِيٌّ يَتَقَدَّمُ به، وفَنِّيٌّ يُحامي عنه؛ فلا يُغْني بَحْثٌ عن بَحْثٍ[1]!

في المرحلة الأولى كان بحثي "هلهلة الشعر العربي القديم: جزالة أو ركاكة"[2]، الذي حفزَني فيه إلى اكْتِناه أمر الجزالة والركاكة، اختلافُ توجيه هلهلة الشعر العربي القديم عَلَيْهِما؛ فاجترأتُ على كثير من علمائنا القدماء والمحدثين، وميزتُ فيهم غيرَ المستوعِبين من المستوعِبين، غير عابئ بقدامة قديم ولا حداثة حديث، إلا اللينَ للحق.

ولقد اتضح لي أن الجزالة -ومثلُها أحدُ وجهَيِ الهلهلة- والركاكة -ومثلُها وجهُ الهلهلة الآخر- صفتان نحويتان في نظم الكلام إبدالا وترتيبا وحذفا وإضافة، تستبهمان على من يستوضحهما في غير نحو الكلام، تكون الأولى متى انتظم قويًّا كالحبل المشدود، لا يتيح لمستوعبه أن يقول: لو كان كذا مكان كذا لكان أفضل، وتكون الأخرى متى انتظم ضعيفا كالحبل المُرْخى يتيح لمستوعبه أن يقول ذلك، وشاهِدُ الحكم الموازنةُ المسوَّغة بين نظمَيْ كلامَيْنِ مختلفَيْنِ، أو بين نظمَيِ الكلامِ نفسه سالمًا ومُغيَّرًا؛ ووجَبَ أن تُرَدَّ على مَن ادَّعاها دعاوى أن

---

[1] ورحم الله أستاذنا الناقد الفيلسوف الدكتور مصطفى ناصف، الذي سمعني قديما أتحدث راضيا عن عملي برسالتيَّ للماجستير والدكتوراة إحداهما أو كلتيهما، فقال لي: سيأتي عليك زمانٌ تتحرَّج فيه منه! ولعله تفاءل لي بما اجترأتُ عليه هنا من تطوير منهجي البحثي النحوي؛ فلا يجوز من مثله أن يكون أشار إلى أنني سأتبرأ لاحقا مما كتبتُ سابقا؛ كيف ونحن جميعا إنما نبني حديثنا على القديم!

[2] أواسط العقد الأول من القرن الميلادي الحادي والعشرين، اجتمعنا في مكتب أستاذنا الدكتور علي أبو المكارم، أنا والدكتور خليل عبد العال وكيل كلية دار العلوم بجامعة الفيوم آنئذ ومن لا أذكر من إخواننا. مكثنا قليلا، ثم بدا لأستاذنا أن يخرج من المكتب، فكان الدكتور خليل كأنه انتظر خروجه؛ إذ أقبل عليَّ من فوره متبسمًا: ذكر لي أستاذنا الدكتور أحمد عبد العظيم أنه في عمله بالمملكة العربية السعودية جاءه أحد تلامذته بمقالك "هلهلة الشعر العربي القديم"، فقرأه، وسُرَّ به حتى دمعت عيناه! لم أعجب لانتظار الدكتور خليل خروج أستاذنا -وهو عجيب- ولكنني عجبت للسُّرور العلمي الذي أَدْمَعَ العينين العزيزتين!

الجزالة والركاكة من صفات الكلمة المنفردة، وأن الجزالة ضد السهولة والرقة، وأن التجزيل حكم انطباعي (ذوقي)، وأن الجزالة ضد الحداثة[1]!

وفي المرحلة الثانية كان بحثي "رعاية النحو العربي لعروبة أطوار اللغة والتفكير"، الذي صبرتُ فيه على دعوى أحد كبار المستشرقين المحدثين وَشْكَ استعجام العربية، لما انطوت عليه دعواه من أفكار جديرة بالنظر، ولاسيما فكرة اقتران أطوار اللغة والتفكير، التي أفضى علاجُها إلى التسليم للنحو بأنه نظام هذه الأطوار كلها.

ولما كان أدب طه حسين عند هذا المستشرق هو مثال التمسك بالحداثة الغربية الساطعة، وأدب مصطفى صادق الرافعي هو مثال التمسك بالقدامة العربية الغاربة- اقتضاني الإنصاف أن أصطفي من أدبَيْهما ما أوازن بعضه ببعض. وقد أفضت بي هذه الموازنة إلى إثبات اختلاف الأدبين اختلافَ طورَيْن متكاملين: طور الثورة والعجلة (أدب طه حسين)، وطور الهدأة والأناة (أدب الرافعي)، لا غنى للعربية بأحدهما عن الآخر، ولاسيما أن الكتابين المشتملين على نصَّيِ الموازنة، نشرَهما ناشرٌ واحد في عامين متواليين، دلالةً لطيفة جدا على هذا المعنى الشريف[2]!

---

[1] نشرَت لي هذا البحثَ مجلةُ فكر وإبداع المصرية (الدكتور حسن البنداري)، في جزئها الخامس عشر، الصادر عام ٢٠٠٢.

[2] نشرَت لي هذا البحثَ مجلةُ كلية دار العلوم المصرية (جامعة القاهرة)، في عددها الثلاثين، الصادر عام ٢٠٠٣، أول ما نشرَت لي؛ فقال لي بعدئذ رئيس تحريرها الدكتور عبد الفتاح عثمان -رحمه الله، وطيب ثراه!-: الآن صرتَ من كتّاب مجلة الكلية! ولكنه كان قد أسند مراجعة البحث إلى مَنْ إذا أنكر مِن عبارةٍ شيئا غَيَّره دون استئذان صاحبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

وفي المرحلة الثالثة كان بحثي "بين الأعشى وجرير: موازنة نصية نحوية"[1]، الذي تطلعتُ به إلى تطوير منهجي البحثي النحوي، فانطلقتُ من مقالة أبي عمرو بن العلاء "نظيره -أي الأعشى- في الإسلام جرير، ونظير النابغة الأخطل، ونظير زهير الفرزدق"، إلى الموازنة بين الأعشى في قصيدته "ودع هريرة إن الركب مرتحل"، وجرير في قصيدته "بان الخليط ولو طُوِّعت ما بانا"، حتى تميز لي فيهما فصل الرسالة من فصول التأتّي، وما اجتمعا عليه (تفصيل القصيدة، وإحاطة الرسالة، وتقسيم أجزاء الرسالة، وتصدر المتكلم، وتفقير فصل الرسالة، والفقر وأبياتها، والتأتي بتحازُن العشاق، واقتضاب مفاصل الفصول)، مما افترقا فيه (مقدار الرسالة، وذكر الخصيم، وتقديم اسم الرسالة، وأصحاب الأقسام، وتتابع الأقسام، وأزمان الأجزاء، ومنازل الفقر، ومحاور الفقر، وتفصيل المعاني وتوصيلها، وتفصيل المباني وتوصيلها).

واتضح لي أنه ربما كانت تلك المسائل التي اجتمعا عليها، وراء مقالة أبي عمرو بن العلاء النفيسة المذكورة آنفا، وهذه المسائل التي افترقا فيها -وهي كما سبق، أكثرُ من التي

---

[1] ارتحتُ من ضيقي ببعض المتعالمين المحكَّمين، إلى إعادة قراءة رسالة أستاذنا أستاذ الدنيا محمود محمد شاكر -رحمه الله، وطيب ثراه!- "في الطريق إلى ثقافتنا"، ومقالاته "نمط صعب ونمط مخيف"، و"أباطيل وأسمار". واقتبستُ من عزمه فيها ما نشطتُ به إلى مباراته بهذا البحث "بين الأعشى وجرير: موازنة نصية نحوية"، الذي قدمتُه للنشر بمجلة كلية دار العلوم من جامعة القاهرة، وكان على رئاسة تحريرها أستاذنا الدكتور شعبان صلاح، أطال الله في النعمة بقاءه! بعد مدة مديدة نُشِرَ مقالي في عددها الرابع والثلاثين الصادر عام ٢٠٠٥، وطلبني في شأنه الدكتور شعبان ليطلعني على أن الأستاذين اللَّذَيْنِ أُحِيلَ عليهما اختلفا فيه بين رافع له إلى أعلى عليين وخافض إلى أسفل سافلين؛ فأحاله على أستاذ آخر أعلى منهما كعبا، فرفعه مع الأول إلى أعلى عليين، وكتب فيه تقريرا عظيما سلّمه له وهو يسأله: أَهُوَ لِسَعْدٌ مَصْلُوحْ؟ قال الدكتور شعبان: فأحببتُ أن أَسُرَّكَ، فصورتُ لك تقريره، وأخفيتُ اسمه! ولما قرأت التقرير عرفت توفيق رب العالمين الرحمن الرحيم -سبحانه، وتعالى!- وتَبَيَّنَ لي -وَهُوَ ما أَكَّدَهُ الدكتور شعبان صلاح فيما بعد- أنه لأستاذنا الدكتور محمد فتوح أحمد، أطال الله في النعمة بقاءه!

اجتمعا عليها- وراء بقائهما جميعا معا في العربية شاعرين كبيرين، حتى قال يحيى بن الجون العبدي راويةُ بشّار: "نحن حاكة الشعر في الجاهلية والإسلام، ونحن أعلم الناس به. أعشى قيس بن ثعلبة أستاذ الشعراء في الجاهلية، وجرير بن الخَطَفَى أستاذهم في الإسلام"!

وفي المرحلة الرابعة كان بحثي "بين الرافعي وشاكر: موازنة نصية نحوية"[١]، الذي أجريتُ فيها ما حصلتُه من نتائج بحثي النحوي المُطَوَّر، بِرًّا بأدب اثنين من كبار أدباء مدرسة البيان العربي، حتى عثرتُ لنص شاكر "الحقيقة المؤمنة"، على نص الرافعي "الأسد"؛ فوازنت بينهما من حيث: "جوامع النصين"، و"حضور الأعلام"، و"صوتا الكاتبين"، و"تفصيل الفصول وترتيبها"، و"نسج النصين"، و"توصيل الفصول"، و"ربط الأقوال"، و"عطف المتشابهات"، و"تركيب المفاجأة"، و"الإجمال ثم التفصيل"، و"جوامع الذروتين"، و"تفقير الفقر، وترتيبها".

ولقد تأكَّدَ لي بين الرافعي وشاكر، معنى المدرسة الثقافية الواحدة، ولكن على منهجين: الاستبطان المثالي الصوفي (منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الكامنة في العناصر القصصية، يتحرك حركة عمودية من أعلاها إلى أسفلها، ومن أسفلها إلى أعلاها، دَوالَيْك)، والاستبطان الواقعي الفني (منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الظاهرة على العناصر القصصية، يتحرك حركة أفقية من ورائها إلى أمامها، ومن أمامها إلى ورائها، دَوالَيْك). انتهج

---

[١] كان هذا البحث هو "البحث المرجعي" في محاولة ترقِّيَّ الثانية إلى درجة "أستاذ مساعد (مشارك)"، بقسم النحو والصرف والعروض، من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة- المطلوب إنجازه في شهر واحد، لتكون فيه مناقشة لجنة الترقية! وكان من علامات التوفيق هذه المرة أن أُسنِدت المناقشة إلى الدكتور محمد فتوح أحمد، الذي كان إليه فضل ترجيح كفة بحثي السابق "بين الأعشى وجرير: موازنة نصية نحوية"!

هذا الأخيرَ شاكٌّ، بعد ما انتهج ذلك الأولَ أستاذُه، من دون أن يأتي اختلاف المنهجين الاثنين بينهما، على معنى المدرسة الثقافية الواحدة[١].

وفي المرحلة الخامسة الأخيرة كان بحثي "تطور تفكير الجرجاني النحوي من المقتصد إلى الدلائل"، الذي تجاوزتُ فيه النصوص الأدبية التي جريتُ على دراستها من قبل دراسةً نصية نحوية، إلى طائفتين مُتواردتَيْن -أي بينهما ما يتيح الموازنة- من نصوص عبد القاهر الجرجاني، النحوية: ثلاثة من كتابه "المقتصد في شرح الإيضاح"، وثلاثة من كتابه "دلائل الإعجاز"! نعم؛ فدرست أساليبهما من حيث تَفْصيلُ الأفكار النحوية سياقًا ونظامًا (إيجادها للكلام عنها، وتَجْزيءُ كُلٍّ منها، وإِتْباعُ بعضِ أجزائها بَعْضًا)، وتَمْثيلُ الأفكار النحوية سياقًا ونظامًا (الاستشهاد لها بعباراتٍ اشتملت عليها، طَبيعيةً كائنةً في الكلام العربي من قبل التمثيل، أو صِناعيةً مخترعةً لهذا التمثيل اختراعًا)، وتَوْصيل الأفكار النحوية سياقًا ونظامًا (التَّهَدّي إلى أدائها، والتعبير عن فصولها وأمثلتها).

ولقد تَجَلَّتْ لي دقائقُ دلتني على أن الجرجاني تَحَرّى بـ"الدلائل"، تَبْديلَ أَثَرِ "المقتصد"، أو تَعْديلَه- وأنه إنما عاش في إبّان "المقتصد"، أسيرَ إحسان أستاذه أبي الحسين ابن أخت أبي علي الفارسي (صاحب الإيضاح)، حتى إذا ما تُوُفِّيَ انطلقَ يستعيد ما أهمله من علم الشعر؛ فاستنبط -وهو الشاعر- أصول علم معاني النحو، وكان كلما تَأَصَّلَ لديه أَصْلٌ زافَ لديه بعض ما كان اشتغل به؛ ولكنه منعه البِرُّ التّالِدُ أن يُنَفِّرَ طلاب العلم من شرح الإيضاح، ومنعه العلمُ الطّارِفُ أن يخدعهم؛ فبقي في مَنْزِلَةٍ بين المَنْزِلَتَيْنِ[٢]!

---

[١] نشرَت لي هذا البحثَ مجلةُ آفاق علمية الجزائرية (جامعة تامنغاست)، في عددها الأول، الصادر عام ٢٠٠٨.

[٢] نشرَت لي هذا البحثَ مجلةُ كلية دار العلوم المصرية (جامعة القاهرة)، في عددها الحادي والخمسين، الصادر عام ٢٠٠٩.

وكانت مؤسسةُ العلياء للنشر والتوزيع القاهرية، قد نشرَت لي هذا الكتّابَ ورقيًّا عام ١٤٢٧ (٢٠٠٧)، خاليًا من بحثي الأخير. ثم بعدما أنجزتُه لم يكن أحكم في تَوْطِينه من أن يكون هو الفصلَ الخامس الأخير من هذا الكتّاب -فليس أدلَّ على تمكُّن منهج البحث النحوي النصي، من قدرته على نقد النصوص المتعدِّدة المختلِفة فنيةً وعلميةً- محفوفًا بما استفرغ وُسع التحقيق والتدقيق والتنقيح والتهذيب، والحمد لله رب العالمين!

القاهرة، في:

١٤٤٥/١/١٠ (٢٠٢٣/٧/٢٧).

الْفَصْلُ الأَوَّلُ

هَلْهَلَةُ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ

جَزَالَةٌ أَوْ رَكَاكَةٌ

مُقَدِّمَةٌ

هَلْهَلَةُ الشِّعْرِ

[١] عَدِيٌّ مهلهل بنُ رَبيعةَ التَّغْلَبِيُّ أخو وائلٍ كُلَيْبٍ، شاعرٌ جاهلي قديم، عاش آخرَ القرن الميلادي الخامس وأولَ السادس[١]، وذَكَرَه بأوَّلِيَّة الشُّعراءِ، لبيدُ بن ربيعة، وحارثةُ بن بدر الغداني -وهما مخضرمان- وسراقةُ البارقي، والفرزدقُ -وهما إسلاميان- من الشعراء، وذكره بأولية المُقَصِّدين ابنُ سلام الجمحي، وابنُ قتيبة، وثعلبٌ، وأبو حاتم الرازي، والأصفهانيُّ، وأبو هلال العسكري، وابنُ رشيق القيرواني، والقلقشنديُّ، وأبو علي القالي، من العلماء، وخالفهم امرؤ القيس بن حجر الكندي -وهو ابن أخت مهلهل- من الشعراء، ومحمدُ بن إسحاق، ومصعبٌ الزبيري، وأبو حاتم السجستاني، وأبو زيد القرشي، والآمديُّ، وأبو أحمد العسكري، والمرزبانيُّ، وأبو عبيد البكري، والميدانيُّ، وابنُ سعيد الأندلسي، وأبو عبد الله الشبلي، وأبو بكر الحنبلي، والسيوطيُّ، من العلماء[٢].

بتلك الأولية تفاخرتِ العربُ، فزَعَمَتْها لشعرائها القدماء، قبائلُ منها مختلفة؛ فلا عجب أن يختلف في مهلهل أخذًا عنهم العلماءُ والشعراء!

[٢] ولكن "هناك ما يشبه الإجماع على أن الشعراء الأوائل جيلان: الجيل الأول يتقدم الثاني، ولكن ممثليه لا يُعدّون، في عرف بعض العلماء، شعراء، لأنهم لم يقولوا الشعر بعد الشعر، ومنهم: خُزيمة بن نهد، ودُويد بن زيد، وأَعْصُرُ بن سعد بن قيس عيلان... إلخ.

---

[١] حرب: ١٩، والقوال: ١٣؛ فقد أشارا إلى الاختلاف في سنة موته بين ٥٠٠، و٥٢٥ و٥٣٠ و٥٣١ م.

[٢] الفريجات: ٥٣- ٨٢.

أما الجيل الثاني فهو الذي قَصَّدَ القصيد، وأبرز ممثليه: مهلهل، وزهير بن جناب، وعبيد بن الأبرص، وأبو قِلابة الهذلي، وسعد بن مالك، والفِند الزِّمّاني... إلخ. وهؤلاء متقاربون في أزمانهم، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة النبوية الشريفة بمئة وخمسين سنة، أو مئتي سنة في أبعد تقدير"[1].

ولم يكن تَقْصيدُ القَصيدِ المجمع عليه فيما سبق، لمهلهل وجيله، إلا هذه الثلاثةَ جميعا معا: النظمَ مما يلائم غناءَ الرُّكْبانِ من العَروض، والإطالةَ، والإكثارَ - قياسًا إلى حالِ مَن قَبْلَهم[2].

[٣] ولكن من العلماء من نسب عديًّا إلى هَلْهَلَة الشِّعر رادًّا إليها لَقَبَه:

- قادِحًا:

"فإنما سُمّي مهلهلا لأنه كان يُهَلْهِلُ الشِّعْرَ أي يُرَقِّقُهُ ولا يُحْكِمُهُ"، كما قال الأصمعي الجليل، وذكره ابنُ دريد العالمُ الشاعرُ[3]، و"لِهَلْهَلَةِ شِعْرِهِ كَهَلْهَلَةِ الثَّوْبِ، وَهُوَ اضطِرابُهُ وَاخْتِلافُهُ"، كما قال ابن سلام الجليل[4]، ثم نقل المرزباني كلامه[5]، و"لِرَداءَةِ شِعْرِهِ"، كما روى ابن منظور[6].

- أو مادِحًا:

---

[1] السابق: ٨٣.

[2] السابق: ٢٩- ٤٤.

[3] ابن دريد: ٣٣٨، وراجع كذلك: ٦١.

[4] ابن سلام: ١/ ٣٩.

[5] المرزباني: ٩٤.

[6] ابن منظور: هـ، ل، ل.

فإنما "سُمِّيَ مهلهلا، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَقَّقَ الشِّعْرَ، وَتَجَنَّبَ الْكَلامَ الْغَرِيبَ الوَحْشِيَّ"، كما قال ابنُ الأعرابي الجليل، وذكره المرزباني[1]، و"لِأَنَّهُ هَلْهَلَ الشِّعْرَ، أَيْ أَرَقَّهُ. وَكانَ فيهِ خُنْثٌ"، كما قال ابن قتيبة الجليل[2]، ثم نقل القالي ثم البغدادي كلامه[3]، و"لِطيبِ شِعْرِهِ، وَرِقَّتِهِ، وَكانَ أَحَدَ مَنْ غَنّى مِنَ الْعَرَبِ في شِعْرِهِ (...) وَكانَ فيهِ خُنْثٌ وَلينٌ، وَكانَ كَثيرَ الْمُحادَثَةِ لِلنِّساءِ، فَكانَ كُلَيْبٌ يُسَمّيهِ (زيرَ النِّساءِ)"، كما قال الأصفهاني[4]!

[٤] ولقد انقسمت بينهم كلمات القدح والمدح على النحو العادل التالي في الجدول:

هَلْهَلَةُ الْقَدْحِ	هَلْهَلَةُ الْمَدْحِ
التَّرْقيقُ وَاطِّراحُ الْإِحْكامِ	التَّرْقيقُ وَاطِّراحُ الْغَريبِ الْوَحْشِيِّ
إيقاعُ الِاضْطِرابِ وَالِاخْتِلافِ	الْإِرْقاقُ
الْإِرْداءُ	الْإِطابَةُ وَالْإِرْقاقُ

ليس العطف الوارد في خلال ذلك للمغايرة، بل للتفصيل؛ فليس اطراح الإحكام عند القادح، ولا اطراح الغريب الوحشي عند المادح- إلا الترقيق، ولولا ذلك ما استقام بالكلمة نفسها القدحُ والمدحُ جميعا معا.

---

[1] المرزباني: ٩٤.

[2] ابن قتيبة: ١/ ٢٩٧.

[3] القالي: ٢/ ١٢٩، وإن خص إرقاقه الشعر عند ابن قتيبة، بالمراثي، فيما قرأ له على ابنه أحمد، والبغدادي: ٢/ ١٦٤.

[4] الأصفهاني: ٥/ ١٧٠١، وفيه "غُنِّيَ"، بالبناء للمفعول، وبناؤه للفاعل -إن شاء الله- هو الصواب؛ فمن غُني في شعرهم من العرب لا يُحصَون كَثرةً، و"الأغانيُّ" نفسه شاهد، فأما من غَنوا هم في شعرهم هم، فقليل. ولقد يقوي رأيَنا نسبةُ من نسب هلهلة مهلهل، إلى حسن صوته، فيما ذكر فارمر: ٥٩.

وليس معنى زيادة إفعال "الإرقاق"، غير التعدية التي في زيادة تفعيل "الترقيق"، قال ابن منظور: "أَرَقَّ الشَّيْءَ ورَقَّقَهُ: جعله رَقيقًا"[1] -بل التعدية التي في باب "فَعَّلَ"، محمولة على التي في باب "أَفْعَلَ"[2]- ومن ثم يوشك "إيقاع الاضطراب والاختلاف" في القدح، ألا يجد في المدح ما يقابله، إلا أن نستفيد من شَفْع الإرقاق بحديث الخُنْث الذي كان في عدي، عند ابن قتيبة والأصفهاني كليهما. قال ابن منظور: "خَنِثَ الرجلُ خَنَثًا فهو **خَنِثٌ**، وتَخَنَّثَ وانْخَنَثَ: تَثَنَّى وتَكَسَّرَ (...) وخَنَّثْتُ الشيءَ فتخَنَّثَ أي عَطَّفْتُه فتعَطَّفَ، والمُخَنَّثُ من ذلك لِلينِهِ وتَكَسُّرِه، وهو الانْخِناثُ، والاسم الخُنْثُ (...) وتَخَنَّثَ في كلامه"[3].

ربما كان الإرقاق المقابل لإيقاع الاضطراب والاختلاف، نمطا من ذلك التخنيث، خرج به كلام عدي متثنيا متكسرا لينا على مثل كلام النساء من طول معاشرتهن؛ فتعلق به بعض من يتعلق بهن، كما تعلق ببعض شعر النابغة وابن قيس الرقيات!

وبفضل تأملٍ تبدو كلماتُ العلماء المتقابلةُ، متناميةً معا يؤدي بعضها إلى بعض؛ فاطراح الإحكام يوقع في الشعر الاضطراب والاختلاف؛ فيرْدُؤُ- واطراح الغريب الوحشي يرق الشعر ويخنثه -إمّا قَبِلْنا- فيَطيب.

[٥] أتُرى بقِيَتْ في أولئك العلماء أَثارةٌ من ذلك التفاخر القديم؛ فقدح فيه بالهلهلة خُصومُه، فمدحه بها هي نفسِها أصحابُه، على طريقة من المناظرة عربية قديمة معروفة، يفخر فيها الفاخر بخَصْلة، فيُثبتها خَصمُه ثم يوهِمُ فَهمَه لها، على مثل ما روى المرزباني من تقديم صاحبِ جَريرٍ له على الفرزدق، بنجاته مما سقطَ فيه الفرزدق من التَّعْقيد، وتَوْهيم صاحب الفرزدق له

---

[1] ابن منظور: ر، ق، ق.

[2] الرضي "١": ١/ ٩٣.

[3] ابن منظور: خ، ن، ث. وهذه "(...)" علامة حذفي أنا لا صاحب النص، من نصه ما لا أريده، فأما هذه"..."، فعلامة حذف صاحب النص نفسه في خلال كلامه ما لا يريده.

بقوله: "أنت، يا أخي، لا تعقل؛ سَقَطُ الفرزدق شيءٌ يمتحن الرجالُ فيه عقولها حتى يستخرجوه، وسَقَطُ جريرٍ عِيٌّ"[1]- فأَخَّرَ مهلهلا خصمُه، بهلهلته للشعر، فأثبَتَها صاحبُه، ثم وَهَّمَ فهمَه لها؟

ولقد يساعد كلا منهما أصلُ الهلهلة في اللغة؛ فهذا ابن منظور يقول: "هَلْهَلَ النَّساجُ الثَّوبَ، إذا أرقَّ نَسْجَه وخَفَّفَه. والهَلْهَلَةُ سُخْفُ النَّسْجِ (...) وثوبٌ هَلْهَلٌ رَديءُ النَّسْجِ، وفيه من اللُّغات جَميعُ ما تقدَّم في الرَّقيق؛ قال النابغة:

أتاكَ بقولٍ هَلْهَلِ النَّسْجِ كاذبٍ ولَمْ يأتِ بالحقِّ الذي هُوَ ناصعُ

(...) والمهلهلة منَ الدُّروع أردؤها نسجًا (...) -قال بعضهم-: هي الحَسَنَةُ النَسْجِ ليستْ بصَفيقةٍ"[2]؛ فهلهلة أيِّ نسجٍ إرْقاقُ تَخْفيفٍ -وقد عهدناه في الأثواب الفاخرة- أو إرْقاقُ تَسْخيفٍ، وقد عهدناه في الأثواب البالية.

فتكون هلهلةُ مهلهل للشعر عند خصمه، إرقاق تسخيف، وعند صاحبه إرقاق تخفيف، دلالةً بدلالة، والبادئُ أظلم، مُحاجَّةً لا طائلَ وراءها، ولاسيما ألاّ بيانَ لأيٍّ من الدلالتين.

أمْ تُرى فَرَّقَ بين القادح والمادح، شعرُه، وأكثره منحول إليه محمول عليه، كما قال الأصمعي[3]؛ فقدح فيه من لم يميِّزْ شعره من شعر غيره، ومدحه من ميزه؟

ولكن أبا حاتم سأل الأصمعيَّ عن مهلهل مرةً، فأجابه: "ليس بفَحْلٍ، ولو قال مثل قوله:

أَلَيْلَتَنا بذي حُسُمٍ أنيري،

---

[1] المرزباني: ١٦٢.

[2] ابن منظور: هـ، ل، ل.

[3] المرزباني: ٩٥.

خمسَ قصائد، لكان أخفلهم"[1]؛ فدل على أنه ممن ميز شعره من شعر غيره، وقد مَرَّ أنه من القادحين!

أم تُرى هذه آثار أَوَّلِيَّةِ التَّقْصيدِ المُسَلَّمَةِ لمهلهل كما سبق: وُجوهٌ طبيعيةٌ من الضَّعْفِ ومن القُوَّة جميعًا معًا، غَلَبَ عليها لدى القادح الضعفُ، ولدى المادح القوةُ؟

ولكن أين بيان ذلك؟

كل أولئك وجوه من الظن لن تستولي على اليقين حتى يدركها البحث بسَبْرِ أَمْرِ الْمَهْلَهَلَةِ، ثم فَرْقِ ما بين شعر مهلهل وشعر غيره المحمول عليه المنحول إليه، ثم فَرْقِ ما بين شعره وشعر من قبله وشعر من بعده.

---

[1] السابق نفسه.

المَهْلَهَلَةُ جَزَالَةٌ أَوْ رَكَاكَةٌ

[٦] اختارَ أبو تمّامٍ لمهلهل في "باب المَراثي" من "ديوان الحَماسة"، قولَه في أخيه:

"نُبّئْتُ أنَّ النارَ بَعْدَكَ أوقِدَتْ واسْتَبَّ بَعْدَكَ ياكُلَيْبُ المَجْلِسُ

وَتَكَلَّموا في أَمْرِ كُلِّ عَظيمَةٍ لَوْ كُنْتَ شاهِدَهُمْ بِها لَمْ ينبِسوا

وَإِذا تَشاءُ رَأَيْتَ وَجْهًا واضِحًا وَذِراعَ باكِيَةٍ عَلَيْها بُرْنُسُ

تَبْكي عَلَيْكَ وَلَسْتَ لائِمَ حُرَّةٍ تأْسى عَلَيْكَ بِعَبْرَةٍ وتَنَفَّسُ"[1]!

وهي قطعة باقية من قصيدة غير التي أَكْبَرَها الأصمعي فيما سبق، آثَرَها أبو تمام، واقتصر عليها طلال حرب[2]، وعَثَرَ لها أنطوان القوّال، بزيادة هذين البيتين بعد الثاني، في "مجالسِ ثَعْلَبٍ":

"أَبَني رَبيعَةَ مَنْ يَقومُ مَقامَهُ أَمْ مَنْ يَرُدُّ عَلى الضَّريكِ وَيَحْبِسُ

وَتَلَهَّفَ الصُّعْلوكُ بَعْدَكَ أُمَّهُ لَمّا اسْتَعالَ وَقالَ أَنّى الْمَجْلِسُ"[3]!

وما ديوانُ الحماسةِ إلا مختاراتُ أبي تمام من الشعر العربي القديم، التي انتدَبَ أبو علي المرزوقيُّ إلى شرحها، فاقتضتْه أن يُنبه من يشرحها له، على العمود الذي به نَهَضَ ذلك الشعرُ من سائر الكلام واختيرت تلك المختاراتُ من سائر القصائد، كالعمود الذي به تنهض الخيمة

---

[1] أبو تمام: ١/ ٣٨٤- ٣٨٥.

[2] حرب: ٤٤.

[3] القوال: ٤٧.

من سائر الأرض وتُؤْثَرُ من سائر المنازل؛ فكانت "جَزَالَةُ اللَّفْظِ" شطرَ الباب الثاني من سبعة أبواب هي ذلك العمود[1].

ولم يختصَّ المرزوقيُّ بذكر "جَزَالَةِ اللَّفْظِ"؛ فقد ذكرها قبله الجاحظ[2]، وثعلب[3]، والأصفهاني[4]، والآمدي[5]، والمعتزلي[6]، والعسكري[7]، وغيرهم، ولكنه اختص بإيرادها على النحو السابق، في أبواب عمود الشعر العربي القديم.

[٧] والإِجْزَالُ في لغتنا عَكْسُ الإِرْكَاك[8]، الذي هو"إرقاقُ التسخيف"، الذي هو أحد دَلالَتَيِ "الهَلْهَلَةِ"، كما سبق: "رَكَّ الشيء أيْ رَقَّ وضَعُفَ، ومنه قولهم: اقطعْهُ مِن حيثُ رَكَّ، والعامة تقول: من حيث رَقَّ، وثوبٌ ركيكُ النَّسْج"[9]، ولولا قرابة "رَقَّ" من "رَكَّ" وَزْنًا ومَعْنًى، والقاف من الكاف، مخرجًا وصفة- ما التبس الفعلان، وهو ما يوحي بأن المعنيين فيهما من جنس واحد؛ فمن ثم يكون الإجزال هو "إرقاقَ التخفيف"، الذي هو دَلالةُ الهلهلة الأخرى، لا "الإِغْلاظَ"، الذي هو عكسُ "الإِرْقاقِ"؛ إذ هذا من القَدْح، وذاك من المَدْح، وقديما قال الجاحظ فَفَصَل: "منَ الكلامِ الجَزْلُ والسَّخيفُ"[10].

---

[1] المرزوقي: ١/ ٩.

[2] الجاحظ: ١/ ١٤٤.

[3] ثعلب: ٦٣.

[4] الأصفهاني: ٢٥/ ٨٦٧٥، ٢٧/ ٩٤٥٣.

[5] الآمدي: ١/ ٤٢١.

[6] المعتزلي: ١٦/ ١٩٨.

[7] العسكري: ١٥٥، وكذلك الطناحي: ٥-٦.

[8] ابن منظور: ج، ز، ل.

[9] السابق: ر، ك، ك.

[10] الجاحظ: ١/ ١٤٤.

من ثَمَّ تقع هلهلة مهلهل لشعره عند خصومه وأصحابه، التي جنى عليه وحده فيها لَقَبُه الذي اختص به من سائر الشعراء[1]- بين الإجزال والإركاك اللذين وقع بينهما عمل سائر الشعراء القدماء؛ فمن قدح فيه بها فقد عدَّها من الإركاك، ومن مدحه بها فقد عدَّها من الإجزال.

[٨] وعلى رغم ذلك الإيراد الطريف، ترك المرزوقي شرح "جزالة اللفظ" -ومثلها سائر أبواب العمود- إلى إيجاز قول فيما رآه عيار الباب (معياره): "عيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال؛ فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم. وهذا في مفرداته وجملته مراعى، لأن اللفظة تستكرم بانفرادها، فإذا ضامها ما لا يوافقها عادت الجملة هجينا"[2]، فأضاف ما يحتاج إلى شرح آخر!

ولولا انصراف كلام الجرجاني إلى نقد مقالة المُعْتَزِلِيّ وأستاذه أبي هاشم الجُبَّائِيّ، لجاز أن يكون أراد المرزوقيّ بقوله: "لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاما للأولين ويتدارسوه، ويكلم به بعضهم بعضا، من غير أن يعرفوا له معنى، ويقفوا

[1] روى بالتَّمْريضِ ابنُ دريد: ٦١، أنه إنما "سمي مهلهلا لقوله:

لَمَّا تَوَقَّلَ في الْكُراعِ هَجِينُهُمْ هَلْهَلْتُ أَثْأَرُ مالِكًا أَوْ صِنْبِلا"!

وكذلك صنع البغدادي: ٢/ ١٦٥، وابن منظور: هلل، والقوال: ٨، وغيرهم، وهو ما أباه حرب: ٨، ساخرا: "إن فارسنا الذي دوخ بكرا وفتك بأبطالها اسمه [الذي كاد]، أو [الذي كاد يثأر]"!- مؤثرا أن يكون لقبه اسمه، ولاسيما أن من معانيه السمَّ؛ فيكون سم أعدائه، على ما كان العرب يرغبون لأسماء أبنائهم أن تكون. وليس يمتنع على وجاهة النقد، أن يكون عديٌّ ابتدع الفعل "هلهل" في اللغة؛ فمثل هذا من عمل الشعراء، أو ابتدع ذكره في الشعر، فسموه به. ومن الطريف قول فارمر -٥٩-: "قيل إن [عدي بن ربيعة] -وهو شاعر بني تغلب الأشهر- ما لقب بالمهلهل إلا لحسن صوته، على أن كتابا آخرين يقدمون أسبابا أخرى لاشتهاره بهذه الصفة".

[2] المرزوقي: ١/ ٩.

منه على غرض صحيح، ويكون عندهم، إن يسألوا عنه، بيان وتفسير- إلا [علم الفصاحة]؛ فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظا للقدماء وعبارات، من غير أن يعرفوا لها معنى أصلا، أو يستطيعوا -إن يسألوا عنها- أن يذكروا لها تفسيرا يصح. فمن أقرب ذلك، أنك تراهم يقولون إذا هم تكلموا في مزية كلام على كلام: [إن ذلك يكون بجزالة اللفظ]... ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء"[1].

[٩] لا مُشاحّة لدى الجرجاني في استعمال المحدثين لجزالة اللفظ، مصطلحِ القدماء - وأولى منه ألا مشاحة لديه في استعمال الجزالة اصطلاحا، جنسا لمَزِيّة اللفظ[2]- ولكن المشاحة الشديدة لديه في ألا يتحمل المحدثون تكاليف استعمال مصطلح القدماء، الثلاثة:

١ عِلْم معناهُ أي حقيقتِهِ التي يُسْأَلُ عنها بـ"ما"؟

٢ وعِلْم غَرَضِهِ أي عِلَّةِ حقيقته التي يسأل عنها بـ"لِمَ"؟

٣ وعِلْم تَفْسيرِهِ أي تمثيلِ حقيقته الذي يسأل عنه بـ"كَيْفَ"؟

أي في أن يجهلوا أَمْرَ تلك المَزِيَّةِ :

أَمْــرُ الْجَـــزالَةِ		
علم معناها (ما هي؟)	علم غرضها (لم هي؟)	علم تفسيرها (كيف هي؟)

وإلا وجب ألا يستعملوا مصطلحها؛ فقد صار أحدَ الرموز إلى حياتنا الثقافية السابقة، التي يؤدي فقهها إلى فقه مسيرتنا الثقافية إلى المستقبل[3].

[١٠] لا ريب في حَداثَةِ القديم في زمانه، وقَدامَةِ الحديث بعد زمانه. ولكن لا ريب أيضا، في انضباط كل منهما بالآخر؛ فعلماء القرنين الهجريين الرابع والخامس جميعا -ومنهم

---

[1] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٤٥٦.

[2] صمود: ٤٩٧- ٤٩٨.

[3] ناصف "٢": ١٣٩- ١٤٠، ١٤١- ١٤٢، ١٨٥- ١٨٦.

المعتزلي والمرزوقي كلاهما- قدماء لدينا أبناء القرنين الهجريين الرابع عشر والخامس عشر، محدثون لدى الجرجاني ابن القرن الهجري الخامس، وعلماء القرون الهجرية الأول والثاني والثالث، قدماء لدى الجرجاني بعيدو القدم لدينا، وعلماء القرنين الهجريين الرابع عشر والخامس عشر، محدثون لدينا غائبون لدى الجرجاني.

من ثم ينبغي لنا في أمر الجزالة والركاكة:

- أولا: أن نبحثه عند القدماء لدى الجرجاني البعيدي القدم لدينا، ولاسيما ما استوعبه هو عنهم.
- ثانيا: أن نبحثه عند من استوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديه جميعا معا.
- ثالثا: أن نبحثه عند من لم يستوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديه جميعا معا.

حتى إذا ما انجلى أمرهما انجلى أمر الهلهلة.

الْجَزَالَةُ وَالرَّكَاكَةُ عِنْدَ الْقُدَمَاءِ

[١١] مر في نقد الجرجاني لاستعمال المحدثين لمصطلح القدماء، من دون أن يتحملوا تكاليفه، أن "جزالة اللفظ" عنده، من "علم الفصاحة"، وهو قد كان قال هذه الكلمة العامة التي أراد بها أن يفرغ من أصلٍ عنده: "ليس لنا -إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة- مع معاني الكلم المفردة شغل، ولا هي منا بسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب"[١]؛ فقد كان يرى علوم البلاغة علما واحدا، وإن كان هو واضع نظريتي علمي المعاني والبيان[٢].

إن الجزالة والركاكة عند الجرجاني إذن، من صفات النَّظْم الذي هو "أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه [علم النَّحْوِ]، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَتْ؛ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت؛ فلا تخل بشيء منها"[٣]، وما الجزالة والركاكة إلا نمطان من صواب النظم ومن خطئه اللذين أشار إليهما بقوله: "لست بواجد شيئا يرجع صوابه -إن كان صوابا- وخطؤه -إن كان خطأ- إلى [النظم]، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له"[٤]، وليست الجزالة والركاكة نمطين من صواب الإعراب ومن خطئه اللذين أشار إليهما بقوله: "لسنا في ذكر تقويم اللسان والتحرز من

---

[١] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٧٢.

[٢] ضيف "١": ١٦٠- ١٦١.

[٣] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٨١.

[٤] السابق: ٨٢.

اللحن وزيغ الإعراب، فنعتد بمثل هذا الصواب. وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم، فليس درك الصواب دركا حتى يشرف موضعه، ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك الخطأ تركا حتى يحتاج في التحفظ منه إلى لطف نظر، وفضل روية، وقوة ذهن، وشدة تيقظ"[١].

وإن في استعماله مصطلحَ "الكلام" الخاصَّ، بدلا من مصطلحِ "اللفظ" العامِّ الواقع في كلام المرزوقي وغيره، لحرصًا على بيان انصراف صفات النظم ومنها الجزالة والركاكة، إلى الكَلِم المجتمعة لا المنفردات، ودرءًا لشبهة انفصال اللفظ من المعنى[٢]، ولاسيما أنني عثرت بمن وصف المعنى بالجزالة وبالركاكة، كما وصف اللفظ[٣].

[١٢] نفى الجرجاني في أول كتابه أن يُكتفى في الفصاحة بأنها "خُصوصيّةٌ في النظم"[٤]، فدل على أنها -ومنها لديه الجزالة والركاكة- هي تلك.

إن الجزالة في أصل لغتنا، القوة، والجزل القوي، وإن الركاكة الضعف، والركيك الضعيف. وصفت العربُ بذلك العقلَ والرأيَ والجسمَ والكلامَ[٥]، بل وقع في نصوص من

---

[١] السابق: ٩٨.

[٢] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٦٣- ٦٤. وعلى رغم ذلك ظنه الأستاذ الشايب يقول بأسلوبين لفظيٍّ ومعنويٍّ، فزيف الدكتور عياد -٢٩- ظنه قائلا: "وضع الأستاذ الشايب لقضية اللفظ والمعنى يتجاوز كل ما كتبه عبد القاهر حول هذا الموضوع، فلم يذهب عبد القاهر قط إلى مثل قول الأستاذ الشايب إن هناك أسلوبا معنويا، وأسلوبا لفظيا يتكون على مثاله. ولا شك أن هذا تبسيط شديد للعلاقة بين اللغة والفكر، ولكن الإجماع منعقد بين الباحثين في اللغة والأدب والأنثروبولوجيا وعلم النفس، على أن العلاقة بين اللغة والفكر لا تتم من جانب واحد يمكن أن يعد أحدهما أصلا والآخر صورة له".

[٣] المعتزلي: ١٦/ ١٩٧، والآمدي: ١/ ٢٣٩، والمرزوقي: ١/ ٧، وابن طباطبا: ٦.

[٤] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٣٦.

[٥] ابن منظور: ج، ز، ل- ر، ك، ك.

كلامها بحيث احتمل أن يكون وصفا لها كلها جميعا معا: "في حديث موعظة النساء: قالت امرأة منهن جَزْلَةٌ أي تامة الخلَق. قال: ويجوز أن تكون ذات كلام جَزْلٍ أي قوي شديد"[1]، وفي أخبار وفود عبد الله بن أبي معقل على مصعب بن الزبير، أن مصعبا لم يؤمِّره على غزوة زَرَنْجَ (قصبة سجستان)، حتى "أعجَبَه قولُه وجزالتُه"[2]، وليس يمتنع بل يحسن أن يكون أراد قوة عقله ورأيه وجسمه وكلامه جميعا معا؛ فيكون خروجها كلها لديهم من أصل واحد.

من ثم تكون جزالةُ الكلام عند الجرجاني، قوةَ نظمه، وركاكتُه ضعفَه، ثم هما حين تصيبان الكلام تصيبان عقل المتكلم ورأيه وجسمه جميعا معا، ولكنَّ لهذا حديثا آخر.

ولقد فَصَّلَ الجرجاني أمر النظم عقب تعريفه السابق له، بذكره أعمال الناظم قائلا: "لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه، غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه؛ فينظر في (الخبر) إلى الوجوه التي تراها في قولك: (زيد منطلق)، و(زيد ينطلق)، و(ينطلق زيد)، و(منطلق زيد)، و(زيد منطلق)، و(المنطلق زيد)، و(زيد هو المنطلق)، و(زيد هو منطلق)، وفي (الشرط والجزاء) (...)، وفي الحال (...)، وينظر في (الحروف) (...)، وينظر في (الجمل) (...)، ويتصرف في (التعريف)، و(التنكير)، و(التقديم)، و(التأخير)، في الكلام كله، وفي (الحذف)، و(التكرار)، و(الإضمار)، و(الإظهار)؛ فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له. هذا هو السبيل"[3].

---

[1] السابق: جزل.

[2] الأصفهاني: ٢٧/ ٩٤٥٣.

[3] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٨١، ٨٢. ومن أطرف الاتفاقات كما أوضح عبد اللطيف -٤٧ح، نقلا عن داود عبده- ألا تخرج أقسام القواعد التحويلية التي تحول بها بنية الجملة الداخلية إلى بنيتها الخارجية عند النحويين التحويليين، عن أقسام أعمال الناظم التي وجدتها في تفصيل الجرجاني. وإنما كان ذلك من أنها التي بها ابتنت البنية الداخلية في أصلها.

[١٣] إننا إذا اجتزأنا بالنظر فيما فصله ونقلناه من أعمال الناظم بباب "الخبر"، وجدناها على أربعة أقسام متكاملة، لا نستطيع أن نضبط زمان بدئه أيا منها ولا زمان ختمه؛ إذ ربما تجمعت عليه هي كلها أو بعضها، وربما تفرقت:

- أولها الإبدال؛ فليس إيثار الناظم في المسند أن يكون مفردا "منطلق"، أو جملة "ينطلق، هو ينطلق"، ونكرة "منطلق"، أو معرفة "المنطلق"- وفي الجملة أن تكون اسمية "زيد منطلق، زيد ينطلق"، أو فعلية "ينطلق زيد"، إلا إبدال المناسب من غير المناسب.
- وثانيها الترتيب؛ فليس إيثار الناظم في المسند أن يتأخر عن المسند إليه "زيد منطلق، زيد ينطلق"، أو أن يتقدم عليه "منطلق زيد، ينطلق زيد"، إلا ترتيب موقع كل منهما المناسب، من الآخر.
- وثالثها الحذف، وآخرها الإضافة؛ فليس إيثار الناظم في المبتدأ والخبر المعرفتين، أن يتصلا "زيد المنطلق" -وهو مفهوم من "المنطلق زيد"- أو أن ينفصلا "زيد هو المنطلق"، إلا حذف غير المناسب، أو إضافة المناسب.

ولا يخفى التباس الإبدال بغيره من أقسام الأعمال، في بعض ما فيها؛ إذ كل تغيير على وجه العموم، إبدال.

ثم إن في آخر نص الجرجاني السابق، بيانا آخر؛ فما إيثار التعريف أو التنكير والإضمار أو الإظهار، إلا الإبدال، ولا إيثار التقديم أو التأخير، إلا الترتيب، ولا إيثار التكرار من الحذف، إلا الإضافة.

ولقد مضى يفسر أعمال الناظمين، ويختبرها بموازنة كلامهم بعضه ببعض، أو بتغيير نظم كلامهم، وموازنة حاله الأخرى بحاله الأولى، غير متحرج من كلام الله؛ فله كان كتابه: "مما هو بتلك المنزلة في أنك تجد المعنى لا يستقيم إلا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم قوله -تعالى!-: [إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين]، وقوله -تعالى!-: [وقالوا

أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا]، وقوله -تعالى!-: [وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون]؛ فإنه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جيء في ذلك بالفعل غيرَ مبنيٍّ على الاسم، فقيل: [إن وليي الله الذي نزل الكتاب ويتولى الصالحين]، و[اكتتبها فتملى عليه]، و[حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فيوزعون]، لوجد اللفظ قد نبا عن المعنى، والمعنى قد زال عن صورته والحال التي ينبغي أن يكون عليها"[1]، ولم يكن العمل الذي اختبره، إلا الترتيب.

[١٤] وعلى ذلك نفسه يجري أمرُ الجزالة والركاكة، وأعمال المُجْزِل (صاحب الجزالة)، والمُرِكّ (صاحب الركاكة)؛ إذ يُبْدِلانِ الكَلِمَ للجملة، والجُمَلَ للفِقْرَةِ، والفِقَرَ للنَّصِّ، والنُّصوصَ لِلْكِتابِ، ويُرَتِّبانِها، ويَحْذِفانِ منها، ويُضيفانِ إليها -وهو مراد الجرجاني من قوله فيما سبق: "في الكلام كله"- حتى يستفرغا وُسْعهما، وينفُضا أيديَهما من الكلام كلِّه، فإن خرج قويَّ النظم كالحبل المشدود، لا يتيح لمستوعبه أن يقول: لو كان كذا مكان كذا لكان أفضل، كان جزلا، وإن خرج ضعيف النظم كالحبل المُرْخى، يتيح لمستوعبه أن يقول ذلك، كان رَكيكا. وإن غالى المجزل عاظَلَ أي أدخل الكلام بعضه في بعضه[2] -والمُعاظَلَةُ ركاكة- وإن غالى المركُّ خَلَّعَ أي فك بعضه من بعضه[3] -والتَّخْليعُ ركاكة[4]- والمغالاةُ -مهما تكن- إفسادٌ، وفيما يأتي في الفقرة الحادية والعشرين، بيانٌ آخر.

---

[1] السابق: ١٣٧.

[2] ابن سنان: ١٥١.

[3] ابن منظور: خ، ل، ع.

[4] قدامة: ١٨١؛ فقد ذكر من عيوب العروض "التَّخْليع"، أي الإفراط في الزحاف، الذي يخرجه "عن باب الشعر الذي يعرف السامع وزنه في أول وهلة، إلى ما ينكره حتى ينعم ذوقه، أو يعرضه على العروض فيصح فيه؛ فإن ما جرى هذا المجرى ناقص الطلاوة، قليل الحلاوة"؛ فلم أجد أدل على شدة إركاك الكلام من

وآية ذلك اختباره بما اختبر به الجرجاني أعمال الناظمين: موازنة نظمه بنظم كلام آخر مثله، أو تغيير نظمه وموازنة حاله الأخرى بحاله الأولى، والأوَّلُ أَوْلى وأَنْفَذُ اختبارا، فلن يخلو الآخر من التكلف[1].

ذلك أمر الجزالة والركاكة عند القدماء معنى وغرضا وتفسيرا، كما أراد الجرجاني للمحدثين أن يعلموا: صفةٌ نحويةٌ تَسْتَبْهِمُ على من يستوضحها في غير نحو الكلام[2]، تميز بها الشعر العربي القديم كما نبه المرزوقي فيما ذكره ولم يشرحه من أبواب عموده، وما أشبه ذلك الشعر، ولم يتميز بها سائر الكلام العربي؛ "فمِنَ الكَلامِ الجَزْلُ والسَّخيفُ، والمَليحُ والحَسَنُ، والقَبيحُ والسَّمْجُ، والخَفيفُ والثَّقيلُ، وكُلُّهُ عَرَبِيٌّ"[3]؛ إذ من الكلام ما يخرجه الرَّيْثُ والهَدْأَةُ

التخليع؛ فاستعرته للنحو من العروض، على طريقة علمائنا القدماء أنفسهم الدالة على اتحاد أصول تفكيرهم وأصالة عملهم فيما استنبطوا من العلوم الخالصة لهم.

[1] الآمدي: ١/ ٦، ٥٧، ٤٢٩، والقرطاجني: ٣٧٦، ومصلوح: ٤٩، ١٠٥، وصقر "٢": ٣٩- ٤٢.

[2] ناصف "٢": ٢٥٢؛ فقد قال: "جاء عبد القاهر، فكتب كتابا خلاصته: إذا أريد لدراسة الأدب أن تبلغ درجة من النضج، فلا بد من إقامة رابطة بينها وبين المسائل النحوية المتعلقة بنظام الكلمات أو تركيب العبارات. من النحو يمكن أن ينشأ فصل مهم في علم الأدب. هذه القضية البسيطة التي يرفع لواءها باحث ذكي في القرن الخامس. من التأمل في الاحتمالات النحوية يمكن أن يفتح الباب أمام خبرة أقوى بالشعر. ولن نستطيع أن نفهم الشعر ما لم نستطع أن نحول دراسة النحو بحيث تفيدنا في توضيح لغة الشعر التي ظلت توصف وصفا مبهما في الكتابين العظيمين اللذين كتبهما الآمدي والقاضي الجرجاني. كان الآمدي والجرجاني يتحدثان عن قوة الألفاظ. وما من ناقد تعرض للشعر دون أن يفطن إلى هذه الخاصية، لكن قوة الألفاظ ظلت عبارة مبهمة أو بابا مغلقا، فكيف يمكن أن نعرف ما نسميه باسم قوة الألفاظ وفاعليتها؟ لابد لنا أن نستعين بالنحو الذي هو روح اللغة ونظامها". ولم تكن قوة الألفاظ عند عبد القاهر الجرجاني إلا جزالتها، ولا كان الآمدي وعلي الجرجاني إلا بعضَ المحدثين.

[3] الجاحظ: ١/ ١٤٤.

والتَّهْذيبُ، ككلام المكاتبة -وهي في شعراء العرب من قديم- ومنه ما تخرجه العَجلةُ والثَّوْرةُ والإِهْمالُ، ككلام المشافهة، والجزالة أَعْلَقُ بالأوائل، والركاكة أَعْلَقُ بالأواخر، ولن يتَسَاوى نظما الكلامَيْن، ولا أعمالُ الناظمَيْن[1].

[١٥] ولقد صارت منزلة الجزالة من الشعر العربي القديم، وسيلة إلى تمييزه من غيره، ومن المحمول عليه المنحول إليه. روى الأصفهاني عن ابن الكلبي عن بعض بني الحارث بن كعب، خبرَ اجتماع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطفيل بأمية بن الأسكر وابنته في عكاظ قبيل الإسلام أو في أوله، وفيه شعر، ثم قال: "هذا الخبر مصنوع من مصنوعات ابن الكلبي، والتوليد فيه بين، وشعره شعر ركيك غث لا يشبه أشعار القوم، وإنما ذكرته لئلا يخلو الكتاب من شيء قد روي"[2]، فزيف الخبر بتزييف شعره بركاكته، ونثره بتوليد أحداثه.

---

[1] فندريس: ١٩٥، وأونج: ١٩٩- ٢٠٠، ويوسف: ١٩٨- ١٩٩، ٢٣١- ٢٣٢، والوعر "٢": ٨٠- ٨٢، والعبد: ١٢٠.

[2] الأصفهاني: ٢٣/ ٨١٧٦.

اَلجَزَالَةُ وَالرَّكَاكَةُ عِنْدَ الْمُحْدَثِينَ الْمُسْتَوْعِبِينَ

من المحدثين قِلَّةٌ استوعبت من أمر الجزالة عند القدماء ومَنْزِلَتِها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه عبد القاهر الجرجاني فيما سبق، كالحسن بن رشيق القيرواني، وحازم القرطاجني، و الدكتور عبد العزيز الأهواني، والدكتور محمد الهادي الطرابلسي.

[١٦] أما ابن رشيق فقد دل على ذلك قولُه: "العرب لا تنظر في أَعْطاف شعرها بأن تُجَنِّسَ أو تُطابِقَ أو تُقابِلَ، فَتَتْرُكَ لفظة للفظة، أو معنًى لمعنى، كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسْط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض، حتى عدوا من فضل صنعة الحطيئة، حُسْنَ نَسْقِهِ الكلامَ بعضَه على بعض في قوله:

فلا وأبيك ما ظلمتْ قريعٌ بأن يَبنوا المكارمَ حيث شاؤوا

ولا وأبيك ما ظلمتْ قريعٌ ولا بَرِموا لذاك ولا أساؤوا (...)

وكذلك قول أبي ذؤيب يصف حمر الوحش والصائد:

فوردْنَ والعَيّوقُ مَقْعَدَ رابِئِ الضُّرباءِ خَلْفَ النَّجْمِ لا يَتَتَلَّعُ

فَكَرَعْنَ في حجرات عذبٍ بارد حصبِ البِطاحِ تَغيبُ فيه الأَكْرُعُ (...)

فأنت ترى هذا النسق بالفاء كيف اطرد له، ولم يخل عقده، ولا اختل بناؤه، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته إياه لما تمكن له هذا التمكن"[١].

إنه عالم ناقد وفنان شاعر، لم يغب عنه تمسك معاصريه بالبديع دون القدماء -حتى ليتركون له قَصْدًا أعمالا من الجزالة- وتمسك القدماء بالجزالة دون معاصريه، حتى ليتركون

---

[١] ابن رشيق: ١/ ١٢٩- ١٣٠.

له عفواً أعمالا من البديع. ثم هو يخوض في القدماء لما كان في حديثهم؛ فيذكر حسن عطف الحطيئة بالواو جُمَلَ البيت الثاني "ما ظلمت قريع"، و"لا برموا لذاك"، و"لا أساؤوا"، على جملة البيت الأول "ما ظلمت قريع (...) شاؤوا"، وحسن عطف أبي ذؤيب بالفاء جملة البيت الثاني، على جملة البيت الأول، وكلتاهما مبسوطتان على أرجاء بيتيهما، بأجزاء مختلفة مؤتلفة معا، دون أن يعبأ الأول بحذو أولى المعطوفات على المعطوفة عليها، أو يتحرى الآخر قياس المعطوفة على المعطوفة عليها.

ولكنه يجد في معاصريه من يذهب إلى الجزالة مذهب القدماء؛ فيتأمل شعرهم؛ فيجده على ثلاثة أصناف:

صنف يتخذ للجزالة الألفاظ المَصونة، في موقعها، ومنه شعر بشار، كقوله:

"إذا ما غضبنا غضْبة مُضَرِيَّةً هَتَكْنا حِجابَ الشَّمْسِ أو قَطَرَتْ دَما

إذا ما أعرْنا سيِّدًا منْ قبيلة ذَرَا منبرٍ صلَّى علينْا وسلّما"[1]

وصنف يتخذ للجزالة الألفاظ المَصونة، في غير موقعها، ومنه شعر ابن هانئ، كقوله:

"أصاختْ فقالتْ وَقْعُ أَجْرَدَ شَيْظَمٍ وشامتْ فقالتْ لَمْعُ أبيضَ مِخْذَمِ

وما ذُعِرَتْ إلا لِجَرْسِ حُلِيِّها ولا رَمَقَتْ إلا بُرًى في مُخَــدَّمِ"[2]

وصنف يتخذ للجزالة الألفاظ المَبْذولة، في موقعها، ومنه شعر أبي العتاهية، كقوله:

" يا إِخْوَتي إِنَّ الْهَوى قاتِلي فَيَسِّروا الْأَكْفانَ مِنْ عاجِلِ

وِلا تَلوموا في اتِّباعِ الْهَوى فَإِنَّني في شُغُلٍ شاغِلِ

عَيْني عَلى عُتْبَةَ مُنْهَلَّةٌ بِدَمْعِها الْمُنْسَكِبِ السَّائِلِ

يا مَنْ رَأى قَبْلي قَتيلًا بَكى مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ عَلى الْقاتِلِ

---

[1] السابق: ١/ ١٢٤.

[2] السابق: ١/ ١٢٥.

بَسَطتُّ كَفّي نَحْوَكُمْ سائِلًا ماذا تَرُدّونَ عَلى السّائِلِ

إِنْ لَمْ تُنيلوهُ فَقولوا لَهُ قَوْلًا جَميلًا بَدَلَ النّائِلِ

أَوْ كُنْتُمُ الْعامَ عَلى عُسْرةٍ مِنْهُ فَمَنّوهُ إِلى قابِلِ"[1]

لم يَعِبِ ابن رشيق إلا الثاني، قائلا: "فِرْقةٌ أصحابُ قَعْقَعَةٍ بلا طائلٍ معنًى إلا القليلَ النادرَ (...) وليس تحتَ هذا كلِّه إلا الفَسادُ"[2] -وكأني بالمعري يقول في ابن هانئ نفسه: "رَحًى تَطْحَنُ قُرونًا"!- ولكنه لم ينفه من مذهب الجزالة.

لقد أفسد ابن هانئ على شعره جزالته، وأَحْنَقَ ابنَ رشيق، بما تَعَمَّد فيه من الإِغْراب، ونَكَبَهُ أَنْ كان في الغزل الذي تُتَخَيَّرُ فيه أَوانِسُ الألفاظ لأَوانسِ النّاسِ!

قال ابن رشيق فيما قبل ذلك من كتابه: "ليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقا سفسافا، ولا باردا غثا، كما ليست الجزالة والفصاحة أن يكون حوشيا خشنا، ولا أعرابيا جافيا، ولكن حال بين حالين. ولم يتقدم امرؤ القيس والنابغة والأعشى إلا بحلاوة الكلام وطلاوته، مع البعد من السخف والركاكة"[3]؛ فدل على التقاء الرقة والجزالة معا في منزلة وَسَطٍ، وهو ما سبق أن رأيناه في ترقيق التخفيف، وعلى التقاء الرقة والركاكة معا في منزلة طَرَفٍ، وهو ما سبق أن رأيناه في ترقيق التسخيف.

[١٧] وأما حازم القرطاجني، فقد دل على استيعابه أمر الجزالة عند القدماء، قولُه في عقب دلالته معاصرَه الشاعرَ الذي لم يعش زمان عِزَّةِ العربية، على طرق العلم بتحسين هيآت العبارات والتأنق في اختيار موادها وإجادة وضعها ورصفها: "بقوة التَّهَدّي إلى العبارات الحسنة يجتمع في العبارات أن تكون مستعذبة جزلة ذات طلاوة (...) والجزالة تكون بشدة

---

[1] السابق: ١/ ١٢٦.

[2] السابق: ١/ ١٢٥.

[3] السابق: ١/ ٩٣.

التطالب بين كل كلمة وما يجاورها وبتقارب أنماط الكلم في الاستعمال (...) فهذه إشارة إلى ما يجب أن يتفقده الناظم ويلتفت إليه، على قدر قوته، من الجهات التي تحسن منها العبارات أو تقبح، قد أجملت الكلام فيها، وجعلتها كالإحالة على ما قدَّمته"[1].

وعلى "ما قدمته"، علق المحقق قوله: "يظهر أن تفصيل ذلك كان في القسم الأول المفقود من هذا الكتاب".

أما اتخاذ "شدة التطالب" سبيلا إلى الجزالة، فسديد جدا؛ فما هي إلا أن يحرص الشاعر في خلال إبداله وترتيبه وحذفه وإضافته، على اختيار المتناسب المتماسك، الذي يخرج -وهذا معنى عربي قديم سبق في الفقرة الثانية عشرة ذِكْرُه- كجسمه "في صفة النبي -صلى الله عليه، وسلم!-: بادن متماسك؛ أراد أنه مع بدانته متماسك اللحم ليس بمسترخيه ولا منفضخه، أي أنه معتدل الخلق كأن أعضاءه يمسك بعضها بعضا"[2].

وأما "تقارب أنماط الكلم في الاستعمال"، فقد سبق له أن زاده بيانا في خلال حديثه عن تلاؤم الكلام الذي يقع على أنحاء، قائلا: "منها ألا تتفاوت الكلم المؤتلفة في مقدار الاستعمال؛ فتكون الواحدة في نهاية الابتذال، والأخرى في نهاية الحوشية"[3]؛ فلم يعْدُ ما أَحْنَقَ ابن رشيق على ابن هانئ، إلا أنَّ ما يقع في غير موقعه، هو بعضُ الكلام دون بعضٍ عنده، وهو الكلامُ كلُّه عند ابن رشيق، وكلاهما يفسد على الشعر جزالته، ولا ينفيها، وإن كان ما نبه عليه حازم أشد إفسادا؛ فإن الناس يتفاوتون في رؤية الكلام واقعا كلُّه في غير موقعه،

---

[1] القرطاجني: ٢٢٥.

[2] ابن منظور: م، س، ك.

[3] القرطاجني: ٢٢٤.

على حسب أعرافهم؛ "فإن الوَحْشيَّ من الكلام يفهمه الوحشيُّ من الناس، كما يفهم السوقيُّ رَطانةَ السوقيِّ"[1]، فأما أن يخرج مُلمَّعًا بعضُه من وادٍ وبعضُه من آخر، فمِمّا يُتَفَكَّهُ به[2]!

وفيما ذكره الجرجاني في كتابه "أسرار البلاغة"، من "رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير شِرْكٍ من المعنى فيه، وكونه من أسبابه ودواعيه"[3]، إشارة إلى "تقارب أنماط الكلم في الاستعمال"، تؤيد رأيي السابق؛ إذ لم تجز فيه عنده لا جزالة ولا ركاكة!

[١٨] وأما الأهواني فقد دل على استيعابه أمر الجزالة عند القدماء، ومنزلتها من الشعر العربي القديم، استيعابُه لأمر الركاكة ومنزلتها من شعر ابن سناء الملك.

لقد فلسف الظاهرة بقوله: "إن الركاكة في الأساليب أثر من آثار الازدواج اللغوي بغير شك. وينبغي أن نفرق بين الركاكة وبين العامية، وأن نفرق بينها أيضا وبين السهولة؛ إذ إن الركاكة تنشأ عن عدم تمكن الأديب من اللغة التي يكتب بها، لافتقاره إلى معرفة أصولها، وإدراك أسرارها، ولقلة بصره بالفروق الدقيقة بين دلائل المفردات ومعاني التراكيب ومناسبات الجمل وروابطها. إن ما نسميه بالركاكة ليس بشرط أن يكون خطأً في نحو اللغة واستعمال مفرداتها فيما وضعت له، وإنما هو في العجز عن التصرف باللغة بحيث تؤدي الأفكار وتعبر عن الإحساس تعبيرا مرهفا، وبحيث يكون تأليفها محكما متينا، ونظمها متساوقا ومنسجما. إن المثل الواقعي للركاكة هو ما يحسه ابن اللغة فيمن يكتب أو يتكلم بلغته من أبناء اللغات الأجنبية، حين يكون هذا الأجنبي قد درس اللغة بعيدا عن وطنها الأصلي. والركاكة بهذا المعنى لا يحسها إلا من كان حظه من إتقان اللغة عظيما، بأن يكون قد ولد في بيئة تتكلمها أو يكون قد طالت قراءته لنصوصها الممتازة. فإن استطاع الجمع بين الأمرين، وكان ذا

---

[1] الجاحظ: ١/ ١٤٤، وكذلك الخفاجي: ٣٢- ٣٣، ٨٢.

[2] ابن طباطبا: ٨- ٩.

[3] الجرجاني، ١٤١٢هـ: ٦.

موهبة لغوية وذوق وحس في التفريق بين جرس الكلمات وتنغيم الجمل وموسيقية العبارات كان الحَكَم الأول في القضية (...) فالعامية لغة مستقلة لها أساليبها وألفاظها ولها بلاغتها كما أدرك ذلك ابن خلدون قديما. فإن تسربت العامية إلى اللغة المُعْربة تسربا غير طبيعي، منشؤه ضعف شاعر العربية، حدثت الركاكة (...) على أن الركاكة في الشعر لا تجيء دائما من الضعف اللغوي ومن جهل أساليب العربية وضعف التمييز بين الجيد والرديء منها. وإنما تجيء أحيانا من ضعف الحس الموسيقي عند الشاعر؛ فالجزالة ذوق ومعرفة باللغة معا. والتقصي يثبت أن حظ المتأخرين منها كان أقل من حظ المتقدمين من الشعراء، ولعل ابن سناء الملك يعتبر خيرا من كثير من معاصريه والتابعين له فيما يتصل بالجزالة"[1].

ما وجوه التصرف باللغة بحيث يخرج التعبير مرهفا ومتينا ومنسجما، إلا أقسام أعمال الناظم التي استنبطناها من نص الجرجاني، وأجرينا عليها أعمال الْمُجْزِل والْمُرِكّ، وما العجز عن تلك الوجوه إلا الركاكة، ولا القدرة عليها إلا الجزالة.

وليس الحِسُّ الموسيقي الذي جَعَلَ العجز عنه ركاكة والقدرة عليه جزالة، وجها من تلك الوجوه، بل اختبارٌ من اختباراتها؛ فاللغةُ أصواتٌ تؤلف منفردةً ومجتمعةً كَلِماتٍ وجُمَلًا وفِقَرًا ونُصوصًا؛ فإذا مَرَّ المتكلم في التعبير إبدالا وترتيبا وحذفا وإضافة، ساعده إلفه على إصابة ما يأخذ وما يترك فيُجزِلُ إذا كان أَلِفَ الجَزْلَ، أو ساعد ناقده على تخطيئه فيما أخذ وما ترك فأَرَكَّ إذا كان أَلِفَ الرَّكيك. ولا يُعترض على ذلك بأنه كاتب -وإنما اللغة المنطوقة- فإن الكاتب يقرأ على أذنه ما كتب على ورقته، ليستفيد مساعدة ذلك الحس الموسيقي، وهي وصية أبي تمام لتلميذه البحتري من قديم[2].

---

[1] الأهواني: ٤١، ٤٢، ٤٣.

[2] ابن أبي الإصبع: ٤١٠.

ولقد ألقى الأهواني كلمته في اختلاف الركاكة والسهولة (الوضوح)، ومضى دون أن يزيدها بيانا. وإنها لكلمة سديدة جدًّا، إذ تتعلق السهولة بقوة النظم (جزالته) التي تُعَلِّقُ مُسْتَوعِبَهُ بدقائق كل عمل من أعماله، لا بضعفه (ركاكته) التي تعوق استيعابه. وسيأتي لهذه المسألة في الفقرة الحادية والعشرين، مزيد بيان.

أما تسرب كلام اللهجة إلى كلام اللغة، فمما يفسد على الشعر جزالته -وإن لم يَنفها- ويَدَعُهُ سُخْرَةَ الْمُتَمَثِّلِينَ، إذ هو من عدم "تقارب الكلم في الاستعمال"، الذي عابه القرطاجني، ومن عدم وقوع الكلم في مواقعها، الذي أحنق ابن رشيق على ابن هانئ. ولقد كان من آثار اشتغال ابن سناء الملك بشعر اللهجة، أن "غلب على نظمه في القريض (شعر اللغة) استعمالُ اللفظ العامي، وفساد المعنى، واختلاف تركيبه، حتى أخرجوا له من ذلك ومما لا يجوز استعماله في العربية، قدرا كثيرا"[1].

ولقد رأى الأهواني في غلبة المنطق النحوي على نظم الكلام لافتقاد سليقة اللغة وإلف قراءة الكتابات النثرية في العلوم الإسلامية واللغوية المدرسية وما أشبهها ثم الاشتغال بها- سر ركاكة شعر المتأخرين[2]، الذين رأى فيما سبق، أن التقصي يثبت أن حظهم من الجزالة كان أقل من حظ المتقدمين. وعلى رغم أن ابن سناء الملك خيرٌ حظًّا عنده من كثير من معاصريه وتابعيه، لم يستطع أن يكتم من الركاكة، ما تجلى له في قوله:

"صَحَّ مِنْ دهرنا وفاةُ الحَيَاءِ   فليطُلْ منكما بُكاءُ الْوَفاءِ
ولْيَبِنْ ما عقدتماه من الصبر بأن تَحُلَّا وِكاء البُكاءِ

---

[1] الحلي: ١٣٤. ولقد رغبت مرة في خلال تدريسي لعلم عروض شعر اللغة العربية، أن أستطرد إلى أمثلة من شعر اللهجة العربية المصرية، دلالة على علاقتهما، فذكرت ذلك لأستاذي محمود محمد شاكر -رحمه الله!- فزجرني عنه شديدا!

[2] الأهواني: ٤٤.

وأهينا الدموع سَكْبًا وهَطْلًا وهبا أنهنَّ مثل الهَباءِ
وامنحا النوم كل صَبٍّ ينادي مَنْ يُعير الكَرى ولو بالكِراءِ
ليست العينُ منكما لي بعينٍ أو تعاني حملًا لبعض عَنائي"[١]!

فقد أفسد نظمها بما التزم في جملها وفي روابط جملها: من تكرار التركيب الإضافي نفسه ثلاث مرات متقاربات "وفاة الحياء، بكاء الوفاء، وكاء البكاء"- ومن تكرار تركيب الجار والمجرور نفسه مرتين متشابهتين "منكما، منكما"- ومن قبح قوله: "وليبن ما... بأن تحللا"، و"وهبا أنهن مثل الهباء"، دون أن يبين وجه القبح. والحقيقة أن ما قدمه في غلبة المنطق النحوي، بيان جلي لسر قبح الأبيات كلها؛ فما هي إلا تراكيب قضائية، صاغها قاضٍ لم ير المقضيَّ عليه لكيلا تشوب قضاءه شبهةُ عطف عليه! ولقد أحنقه تمسك ابن سناء بالبديع الذي لم يمر بنا هنا من قبل، فزمانُه زمانُه.

[١٩] أما الطرابلسي فقد دل على استيعابه أمر الجزالة عند القدماء، ومنزلتها من الشعر العربي القديم، استيعابُه لمنزلتها من شعر أحمد شوقي، ولمدخل الركاكة إليه.

لقد اعتذر عن إخلاله بمقتضى طبيعة بحثه الوصفي التفسيري التي لا تناسبها الأحكام المعيارية، بعجزه عن كتمان ما وجد في تعابير شوقي، من جزالة ومن ركاكة.

لقد دعا الجَزْلَةَ "قَويمَةً"، ولم يُطل حديثها؛ فشوقي مشهور بها "لا يعدم الناظر في قصيدة من قصائده أثر الثقافة المتينة والفن الخلاق"[٢]، وإن فسرها باعتماده التصوير، كما في قوله:

تَسْمَعُ الأَرْضُ قَيْصَرًا حينَ تَدْعو وَعَقيمٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ الدُّعاءُ

---

[١] السابق: ٤٣.

[٢] الطرابلسي: ٣٢٥.

الذي صور فيه شوقي الدعاء الذي ليس وراءه خير بالدعاء العقيم؛ فنبه الطرابلسيُّ على أن مثل هذا التصوير هو الذي حمى جزالة تعابيره الغالبة[1]، وهو فهم طريف؛ إذ لولا الوصف بالعقم وتقديمه وتأخير الدعاء إلى القافية وتعليقه به، لاضطرب تركيبُ عَجُزِ هذا البيت. وما تلك إلا الإبدال والترتيب من أعمال الناظم المُجْزِلِ.

ودعا الركيكة "سَقِيمَةً" وأطال الحديث فيها لأنها "عوارض نادرة كالشذوذ الذي يؤكد القاعدة، يدرس لتتوثق المعرفة بالقاعدة لا به"[2]، وفسرها بإيفائه حق بعض قيود الكلام، كما في قوله:

قَذائِفُ تَخْشى مُهْجَةُ الشَّمْسِ كُلَّما عَلَتْ مُصْعِداتٍ أَنَّها لا تُصَوَّبُ

الذي أراد فيه وصف القذائف بقوة الانفجار وارتفاع المدى، حتى إن الشمس لتخشى أن تصيبها إذا أخطأت مرماها؛ فضاقت فسحة البيت عما أراد.

وكما في قوله:

وَدانى الْهَوى ما شاءَ بَيْني وَبَيْنَها فَلَمْ يَبْقَ إِلّا الْأَرْضُ وَالْأَرْضُ تَقْرُبُ

الذي أراد فيه فكرة تقارب الحبيبين روحا ومكانا، بانطواء الأرض الفاصلة بينهما؛ فلم تمكنه القافية. وما تلك إلا الإبدال والحذف من أعمال الناظم المُرِكّ.

ثم قال: "إن تعابير شوقي لم تخل من سوء، ولكننا نقر -مع ذلك- أن ظاهرة سوء التعبير ليست شائعة في [الشوقيات] بالقدر الذي يضعف قيمة أشعارها؛ فقد بقيت تعابير الشاعر محتفظة بجزالتها في الجملة، وبقيت تمثل في نظرنا عاملا قويا من العوامل الضامنة لوصول

[1] السابق نفسه.

[2] السابق: ٣٢٦.

رسالة الشاعر إلى القارئ، ومن وسائل التعجيل بإيصالها، وإن لم تسلم أحيانا في قنوات الإبلاغ، من العوارض التي تغير وجهة الرسالة"[1].

لكأن الطرابلسي بدراسته للشوقيات بعدما تقدم من دراسة الأهواني للسنائيات، يتْبِعُ السَّيِّئَ الْحَسَنَ، ويدل على من أخذ الشعر بحقه؛ فرده سيرته الأولى، بعدما حيدَ به عن جادَّتها.

ولقد نبه أخيرًا هنا، على تعلق السهولة (الوضوح) بالجزالة، على ما سبق أن اسْتَنبطنا من كلامِ الأهواني الذي سيأتي له في الفقرة الحادية والعشرين، مزيد بيان، لم يمنعه من ذلك أن تَجْزيلَ الكلام (نسبته إلى الجَزالة، وهو غير الإِجْزال الذي هو اتِّباع الجزالة)، وتَرْكيكَهُ (نسبته إلى الرَّكاكَةِ، وهو غير الإِرْكاكِ الذي هو اتِّباع الرَّكاكَةِ)، حُكْمانِ مِعْياريّانِ -سبق أنهما عند الجرجاني، من صواب النظم ومن خطئه- وعيًا منه لقيمة هذا النمط من الأحكام ولزومه لكل ناظر في الكلام.

---

[1] السابق: ٣٣٠.

اَلجَزَالَةُ وَالرَّكَاكَةُ عِنْدَ الْمُحْدَثِينَ غَيْرِ الْمُسْتَوْعِبِينَ

ومن المحدثين كذلك، كَثْرَةٌ لم تستوعب من أمر الجزالة عند القدماء ولا منزلتها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه عبد القاهر فيما سبق، تستعصي على المحاورة أسماؤهم؛ فتجمعهم فيما يأتي دعاواهم.

[٢٠] اَلدَّعْوى الأولى أَنَّ الْجَزَالَةَ وَالرَّكَاكَةَ مِنْ صِفاتِ الْكَلِمَةِ الْمُنْفَرِدَةِ

وهي دعوى ينبغي ألا نقف عندها طويلا، بعد أن جعلها الجرجاني من مسائله المهمة التي أدار عليها دلائله، واستفرغ في تفنيدها وُسْعَهُ، وقال فيها أصله السابق ذكره: "ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة، مع معاني الكلم المفردة شغل، ولا هي منا بسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب"[١].

إن المتأمل لَيَطَّلِعُ على أنَّ منَ المحدثين، منْ علق الكلمة بالكلام، من حيث لا وجود له إلا بها؛ فقضى بوجوب فصاحة الكلمات المنفردات، "لأنها أجزاء الكلام؛ فتعين أن تكون الأجزاء فصيحة ليكون مجموع الكلام فصيحا"[٢]، وربما كانت هذه العبارة الأخيرة، من جري ابن عاشور في مضمار قول المرزوقي السابق ذكره: "عيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال؛ فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم. وهذا في مفرداته وجملته مراعى، لأن اللفظة تستكرم بانفرادها، فإذا ضامها ما لا يوافقها عادت الجملة هجينا"[٣]، الذي لم نستبعد أن

---

[١] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٧٢.

[٢] ابن عاشور: ٢٨.

[٣] المرزوقي: ١/ ٩.

يكون الجرجاني قد عناه بتفنيده، ضمن ما فند، إذ لا يتعلق بالكلمة المنفردة إلا مقدار ما بين أصواتها من تآلف وتخالف، وصياغتها من بابها صوابا وخطأ، ومقدار شياعها في الاستعمال أنسا ووحشة، وهي كلها مسائل من غير سبيل نظم الكلام ولا جزالته ولا ركاكته.

ربما نصر الدعوى اتحادُ الفصاحة والبلاغة عند الجرجاني، وانفصالُهما عند غيره[1]، ووقوع الفصاحة عند غيره في الكلمة المنفردة[2]، وهو ما اجتهد ابن عاشور في الجمع به بين مقالة الجرجاني في الفصاحة ومقالة غيره، منتهيا إلى أن لا خلاف بين البلاغيين في أن الكلمات المنفردات تتفاضل في فصاحتها، وإنما اكتفى الساكتون عنها بحصول الفصاحة للكلام على وجه العموم[3]، على حين نبه الجرجانيُّ نفسُهُ وكأنه يرى ابن عاشور من وراء تسعة قرون، على أنه "ليس لهذا الخلاف ضرر علينا، لأنه ليس بأكثر من أن نعمد إلى [الفصاحة]، فنخرجها من حيز [البلاغة والبيان]، وأن تكون نظيرة لهما، وفي عداد ما هو شبههما من البراعة والجزالة وأشباه ذلك، مما ينبئ عن شرف النظم، وعن المزايا التي شرحت لك أمرها، وأعلمتك جنسها- أو نجعلها اسما مشتركا يقع تارة لما تقع له تلك، وأخرى لما يرجع إلى سلامة اللفظ مما يثقل على اللسان. ليس واحد من الأمرين بقادح فيما نحن بصدده"[4].

لا أثر لذلك عند الجرجاني فيما أمه واشتغل به، إذ قد حصر مكمن الإعجاز الذي هو بصدده، في نظم الكلام الذي الجزالة من صفاته على النحو السابق تفصيله. ولكن على رغم هذا الحصر قال ابن عاشور فيما بعد ذلك من شرحه لكلام المرزوقي: "قد رأيتُهُمْ يقابلون الجزالة مرة بالرقة، ومرة بالركاكة، ومرة بالضعف، ومرة بالكراهة، فَتَحَصَّلَ لنا من معنى الجزالة،

---

[1] البرقوقي: ٣٧.

[2] السابق: ٢٤.

[3] ابن عاشور: ٢٨- ٣١، ٤١- ٤٢.

[4] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٥٩.

أنها كون الألفاظ التي يأتي بها البليغ الكاتب أو الشاعر، ألفاظا متعارفة في استعمال الأدباء والبلغاء، سالمة من ضعف المعنى، ومن أثر ضعف التفكير، ومن التكلف، ومما هو مستكره في السمع عند النطق بالكلمة أو الكلام"[١].

إنه لم يعد مقبولا مع قدح الجرجاني في المحدثين الذين يتداولون ما لم يستوعبوا، أن نجمع بين مقابلاتهم المضطربة، لنستخرج معنى نتمسك به. ولقد سبق في هذا البحث -ويلحق- نقدٌ لها كافٍ؛ إذ إن اعتماد المقابلة وما إليها من وجوه الإبدال، منهج سديد في نفسه، بل هو عند الجرجاني كما سبق، أحد أعمال الناظم، وأحد اختبارَيِ الناقد.

ولن نزال نجد مثل هذه العبارات الصريحة في نصر فكرة وصف الكلمة المنفردة بالجزالة أو الركاكة، ما بقي في المحدثين من يرى أن: "ركاكة الجزء ركاكة الكل"[٢].

[٢١] الدَّعْوى الثانية أَنَّ الجَزَالَةَ ضِدُّ السُّهولَةِ والرِّقَّةِ

كأنما أراد بعض العلماء القدماء أن يؤلف قلوب الخصوم من أصحاب جرير وأصحاب الفرزدق، وأن يتقي شر فتنة أطلت بقرنها ولسعت الأعمى؛ فتكلف لكلٍّ صفةً تميزه من الآخر، وترضي أصحابه، وأورثنا فتنة علمية مستمرة.

قال الأصفهاني: "الفرزدق مُقَدَّمٌ على الشعراء الإسلاميين، هو وجرير والأخطل، ومحله في الشعر أكبر من أن ينبه عليه بقول، أو أن يدل على مكانه بوصف، لأن الخاص والعام يعرفانه بالاسم، ويعلمان تقدمه بالخبر الشائع، علما يستغنى به عن الإطالة في الوصف، وقد تكلم الناس في هذا قديما وحديثا، وتعصبوا واحتجوا، بما لا مزيد عليه، واختلفوا، بعد

---

[١] ابن عاشور: ٦٤- ٦٥.

[٢] البابرتي: ١٤٢. من هؤلاء المحدثين أساتذة وزملاء متخصصون، بأقسام اللغة العربية، لا نفتأ نستفيد من محاورتهم.

اجتماعهم على تقديم هذه الطبقة، في أيهم أحق بالتقديم على سائرها، فأما قدماء أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما وبين الأخطل، لأنه لم يلحق شأوهما في الشعر، ولا له مثل ما لهما من فنونه، ولا تصرف كتصرفهما في سائره، وزعموا أن ربيعة أفرطت فيه حتى ألحقته بهما- وهم في ذلك طبقتان: أما من كان يميل إلى جزالة الشعر، وفخامته، وشدة أسره، فيقدم الفرزدق، وأما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين، وإلى الكلام السمح السهل الغَزِل، فيقدم جريرا"[1].

أوائلُ الفتنةِ المُتَّقاةِ باديةٌ، وصفاتُ المدح المتكلَّفةُ التَّضادِّ أو الاختلاف، مُقَسَّمَةٌ بالعَدْلِ، متى انتبهنا إلى زيادة المعطوف من صفات الفرزدق، لبيان المعطوف عليه، وتفصيل المعطوف من صفات جرير المتعاطفة فيما بينها بيانا، لإجمال المعطوف عليه:

الفرزدق	جرير
جَزالَةٌ	سَماحَةٌ
فَخامَةٌ	سُهولَةٌ
شِدَّةُ أَسْرٍ	غَزَلٌ

ليس في تشابه هذه الصفات المتواليات عند كلٍّ منهما، غيرُ إخلاص الجزالةِ للفرزدق الذي يَفرح أصحابُه بأنه لولا حِفْظُه لذهب ثلث اللغة، والسهولةِ لجرير الذي يَفرح أصحابُه بأنه لولا عِفَّتُه لأبكى العجائز- ولا في اضطراب هذه الصفات المتقابلات، غيرُ إصلاح ذاتِ البَيْنِ، الذي يُتَحَلَّلُ فيه من أصول كثيرة، منها هنا مُراعاةُ الاصْطِلاحِ والمُقابَلَةِ الْعِلْمِيَّيْنِ[2]!

---

[1] الأصفهاني: ٢٥/ ٨٦٧٥- ٨٦٧٦.

[2] الآمدي: ١/ ٥؛ فقد أعرض الشيخ عن التصريح بمن يقدم من الطائيَّيْن؛ إذ ليس فيه إلا التعرض لذم أحد الفريقين: الأصحاب أو الخصوم.

قال المرزباني: "كان عامرٌ يُقَدِّمُ جَرِيرًا، ويَحْتَجُّ على الفرزدق بما عَقَّدَ فيه من شعره، نحو قوله:

فَلَوْلا أَنَّ أُمَّكَ كانَ عَمِّي أَباها كُنْتَ أَخْرَسَ بِالنَّشيدِ

ومثل قوله:

وَما مِثْلُهُ فِي النّاسِ إِلّا مُمَلَّكًا أَبو أُمِّهِ حَيٌّ أَبوهُ يُقارِبُهْ

وأشباه ذلك. فقال كردين: أنت يا أخي لا تعقل، سَقَطُ الفرزدق شيءٌ يمتحن الرجالُ فيه عُقولَها حتى يَستخرجوه، وسَقَطُ جريرٍ عِيٌّ، نحو قوله:

وَالتَّغْلَبِيُّ جِنَازَةُ الشَّيطَانِ"[1].

لقد غالى الفرزدق في الإجزال حتى عاظل، مُغالَياتٍ أولِعَ بتفنيدها عليه ابنُ أبي إسحاق النحويُّ الإمام، حتى هجاه الفرزدق واستفزه إلى تأويلها؛ فبدت لأصحابه من مفاخره؛ فتمسكوا بها على النحو السابق، وهي -لو علموا- من نزغاته التي رغب بعض الباحثين في دراستها دراسةً نفسية[2]، ولم يكن ينبغي للعلماء أن يجاملوهم بالسكوت على أنها من الإجزال؛ فقد تَعَثْكَلَتْ فيها أعماله، كما تتعثكل خيوط النسج؛ فانقطعت بالمتلقي بعض المراحل إلى الفهم؛ فغمضت عليه[3]؛ فدلت على اضطرابٍ نفسي، لا على خصبٍ عقلي. ولقد ميز الجرجاني في "أسرار البلاغة"، هذا الذي سماه "المُلَخَّص"، من ذاك الذي سماه "المُعَقَّد"، بقوله: "المعقد من الشعر والكلام لم يذم لأنه مما تقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة، بل لأن صاحبه يُعثر فكرك في متصرفه، ويُشيك طريقك إلى المعنى، ويوعِر مذهبك نحوه، بل ربما قسَّم فكرك، وشعَّب ظنك، حتى لا تدري من أين تتوصَّل، وكيف تطلب. وأما المُلَخَّص فيفتح لفكرتك

---

[1] المرزباني: ١٦٢.

[2] محمد (السيد): المقدمة.

[3] خليل: ٢٢٥- ٢٢٨.

الطريق المستوي ويمهِّده، وإن كان فيه تعاطفٌ أقامَ عليه المَنار، وأوقد فيه الأنوار، حتى تسلكه سلوك المُتبيِّن لِوِجْهَتِهِ، وتقطعه قَطْعَ الواثق بالنُّجْح في طِيَّته، فَتَرِدَ الشَّريعةَ زَرْقاءَ، والرَّوضةَ غَنّاءَ، فتنال الرِّيَّ، وتَقْطِفَ الزَّهر الجنيَّ. وهل شيءٌ أحلى من الفكرة إذا استمرَّتْ وصادفت نهجًا مستقيمًا، ومذهبا قويمًا، وطريقة تنقاد، وتَبيَّنَتَ لها الغايةَ فيما تَرْتاد"[١]، وكأنما أراد أصحاب الفرزدق.

ولقد رغبت مرة في أن أتبين حقيقة هذه الدعوى؛ فكتبتُ لتلامذتي[٢]، غيرَ مُتكلفٍ، هاتين الجملتين:

- جاء أخوك الذي رأيته عندك مسرعا على رغم مرضه إلينا.
- على رغم مرضه جاء إلينا مسرعا أخوك الذي رأيته عندك.

ثم أخبرتهم أنني لم أرد محض المجيء، على رغم أنه لُباب الفكرة، بل احتمال المرض. ثم سألتهم: أيتهما أسهل (أوضح)، وأيتهما أصعب (أغمض)؟ فاختلفوا، غير أنني ومن له بهذا علم منهم -وكنا الأكثر- رأينا الآخرة أسهل.

إننا نمكث في الجملة الأولى لنفهم المعنى المراد، وقتا أطول مما نمكثه في الجملة الآخرة، وإن اتفقت بينهما الكلمات -إذ نطلب الفائدة في غير موطنها- حتى إذا ما خاب مسعانا، طلبناها في موطنها، ولكن بعد فوات الأوان!

ولم تكن صعوبة الجملة الأولى إلا من ضعف الترتيب الذي هو أحد أعمال المُركِّ، ولا سهولة الجملة الآخرة إلا من قوة الترتيب التي هي أحد أعمال المُجْزِل.

---

[١] الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٤٧.

[٢] كانوا سنة ٢٠٠١ م، في فصلهم الأخير بقسم اللغة العربية، من كلية التربية، يدرسون علينا بنظيره من كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، بجامعة السلطان قابوس، مقرر "نصوص وتدريبات نحوية".

ولقد كان فيما سبق من تفريق الأهواني بين الركاكة والسهولة (الوضوح)، وجمع الطرابلسي بين السهولة والجزالة، وكلاهما تنبيه على تعلق الصعوبة (الغموض) بالركاكة - بيانُ طَرَفٍ مما اشتمل عليه المستوعبون. ولكن الخالفين الذين جعلوا الفرزدق "يَنْحِتُ مِنْ صَخْرٍ"، وجريرا "يَغْرِفُ مِنْ بَحْرٍ"- ملأوا الجزالة من صعوبة الصخر، والسهولة من سلاسة الماء، حتى استفحل لدى كثير من الدارسين الأمر؛ فصارت الجزالة والصعوبة شيئا واحدا، والسهولة شيئا آخر[1]. بل قد وجدتُّ بعض شُداة الشعر المعاصرين، يبادر نُقّادَهُ بالسخرية من نفسه قائلا:

لِكِنَّ نَظْمَكَ فَرْدٌ في سَماجَتِه وَشِعْرَكَ الْغَثَّ أَمْرٌ غَيْرُ مُحْتَمَلِ (...)

لا أَنْتَ تَغْرِفُ مِنْ نَهْرٍ فَتَرْشُفَه أَوْ أَنْتَ تَنْحِتُه جَزْلاً مِنَ الْجَبَلِ"[2]!

ولم تكن مقابلة الجزالة بالرقة[3]، إلا أخذا فيما سبق، ولكنها أُكِّدَتْ بمقابلة الأغراض. قال ابن الأثير في الألفاظ: "الجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك"[4]؛ فلم يميز الجزالة من الرقة بأوضاع النظم كما علمنا الجرجاني، بل بأُطُرِ الأغراض، وهذا من إهمال الواجب الذي استمرَّ

---

[1] ضيف "١": ٢٧- ٢٨، وإبراهيم: ٩٥- ٩٧، ١٠١، والحسيني: ٢٥٣.

[2] العريمي: ٢٧، ٢٨.

[3] ابن الأثير: ١/ ١٨٦، وابن عاشور: ٦٤- ٦٦، وقصاب: ٢٠٢.

[4] ابن الأثير: ١/ ١٨٦.

في الخالفين[1]. والرجل متهم بعدم استيعاب مقالات البلاغيين من قبله، وباضطراب تصور مسائل علوم البلاغة من جراء ذلك[2].

ولقد سبق لنا أن حرَّرنا عند القدماء أصحاب المصطلح، التقاءَ الجزالة والسهولة والرقة حين تكون هذه خِفَّةً، وافتراق الجزالة والرقة حين تكون هذه سُخْفًا- بما يفند هذه الدعوى الثانية.

[٢٢] اَلدَّعْوى الثَّالِثَةُ أَنَّ التَّجْزيلَ حُكْمٌ انْطِباعيّ (ذَوْقِيّ)

في الباب الخامس من كتاب "الأسلوب"، درس الأستاذ الشايب "صفات الأسلوب" التي كانت عنده ثلاثًا أُصولًا: الوضوح، والقوة، والجمال[3]، لم تبعد عنها الجزالة؛ فجاء كلامه قديم الباطن حديث الظاهر؛ فأثار عليه نقادًا صدمتهم المفارقة العجيبة؛ "فالأسلوب عنده - من حيث هو سمة للإبداع الأدبي- خاضع لرسوم البلاغة التقليدية إلى حد كبير، بل إنه خاضع لهذه الرسوم خضوعا تاما رغم العبارات المتشحة بالعصرية التي عبرت عن ذلك، أما من حيث هو مطلب للنقد الأدبي فلا مدرك له إلا الانفعال ولا سبيل إلى وصفه إلا هذه الكلمات الانطباعية الخالصة"[4] -ومنها الجزالة[5]- "وهي عبارات لا يمكن أن نخرج منها بتحديد واضح ملموس يؤكد مفهوم الرجل للأسلوب وخصائصه"[6].

---

[1] ابن عاشور: ٦٤- ٦٦، وقصاب: ٢٠٢، وعبد المطلب: ١١٢- ١١٣.

[2] ضيف "١": ٣٣٤- ٣٣٥.

[3] الشايب: ١٨٥- ٢٠٢.

[4] عياد: ٣١.

[5] السابق نفسه.

[6] عبد المطلب: ١١٧.

لقد أقبل أولئك النقاد على كتاب "الأسلوب"، وقَدَّروا أن يُعَلِّقَهُمْ بِبِنى النِّظام المستولية على النصوص وملامح المُجاوزة الصادعة للنظام، ناقدٌ مأخوذ بشروط منهج النقد الأدبي الحديث التي تؤصِّل لمقولات النقد في نظرية العلم؛ فعثروا بأديب قَداميٍّ مُقَلِّدٍ يلوك مقولات بلاغية بالية، مِنْ مِثْلِ "الجَزالَة"، فرارا مما لا قدرة له على رؤيته، كفرار سلفه بقوله: "إِنَّ مِنَ الْأَشْياءِ أَشْياءَ تُحيطُ بِها الْمَعْرِفَةُ، وَلا تُؤَدّيها الصِّفَةُ"[1]، أو بقوله: "ما يَخْتارُهُ النّاقِدُ الْحاذِقُ قَدْ يَتَّفِقُ فيهِ ما لَوْ سُئِلَ عَنْ سَبَبِ اخْتِيارِهِ إِيّاهُ وَعَنِ الدَّلالَةِ عَلَيْهِ، لَمْ يُمْكِنْهُ الْجَوابُ إِلّا أَنْ يَقولَ: هكَذا قَضِيَّةُ طَبْعي"[2]، واستطالةً بما لا يملك، كاستطالة سَلَفِهِ بقوله:

"عَزَّ عِلْمُ الذَّوْقِ أَنْ يَعْرِفَهُ عالِمٌ جانبنا ما احْتَرَما"[3]!

وإلا على نمط من تفسير نصوص الأدب، من مثل "تَجْزيلِ الألفاظ"، تتجلى فيه هذه الخصال المتعاقبات الحدوث:

١ أنه يَخُصُّ صاحبَهُ، ولا يتعَلَّمُ منه.

٢ أنه يُتيح مخالفته على نحو واسع، إلى ما ربما ناقضه.

٣ أنه لا يمكن اختباره أصلا.

٤ أنه لا يمكن تخطيئه هو أو غيره مما على نمطه.

ينبغي أن يُضاف -إمّا استقام لصاحبه- إلى نصوص الفن، لا إلى أعمال العلم[4]!

---

[1] الآمدي: ١/ ٤١٤.

[2] المرزوقي: ١/ ١٥. وفي شرحه لمراد المرزوقي بـ"الطبع"، انتهى ابن عاشور: ٢٠، إلى مرادفة الذوق له، مستشهدا بسماعه أئمة الأدب يقولون: "هذا يشهد به الذوق السليم والطبع المستقيم".

[3] ابن عربي: ٦٧. وراجع ابن عاشور: ٢٠؛ فقد روى عن السكاكي أن أستاذه الحاتمي كان يحيلهم كثيرا إذا راجعوه في محسنات الكلام، على الذوق، ثم قال: "ونحن حينئذ ممن نبغ في عدة شعب من علم الأدب".

[4] شبلنر: ١٣١- ١٣٢.

وعلى رغم ما ذهب إليه باحثون في مسائل علم النفس، من دقة أحكام المُهَيَّجين وجودة عمل عقول الواجدين (الطِّراب)[1]، وفي نظرية الأدب، من تكامل أحكام الذوق وأحكام الاستنتاج المعلل[2]، وفي علم الأسلوب، من دقة أحكام ذوق الخبير[3]- كفانا عبد القاهر الجرجاني فيما سبق مؤونة اقتصار بعض مُجَزِّلي الكلام على أحكام أذواقهم -إذ كان وهو ابن القرن الهجري الخامس، ممن يؤمنون برجوع تلك الأحكام إلى أوضاع نظم الكلام- فافتضحت لِمُتَّهِمي التَّجْزيلِ بذلك، حالٌ من عدم استيعاب مقالات البلاغيين السابقين، كحال ابن الأثير الآنفة!

[٢٣] اَلدَّعْوى الرّابِعَةُ أَنَّ الْجَزَالَةَ ضِدُّ الْحَدَاثَةِ

إنما تَسَمّى قُدَماء العلماء والفنانين بقَدامتهم، ومُحْدَثوهم بحَداثتهم، ولكن لمّا كان بين المتعاصرين من هؤلاء أو أولئك على رَغْمِ تَعاصُرِهِمْ، مَنْ يَحِنُّ إلى الماضي ويعمل له، ومن يشتغل بالحاضر ويعمل له، ومن يطمح إلى المستقبل ويعمل له- تَسَمّى أَوَّلُهُمْ قَداميًّا، وثانيهم

---

[1] ماي: ٥٧.

[2] ويليك: ٢٦٥. ولقد قال شبلنر نفسه في عقب رفضه لما سماه التحليل الأسلوبي الذاتي -١٣٢-: "لا يعني رفضنا لهذا الاتجاه أن الحدس أو التقويم الذاتي بمعناه الواسع، لا يحتل مكانا في التفسير الأسلوبي الشامل. إن مثل هذا الجانب في داخل التفسير، ينبغي توضيحه وعدم الاستغناء عنه بعد ذلك، وخاصة عند عدم وجود إمكانيات أخرى في التفسير أو الشرح، وينبغي كسب أساس أي تفسير من خلال المناهج التحليلية التي يمكن القيام بها".

[3] مصلوح: ٨٨.

حَداثيًّا[1]، وآخِرُهم مُسْتَقْبَلِيًّا[2]، حتى إذا ما خَلَفَ عَصْرٌ عَصْرًا، استمسك القداميُّ الآخِر بالقداميِّ والحداثيِّ الأوَّلَيْنِ سلفا له واطَّرح غيرهما، واستمسك الحداثيُّ الآخِر بالمستقبلي الأول واطَّرح غيره، وبقي المستقبلي الآخِر مُنْبَتًّا لا سلف له[3].

ولم يعدم أمرُ الجزالة عند المحدثين المتعاصرين، تلك الطوائفَ الثلاث؛ فقد انتبهوا للعربية وقد اتّسعت فيها بين اللغة واللهجة، هُوَّةٌ من التطور، خَيَّلَتْ لهم مُتَّسَعًا قادما في رحم الغيب[4]:

أما القداميون الذين قصروا الجزالة على القدماء[5]؛ فأثاروا غيرهم إلى الحديث عن "فِتْنَةِ اللُّغَةِ النَّقِيَّةِ"، التي أحدثها الصراع الشعوبي والتناحر المذهبي كلاهما، فحرمت العربية الصدق، وعاقتها عن التطور، وشغلت اللغويين عن مباحث مفيدة في دقة العبارات، وفي اختلاف الصيغ المتشابهة الظاهر[6]، وإلى الحديث عن عجز مقولات النحو القديمة -وما الجزالة فيما رأيت، إلا إحداها- عن استيضاح النشاط اللغوي، وأن "كل ما صنعه باحثٌ عظيم في القرن الخامس (الجرجانيُّ)، هو أنه أخذ يطبق هذه النظرية أو يطبق المقولات النحوية المتعارفة،

---

[1] يميل بعض المثقفين المعاصرين إلى أن يميزوا المهتم للشيء، بالمنسوب إلى مصدره -مثاله الإسلاميُّ، للمشتغل بالإسلام العامل له- والجاري فيه على موروث عاداته، بالمشتق من مصدره -مثاله المُسْلِمُ (اسم الفاعل)، للمكتفي من الإسلام بما تعود- ولا بأس بهذا التمييز، وإن أشكل علينا في "الاستقبالي"؛ فتركناه إلى ميميِّه.

[2] وإن اقتضى التلاؤم (استقباليًّا).

[3] سئل يوسف إدريس في قول مجيد طوبيا في جيله من القصاصين والروائيين المصريين: "نحن جيل لا أساتذة له"، فقال: "إذن لم يتعلموا"!

[4] الأهواني: ٦٣، وإسماعيل: ١٧٦؛ فقد نبها على مشكلة اللغة المستمرة عند المحدثين الأوائل والأواخر.

[5] ابن عاشور: ٦٥، وقصاب: ٢٠٠- ٢٠٢.

[6] ناصف "٢": ٤٢، ٧٧، ١٣٢.

تطبيقا ينم عن ذكاء"[1]، وإلى الحديث عن الأعرابي صانع العالم، ولغتِهِ "اللاتاريخيةِ" الحِسِّيَّةِ، وهيمنة الذوق القديم على الذوق الحديث[2]، وإلى الحديث عن مشكلة الفصاحة التي كان ينبغي أن تكون عونا على المشكلات اللغوية، فجعلها "أهلُ الصَّفاءِ اللغويِّ"، أهمَّها[3]، وإلى الحديث عن وخامة عاقبة الجزالة، فيما قصت فدوى طوقان من آثار الإجزال الذي حملها عليه أستاذُها وأخوها إبراهيمُ الشاعرُ الكبيرُ، قائلةً: "لقد نما وتضخم اهتمامي بالتركيب القديم للعبارة الشعرية، إلى حد كانت أفكاري ومشاعري تنصرف معه عن التجربة الحقيقية، إلى الاهتمام بتركيب العبارات وانتقاء الكلمات ذات الطنين والدوي:

وَلي عِنْدَكُمْ قَلْبٌ غَريبٌ مُطَرَّحٌ لَدى بابِكُمْ يمسي وَيُصْبِحُ في الْكَرْبِ

طَليحٌ إِذا اسْتَنْهَضْتَهُ كَيْ أُقيلَهُ تَحامَلَ ثُمَّ انْكَبَّ مِنْ أَلَـمِ الْحُبِّ

فَلا تَسْأَلوني عَنْ بُكائي فَإِنَّما بُكائِيَ يا أَحْبابَ قَلْبي عَلى قَلْبي

سَلامٌ عَلَيْهِ إِذْ يَموتُ صَبابَةً وَإِذْ أَنْتُمُ لاهونَ عَنْ قَلْبِيَ الصَّبِّ

(...) كل هذه كنت أحسها سَدًّا يقف دون الحركة والتدفق والانطلاق بعفوية وصدق خلال عملية النظم. كنت أحس التصنع يدب في ثنايا أشعاري ويلصق بها صفة الجفاف واليبوسة. ولم أكن أعرف كيف أبتعث في قصيدتي النُّسغ المفقود، ولا من أين أستمده. كنت أنحت من صخر فعلا، وكان هناك شيء يكبل الجيشان العاطفي في داخلي،

---

[1] السابق: ٨٨. وإن نبه فيما بعد على أن منهج الجرجاني كان ثورة على تلك المقولات القديمة، واعتذر عنه قائلا -٢٤٨-: "ليس من الصواب أو الشرف في شيء أن نطالب باحثا ذكيا في القرن الخامس، بما عجز عنه الدارسون حتى القرن الرابع عشر الهجري"، طاويا اعتذاره عنه بدعوة الباحثين إلى استحداث مقولات لما يستحدثون من مناهج.

[2] الجابري: ٨٦- ٨٧، ٨٨- ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣. وكذلك عبد المطلب: ٣٦٢.

[3] الحمزاوي: ١١- ١٣، ٢٦- ٢٧، ١٦١- ١٦٢.

ويحول دون جريان التيار النفسي في قصيدتي بسهولة ويسر، ولم أهتد إلى أصالتي إلا يوم هداني الدكتور مندور إلى أدب المهجر"[1].

وأما الحداثيون الذين عافوا الجزالة واستمسكوا -أو كادوا- بالركاكة التي اتُّهموا بها وحُبسوا فيها[2]، فأثاروا غيرهم إلى الحديث عما في مصطلح "الحداثة" من قبول لشيء من الضياع، وما في مصطلح "القدامة"، من مجاهدة لذلك الضياع[3]، وإلى الحديث عما يجني به على الكلام، اطِّراحُ الفصاحة، من ضعف وفُسولة، وأنه "صحيح أن [الفصاحة] وحدها لا تصنع فنا، ولكن البعد عن الفصاحة -بدون صفة أخرى في الكلام- هو من الفن أبعد"[4]، وإلى الحديث عما في استبدال فصاحةٍ حديثةٍ، بفصاحةٍ قديمةٍ، من فوضى إذا انفتح بابها لم يَقَرَّ للعربية قَرارٌ[5]، وإلى الحديث عمَّن أخذ مادة شعره من معالم الحياة العادية المكررة المبتذلة، ثم وصلها "باللغة التي كانت تصف بَعَرَ الآرام دون أن تفقد بهاءها وفخامتها"[6]، وإلى الحديث عن وخامة عاقبة الركاكة، فيما وجد الحساني حسن عبد الله، في مثل قول نزار قباني:

" اَلْإِسْمُ
جَمِيلَةُ بُوحَيْرَدْ
رَقْمُ الزِّنْزَانَةِ تِسْعُونَا
فِي السِّجْنِ الْحَرْبِيِّ بِوَهْرَانْ

---

[1] طوقان: ٨٩، ٩٠- ٩١.

[2] قباني: ٣٤، ٤٤- ٤٦، وطوقان: ٨٨- ٩٣.

[3] ناصف "٢": ٢٠. وكذلك بشر: ٣٤- ٣٥، ٥٦- ٥٩.

[4] عياد: ٨٤.

[5] بشر: ٧٨.

[6] حجازي: ١١.

وَالْعُمْرُ اثْنَانِ وَعِشْرُونَا

عَيْنَانِ كَقِنْدِيلَيْ مَعْبَدْ

وَالشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ الأَسْوَدْ

كَالصَّيْفِ كَشَلَّالِ الْأَحْزَانْ

إِبْرِيقٌ لِلْمَاءِ وَسَجَّانْ

وَيَدٌ تَنْضَمُّ عَلَى الْقُرْآنْ

وَامْرَأَةٌ فِي ضَوْءِ الصُّبْحِ

تَسْتَرْجِعُ فِي مِثْلِ الْبَوْحِ

آيَاتٍ مُحْزِنَةَ الإِرْنَانْ

مِنْ سُورَةِ (مَرْيَمَ) وَ(الْفَتْحِ)".

من آثار لِلإِرْكَاكِ: "منها التقرير غير المفيد، ومنها ركاكة اللغة، كاضطراره إلى قطع همزة الوصل في كلمة [الإسم]، واستعمال الواو في قوله [وامرأة في ضوء الصبح]، يريد أن يَشْدَهَنَا هنا بغرابة المنظر كأنما نراه فجأة، ناسيا أنه حدثنا من قبل عن أنثى اسمها جميلة لها عينان وشعر ويدان (...)، ومنها كذب الشعور (...)، ومنها رقاعة شائعة في الشعر الحر كله (...)، أعني الفصل لغير ضرورة في كثير من الأحيان بين أجزاء لا تقبل الانفصال، كالمبتدأ والخبر، والفعل والفاعل، والجار والمجرور، والمضاف إليه، ومثاله هنا وضعه كلمة [الإسم] في سطر و[جميلة] في سطر"[1].

---

[1] عبد الله: ١٦- ١٩. ولا تخفى دلالة كلامه على أنه من أصحاب الدعوى الأولى المفندة في الفقرة العشرين.

وأما المستقبليّون الذين رفضوا الجزالة والركاكة جميعا معا، بدعوتهم إلى تفجير نظام اللغة والتفكير، طامحين إلى ما لا يتأتى فيه لأحد تَجْزِيلٌ ولا تَرْكِيكٌ[1]، فأثاروا غيرهم إلى الحديث عن علاقة الاستمساك بالأصول بالاستمساك بالحضارة، وعن أن موقف الكاتب العربي المعاصر من اللغة [الفصيحة] جزء من الظاهرة الأسلوبية عنده، وعن لزوم الإطار المرجعي[2]، وإلى الحديث عن أن اطراح الفكر القديم بما فيه من آثار اللغة والتفكير القديمين، ينقص من إنسانية الإنسان ويجدب من حياته ويطفئ من بصيرته[3]، وإلى الحديث عن استيعاب نظام لغتنا وتفكيرنا العربي الخصب، لتجارب أولئك المستقبليين التي ظُنَّتْ مارقةً منه[4]، وإلى الحديث فيما تنشره الصحف دون رقابة، عن اختراقٍ للقواعد اللغوية الأولية، أقربَ إلى لعب الصبية، منه إلى المقولة النظرية الحديثة[5].

إنه لو صح اقتصار الركاكة على المحدثين دون القدماء، لصح اقتصار الجزالة على القدماء دون المحدثين؛ فلمّا لم يصح ذاك، كما سبق أن ذكرت عن الجاحظ في قوله: "مِنَ الكَلامِ الجَزْلُ والسَّخيفُ، والمَليحُ والحَسَنُ، والقَبيحُ والسَّمْجُ، والخَفيفُ والثَّقيلُ، وكُلُّه عَرَبِيٌّ"[6]- لم يصح هذا.

---

[1] أدونيس، ١٩٨٣: ١٣٥- ١٣٦، والخراط: ٤٦. ولقد وضعت في تأمل هذه الدعوة بحثا باسمها، قصيرا، أرجو أن يتاح لي نشره قريبا.

[2] عياد: ٧٢- ٧٣، ١٠١- ١٠٣.

[3] محمد: ٣٠، وعلي "١": ١٢.

[4] بزيع: ١٠٣. وبهذه النتيجة خرج بحثي المشار إليه آنفا.

[5] درويش: ٣٠٩. وكذلك الملائكة: ٣٣٢؛ فقد سخرت بمثل هذا، ممن سَمَّته "طفل اللغة المدلل".

[6] الجاحظ: ١/ ١٤٤.

ثم لا حياة ولا بقاء لثقافة لم تَحْظَ مِنْ حَمَلَتِها بأولئك الثلاثة (القداميين، والحداثيين، والمستقبليين) جميعا معا، على ألا يغفل بنوها -وإن بَدَوْا متناقضين- عن تكاملهم -فالحاضر ابن الماضي، والمستقبل ابن الماضي والحاضر جميعا، ثم هو أمل الحاضر، كما كان الحاضر أمل الماضي- ولا عن السِّلْك الذي ينتظمهم -وإن بدوا مختلفين- في عقد ثقافة واحدة؛ فلا انتسابَ لثقافة بحيث يقال: عربية أو عجمية، حتى تسلم لها أصولُ نظام اللغة والتفكير، مُسْتَمِرَّةً في الماضي والحاضر إلى المستقبل، وما هذه الأصول إلا منهج أعمال ناظم الكلام (إبدال الكلم للجملة والجمل للفقرة والفقر للنص والنصوص للكتّاب، وترتيبها، والحذف منها، والإضافة إليها)، التي يُجْزِلُها أو يُرِكُّها؛ فيدل على مبلغ اجتهاده.

خَاتِمَةُ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ

[٢٤] يبدو البحث لقارئه، في أمر الجَزَالَةِ (صفة الشعر العربي القديم)، والإِجْزَالِ (إخراج الشعر العربي القديم على هذه الصفة)، والتَّجْزِيلِ (الحكم على الشعر العربي القديم بهذه الصفة)، وأمر الرَّكَاكَةِ (ضِدّ الجزالة)، والإِرْكَاكِ (ضِدّ الإجزال)، والتَّرْكِيكِ (ضِدّ التجزيل)- أكثر منه في أمر الهَلْهَلَةِ صفةً وإخراجًا وحكمًا، حتى إذا ما مضى فيه إلى غايته، اطلع على أن تلك الأمور الثلاثة أمر واحد.

لقد بلغ أمر الهلهلة التي تَلَقَّبَ بها عدي بن ربيعة التغلبي الشاعر العربي القديم، من الغموض، أن اتُّخِذَتْ صفة قَدْحٍ مرة وصفة مَدْحٍ أخرى، وأنِ التبست كلمات القدح والمدح متناميةً وكأنما روعي قياسُ بعضها إلى بعض، وأَنْ ساعدتِ اللغةُ على ذلك.

ولقد يسرت قطعة عدي التي اختارها أبو تمام لباب المراثي من ديوان الحماسة، السبيلَ إلى تحقيق أمر الهلهلة بتحقيق أمر الجزالة (وضدها الركاكة)، التي ذكرها المرزوقي شارح الديوان، في أبواب عمود الشعر العربي القديم التي انبنى عليها الاختيار؛ فاتضح وقوعُ هلهلة مهلهل بينهما: من قدح فيه بها فقد عدها من الركاكة، ومن مدحه بها فقد عدها من الجزالة!

ولما كان المرزوقي قد ترك شرح أمر الجزالة (وضدها الركاكة)، وكان عبد القاهر الجرجاني قد نَعى على المحدثين الذين المرزوقيُّ واحدٌ منهم، استعمالَهم مصطلحَ القدماء (جزالةَ الألفاظ) دون تحمُّل تكاليفه الثلاثة: عِلْمِ معناهُ وعِلْمِ غَرَضِهِ وعِلْمِ تَفْسِيرِهِ، أي أن يجهلوا أَمْرَ تلك المَزِيَّةِ- انبغي لنا في أمر الجزالة والركاكة:

- أولا: أن نبحثه عند القدماء لدى الجرجاني البعيدي القدم لدينا، ولاسيما ما استوعبه هو عنهم.

- ثانيا: أن نبحثه عند من استوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديه جميعا معا.
- ثالثا: أن نبحثه عند من لم يستوعبه من المحدثين لديه القدماء لدينا والمحدثين لدينا الغائبين لديه جميعا معا.

حتى إذا ما انجلى أمرهما انجلى أمر الهلهلة.

ولقد اتضح أن الجزالة عند القدماء -ومثلها هلهلة المدح (الخفة)- والركاكة -ومثلها هلهلة القدح (السخف)- صفتان نحويتان في نظم الكلام إبدالا وترتيبا وحذفا وإضافة، تستبهمان على من يستوضحهما في غير نحو الكلام، تكون الأولى متى انتظم قويا كالحبل المشدود، لا يتيح لمستوعبه أن يقول: لو كان كذا مكان كذا لكان أفضل، وتكون الأخرى متى انتظم ضعيفا كالحبل المُرْخى يتيح لمستوعبه أن يقول ذلك، وشاهد الحكم الموازنة المسوَّغة بين نظمَيْ كلامين مختلفين، أو بين نظمِي الكلام نفسه، السالم والمغير.

ثم اتضح استيعاب قلة من المحدثين كابن رشيق والقرطاجني والأهواني والطرابلسي، من أمر الجزالة (وضدها الركاكة) عند القدماء ومنزلتها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه الجرجاني، كما دلت على ذلك نصوص لهم واضحة.

ثم اتضح عدم استيعاب كثرة من المحدثين، من أمر الجزالة (وضدها الركاكة) عند القدماء ومنزلتها من الشعر العربي القديم، ما استوعبه الجرجاني، استعصت على المحاورة أسماؤهم؛ فجمعتهم دعاوى أربعٌ ادَّعَوْها وفنَّدتُّها:

- الأولى: أَنَّ الْجَزَالَةَ وَالرَّكاكَةَ مِنْ صِفاتِ الْكَلِمَةِ الْمُنْفَرِدَةِ.
- الثانية: أَنَّ الجَزَالَةَ ضِدُّ السُّهولَةِ والرِّقَّة.
- الثالثة: أن التَّجْزيلَ حُكْمٌ انْطِباعيٌّ (ذَوْقيٌّ).
- الرابعة: أن الجزالة ضِدُّ الْحَدَاثَةِ.

[٢٥] ومهما ذكرتُ ما تيسرت لي دراسته، لم أفرح بأن ينسى القارئ بسَبْرِ أَمْرِ الْمَلْهَلَةِ، فَرْقَ ما بين شعر مهلهل وشعر غيره المحمول عليه المنحول إليه، ثم فَرْقَ ما بين شعره وشعر من قبله وشعر من بعده (موعدتي في مقدمة هذا البحث)!

وإنني لأرجو أن أضع في إنجاز هذه الموعدة، بحثا تاليًا أو أكثر، والله المستعان.

الْفَصْلُ الثَّانِي

رِعَايَةُ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ

لِعُرُوبَةِ أَطْوَارِ اللُّغَةِ وَالتَّفْكِيرِ

مُقَدِّمَةٌ

خَفاءُ أَحْوالِ اللُّغَةِ عَلى صاحِبِها

[١] تبدو اللغة للمتأمل، على مثل ما يبدو له صاحبها: تتطور وتجمد، وتستقيم وتعوج، وتقوى وتضعف، وتَضِح وتغمض، وتحسن وتقبح، وهكذا طورا على طور؛ فلا ينشط لتخْطيءِ مقالة الناقد الغربي التي صارت مثلا عالميا، "الأسلوب هو الرجل نفسه".

وأعجب من أحوالها تلك كلها، أن صاحبها يكاد لا يراها حتى ينبهه غيره إليها، كما يكاد لا يرى نفسه -وإن نظر في مرآته- حتى ينظر في مرآة غيره!

فَضْلُ عَمَلِ سْتِتْكيفيتْشَ

[٢] ولقد تأمل اللغة العربية من كثب وعرف دون غيره كثيرا، جاروسلاف ستتكيفيتش الأستاذ الجامعي اليوغوسلافي الأمريكي المعاصر، الذي طوّف في بلادنا من شرقيها إلى غربيها أستاذا زائرا؛ فدرس تطور اللغة العربية ألفاظا وتعابير، وتطور التفكير اللغوي عند العرب في العصر الحديث، وجهاد رجال النهضة أدباء وعلماء، لتحديث العربية وجعلها وافية بمقتضى الحياة؛ فبحث لذلك مسائل القياس والنحت وتعريب الألفاظ والتعابير وتطور الدلالة وتيسير النحو، ثم انتهى إلى أن "العربية الحديثة تبتعد الآن عن اللغتين كلتيهما الفصحى والعامية؛ فبينما تحتفظ بالبناء الصرفي للعربية الفصحى تقترب من حيث التركيب النحوي والأسلوبي في الشكل والروح من عائلة اللغات التي تعبر عن الثقافة الغربية، وهذا مشروط بأن تمضي العربية المعاصرة في هذا الطريق إلى مداه، وربما لا يمضي جيلان أو ثلاثة حتى تصبح عضوا متكاملا في عائلة الثقافة الغربية، وحيث تسهم بدور كامل في هذه الجماعة اللغوية الحديثة المشتركة. وسوف يخضع النحو -عندئذٍ- لتغيرات بعيدة الأثر فرضتها عليه

ديناميكية الفكر الغربي. إن أنماط الجملة الفعلية والاسمية لن تكون الخواص النحوية الأساسية، وبدلا من ذلك سوف يكون مفهوم النبر الدلالي حاكما لترتيب عناصر الجملة. وسوف يتطلب هذا تغيرا طبيعيّا في الاتجاه من الجانب الشكلي القواعدي إلى الجانب الأسلوبي الديناميكي. إن الجملة العربية سوف تصبح أغنى بالجمل التابعة وسوف يصبح نظامها وترتيب عناصرها مرنا كالعادات الفكرية الحديثة. ومن الملاحظ أن هناك اتجاها واضحا للابتعاد عن البساطة التركيبية. إن النماذج الأسلوبية التي قدمها طه حسين وجيله هي من الوضوح والبساطة بحيث كثر استخدامها حتى بين كتّاب وشعراء هذه الأيام، ومع ذلك فإن الاتجاه إلى تعقيد جديد لن يعود بنا إلى النماذج القديمة، إن النماذج الجديدة المستمدة من المصادر الخارجية والناتجة عن الاتصال الثقافي واللغوي سوف تأخذ مكانها... والواقع أن التطورات الثانوية -التي ستكون نتائج لاقتراض المصطلحات- سوف تظهر -وبطريقة طبيعية وبسهولة ويسر- المخزون الأساسي للتعبيرات الحديثة أو قوالب التعبير الحديثة. إن محاكاة الأساليب المعربة سوف يتبعه سلسلة من المشتقات الأسلوبية الفعّالة، والتي سوف تبدو أصيلة في إطار الروح الجديدة للغة. إن مستقبل اللغة العربية لن يكون في حلول مصطنعة بين المصدرين الأساسيين للغة: الفصحى والعامية والتي تعمل كل واحدة منهما ضد الأخرى، ولكن سيكون هذا المستقبل في خط مستقيم للتطور غير بعيد عن الصرف السامي القديم متوجها إلى نحو غير سامي تفرضه عادات التفكير أكثر مما تفرضه عادات الحديث اليومي الحي. وعندئذ فحسب، سيكون العرب -بامتلاكهم لغة يفكرون بها- قادرين على التغلب على مشكلة الصراع بين الفصحى والعامية. إن الفصحى التقليدية كانت -وسوف تكون- عاجزة عن مواجهة العاميات لأنها لا تعكس العادات الفكرية للذين يستخدمونها. إن العربية الحديثة التي نحاول تحديدها وتعريفها هنا سوف

تصبح لغة للفكر المتطور تماما، وسوف تكون مثلا للحيوية والقوة، وسوف تحل محل اللهجات المنطوقة دون أن تطمسها طمسا مصطنعا"[1].

أَفْكَارُ سْتِتْكِيفيتْشَ الثَّمَانِيَةُ الْخَطِيرَةُ

[٣] لقد أفضى به تأمله إلى إثبات اقتراب اللغة العربية من عائلة لغات الثقافة الغربية؛ فتطوع ببيان ما ينبغي للغة العربية -والمراد العرب- أن تصطنعه بنحوها، لتصبح عضوا عاملا مؤثرا في تلك العائلة؛ فزادنا إيمانا بمكانة النحو من لغتنا، وتمسكا بخصائص العروبة فيه.

وربما اعتذرَت عن طول النص الآنف إيراده، أفكارُه الكثيرة الخطيرة، التي خشيت أن أجور عليها أيَّ جور، وأرجو أن أستخلصها فيما يأتي بضمير الشأن الخطير:

الفكرة الأولى: أنه ليست للعرب الآن لغة يفكرون بها. أما العامّية فلغة عادات الحديثة اليومي الحي، وأما الفصحى التقليدية فلا هي بهذه المنزلة ولا هي لغة عادات تفكير من يستخدمونها.

الفكرة الثانية: أنه توشك أن تولد بعيدا عن الفصحى التقليدية والعامية المتضادتين، عربية فصحى حديثة تنتمي بتطورها النحوي إلى عائلة اللغات الغربية الثقافة.

الفكرة الثالثة: أنه تعتمد صيرورة العربية الفصحى الحديثة الوليدة عضوا عاملاً مؤثرا في الثقافة اللغوية الغربية، على بلوغ تطورها النحوي مداه.

---

[1] ستتكيفيتش: ٢٨٤- ٢٨٥. والكتاب كما أخبرني الدكتور خليل الشيخ الأستاذ بقسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة السلطان قابوس، الذي يعرفه هو ومؤلفه وطرفا من أخباره ويثني على عقله ونشاطه- رسالته للدكتوراة.

الفكرة الرابعة: أنه تقتضي ديناميكية الفكر الغربي، نحو العربية الفصحى الحديثة الوليدة، أن يتخذ النبر الدلالي معيارا لترتيب عناصر جمله، فيتجه من الجانب الشكلي (القواعدي) في العربية الفصحى التقليدية، إلى الجانب الأسلوبي (الديناميكي) في عائلة اللغات الغربية الثقافة.

الفكرة الخامسة: أنه يفضي ذلك متى تَمّ، إلى غنى الجملة العربية بالجمل التابعة، وصيرورة نظامها وترتيب عناصرها، على مثل مرونة العادات الفكرية الحديثة الغربية.

الفكرة السادسة: أنه تفضي محاكاة الأساليب (التعابير) الغربية المعربة، إلى سلسلة من المشتقات الأسلوبية (التعبيريّة) الفعّالة، تبدو أصيلة في إطار الروح اللغوي الحديث الوليد.

الفكرة السابعة: أنه ينجح الأسلوب الغربي السهل المعرب الحديث الوليد متمثلا في أسلوب طه حسين وجيله، بين من تلاه من الكتّاب والشعراء.

الفكرة الثامنة الأخيرة: أنه على رغم اتجاه بعض الأساليب إلى التعقيد، لن تعود العربية الفصحى الحديثة الوليدة، إلى العربية الفصحى القديمة التقليدية.

بعض هذه الأفكار كما لا يخفى، من المأثورات الغربية[1]، ولكن جدّة أكثرها ودقةً علميةً فيها، حافزان كافيان إلى تقليبها على وجوهها، وإدامة النظر فيها، ومراعاتها فيما يأتي، بمسائل البحث، دونما تقليل منها أو من صاحبها؛ وإلا لم نكن جديرين بالحياة التي تعلقنا بها، ولا بالحضارة التي تعلقت بنا!

---

[1] فك: ٢٣٨ – ٢٤٢؛ ففي فصيل عنوانه "نظرة خاطفة"، أشار إلى مثل ما رصد له ستتكيفيتش كتابه، فاتفقت بينهما أفكار وآراء، واختلفت أخرى.

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: اللُّغَةُ وَالتَّفْكِيرُ

"اللُّغَةُ أَدَاةٌ"

[٤] تروج فتجوز لدينا أفكار ضعيفة؛ إذ نحن أسرع إلى قبول الحكم، منا إلى مكابدة تحصيل الحقيقة. من ذلك أن اللغة أداة، على اختلاف ما هي أداته، من التفاهم إلى التواصل، ومن التفكير إلى التعبير؛ فإن الأداة في لسان العرب آلة المحترف التي تقيم له حرفته[١]. إنه إذا كانت الكتابة أداة الكاتب التي تقيد له في بياض الصفحات سواد الكلمات الكائنة لديه آنفا، فإن عجز استبدل بها أخرى قادرة، كتسجيل الصوت مثلا- كان التفاهم والتواصل والتفكير والتعبير، أولا، فإن عجزت اللغة التي تؤديها استبدل بها مستعملها أخرى قادرة!

قال الدكتور طه حسين: "نزعم أن لنا في هذه اللغة التي نتكلمها ونتخذها أداة للفهم والإفهام، حظّا يجعلها ملكا لنا"[٢]. وإنني على رغم قول أستاذنا محمود محمد شاكر -رحمه الله!-: "اللغة أداة التفكير، وأداة البيان، لا يكاد أحد يرتاب في أن هذا حق، وأنه واضح شديد الوضوح"[٣]- أرتاب في أن هذا واضح شديد الوضوح، وأتمنى أن مجلسه المورود جَدِيدٌ، ليوضحه لي؛ فلابد أن للأداة عنده معنى غير ذلك[٤]، ربما وضحه قليلاً الدكتور مصطفى ناصف، برؤيته

---

[١] ابن منظور: أ، د، و.

[٢] حسين " حديث الأربعاء ": ٣/ ٢٩.

[٣] شاكر "١": ٥١٣.

[٤] في مجلس لأستاذنا محمود محمد شاكر سنة ١٩٩٢م، حضره جماعة من العلماء: منهم الدكتور محمود محمد الطناحي -رحمه الله!- والأستاذ عبد الحميد بسيوني، والأستاذ رضوان دعبول صاحب مؤسسة الرسالة (دار النشر المشهورة)، وغيرهم، سأله الأستاذ رضوان عقب حديث نشر الكتب العربية ذي الشجون: بم ترى

اللغة أداة النمو الإنساني المتميز كله، وتخطيئه لرؤية بعض الدارسين أو المدرسين، لها نظام إشارات تنبيهية إلى تكوين الصور المتخيلة[1]. وربما زاد ذلك، الدكتور محمد عابد الجابري، برؤيته "أن اللغة ليست مجرد أداة الفكر، بل هي أيضا القالب الذي يتشكل فيه الفكر"[2]، وإن لم يفر من (الأداة) وهي عامة، إلا إلى (القالب) وهو أداة خاصة. ثم هو قد ترك كلمة (تفكير) إلى كلمة (فِكْر)، وبينهما فرق لطيف لم يدركه بعض الباحثين[3].

الْفَكْرُ وَالتَّفْكِيرُ وَالْفِكْرُ

[٥] إن الفِكْر في لسان العرب، نتيجة الفَكْر الذي هو إعمال الخاطر في الشيء، وهو الحدث الذي مع الزمن في "فَكَرَ يَفْكِرُ"، وإن التفكير كثرة الفَكْر[4]، وربما غلب استعمال صيغة التفعيل لكثرة هذا الحدث وتعلّق حياة الإنسان به، قال دي بونو: "التفكير هو التقصي المدروس للخبرة من أجل غرض ما. وقد يكون ذلك الغرض هو الفهم، أو اتخاذ القرار، أو التخطيط، أو حل المشكلات، أو الحكم على الأشياء، أو القيام بعمل ما، وهلم جرا"[5].

لنا أن نبدأ الآن، يا أستاذ؟ فقال: بلسان العرب (المعجم)؛ فاللغة أهم ما تتخذون رسالة نشر، أو كما قال - رحمه الله!- ثم خاض في بيان مكان اللغة من الثقافة عامة، ومكان لغتنا من ثقافتنا خاصة.

[1] ناصف "١": ٥١٩ - ٥٢١.

[2] الجابري: ٧٧.

[3] يوسف؛ فقد وضع في العناوين، (الفكر) بين قوسين بعد التفكير دون تفريق، وبهادر: ٨١-٨٢، وعلي "١": ١٣٩، ٣٣٦-٣٣٧.

[4] ابن منظور: ف، ك، ر.

[5] دي بونو: ٤٢.

وإنما فهمت معنى النتيجة من كون الفِكْر اسم المصدر فَكْر. وقد حرّرتُ من لسان العرب، أن هذا النوع من اسم المصدر عبارة عن نتيجة إحداث المصدر، مثل حِمْل المنتوج عن حَمْل الذي تَحْميلُ مبالغته، ومثل مِلء المنتوج عن مَلء الذي تَمْليءُ مبالغته، صياغة واردة وإن لم تطرد.

الفِكْر إذن ثمرة التفكير؛ ولذا ينظر فيه الفلاسفة، فأما التفكير فينظر فيه النفسيون واللغويون والتِّقنيون. إنّ العالم -مهما يكن علمه!- إذا تأمّل أصول علمه واهتدى إلى حكمتها، كان فيلسوفا اهتدى إلى فلسفة، ولو بلغ كل عالم في علمه هذا المبلغ، لاستغنى عن الفيلسوف، ولو اشتمل كل علم في نفسه على ذلك، لاستغنى عن الفلسفة.

الْفَلاسِفَةُ وَعَلاقَةُ اللُّغَةِ بِالْفِكْرِ

[٦] لقد تأمّل عِثار نَهْضة العرب الحديثة، فيلسوفان عربيان معروفان: أما الدكتور زكي نجيب محمود فكتب مقالاته التي جمعها بعدئذٍ في كتابه "تجديد الفكر العربي"، منبها إلى حاجة الحياة الجديدة إلى فكر جديد، جاعلا اللغة العربية أكبر همّه، حافرا فيها عن أصول الفكر العربي[١]. وهو الذي رد في كتاب آخر، زعم بعض الناس أن في نفسه معنى لا يستطيع التعبير عنه، بأنْ ليس فيها من شيء إلا الوهم! وربط اضطراب العبارة باضطراب الفكرة، وضرورة ضبط العبارة بضرورة ضبط الفكرة[٢].

وأما الدكتور محمد عابد الجابري فكتب مقالاته التي جمعها في كتبه الثلاثة ذات الإطار الواحد "نقد العقل العربي"، أي "الفِكْر"، وتأمل أولا تكوين العقل (الفِكْر) العربي، داعيا إلى

---

[١] محمود "تجديد الفكر العربي".

[٢] محمود "قشور ولباب ": ١٧٣.

التحرر من الميت أو المتخشب في كيانا العقلي (الفِكْري)، فَسْحًا للحياة أن تستأنف فينا دورتها وتعيد زرعها، جاعلا اللغة العربية أوّل همّه قائلا: "سنجد أنفسنا دوما إزاء محدد أساسي، ولربما حاسم، للعقل العربي من خلال اللغة التي ينتسب إليها وتنتسب إليه"[1].

علاقة اللغة بالفكر الذي هو ثمرة التفكير إذن هَمُّ الفلاسفة اللازم، وهي لديهم علاقة وثيقة، وليس أدل على ذلك من تسميتهم قانون الفكر الذي بحثه لديهم هو لُبُّ الفلسفة، علمَ المنطق الذي هو في لسان العرب الكلام[2].

النَّفْسيّونَ اللُّغَوِيّونَ وَعَلاقَةُ اللُّغَةِ بِالتَّفْكيرِ

[٧] ولقد تميز من علم نفس الكلام (سيكولوجية اللغة)، علم جعل همه تفكيك الكلام وتركيبه وحال المتكلم والمخاطب من هذا وذاك، هو علم النفس اللغوي (علم اللغة النفسي)[3]، الذي اتسع في ستينيات القرن العشرين بمبادئ نظرية النحو التوليدي، ليدرس ظاهرة الكلام (السلوك اللغوي): كيف تنشأ وكيف تدرك[4]؟ فكان من مسائل هذا العلم الجديد علاقة اللغة بالتفكير[5].

بنظر النفسيين اللغويين (اللغويين النفسيين) في هذه المسألة، وضحت ثلاثة اتجاهات: واحد رأى اللغة والتفكير شيئا واحدا، وثانٍ رآهما شيئين منفصلين، وثالث رآهما شيئين متصلين اتصالا وثيقا من حيث ألفاظ اللغة أفكار صورية أو مجردة، وتراكيب اللغة اتجاهات عامة

---

[1] الجابري: ٧٦.

[2] ابن منظور: ن، ط، ق.

[3] عبده: ٩-١٠؛ فقد سوّى بين المصطلحين: علم النفس اللغوي وعلم اللغة النفسي.

[4] المسدي: ٦٩- ٧٠.

[5] عبده: ١٠.

وأساليب تفكيرية. ومن أصحاب هذا الاتجاه الثالث الأخير من رأى التفكير أقوى تأثيرا في اللغة منها فيه، ومنهم من رأى اللغة أقوى تأثيرا في التفكير منه فيها، ومنهم من رأى كلًّا منهما مثل الآخر تأثيرا وتأثرا وافتقارا. وهذا الفرع الأخير من الاتجاه الأخير، أحظى بقبول المعاصرين وأشيع فيهم من سواه[1].

ولقد استطرد نظرهم إلى بحث اضطراب التفكير. وعلى رغم دلالة الاختبارات الأدائية (التي تعتمد على الأداء اليدوي أو معاملة الصور أو غير ذلك)، على مبلغ اضطراب التفكير- رأوها أقل أهمية من دلالة اضطراب اللغة، وانتهوا إلى أنهما مضطربَيْن مثلُهما متزنَيْن، متصلان اتصالا وثيقا، حتى لقد عجزوا عن تمييز البادئ منهما من المبدوء، طامحين إلى زيادة بحث المسألة[2].

علاقة اللغة بالتفكير الذي ينتج الفكر إذن من هموم النفسيين اللغويين (اللغويين النفسيين)، التي اتضح منها ارتباط علم اللغة بعلم النفس، وهي لديهم علاقة وثيقة[3].

التِّقْنيّونَ وَعَلاقَةُ اللُّغَةِ بِالتَّفْكيرِ

[٨] أما التِّقنيون علماء هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي، فأحلامهم التي حققوا بعضها، قائمة على الإيمان بأفكار بعض فلاسفة اللغة أمثال فيتجينشتين الذي ردّ القول بأدوية اللغة، ورآها هي العالم، وحفزهم بمثل مقولته: "كل ما يمكن أن يقال يمكن أن يقال بوضوح"،

---

[1] يوسف: ١٥٢ – ١٥٥.

[2] السابق: ١٩٨- ١٩٩، ٢٣١- ٢٣٢.

[3] عطية: ١٥ – ١٩.

إلى تفتيت كل كيان معرفي إلى عدد محدود من العناصر الذريّة، يمكن أن تبنى منه كل الأشكال المعقدة للبنى المعرفية وآلياتها[1].

عُلَمَاؤُنَا الْقُدَمَاءُ وَعَلاقَةُ اللُّغَةِ بِالتَّفْكِيرِ

[٩] وعلى رغم تهاويل ما تقدم، تبرز قضية علاقة اللفظ بالمعنى التي شغلت من قديم إلى حديث، علماء لغتنا حتى قالوا بالتعليل، ونقاد أدبنا حتى قالوا بالنَّظْم- علامة على أصالة وعي علاقة اللغة بالتفكير، في ثقافتنا العربية[2]، التي من استوعبها نظرا وعملا، رأى اللغة مِلاكَ التفكير والتفكير ملاك اللغة، وسواءً قول القائل: قلتُ، وقوله: فكّرْتُ، ولم يصرفه عن ذلك،

---

[1] علي "١": ١٤٠ - ١٤١، ٣٣٦ - ٣٣٧.

[2] سيبويه؛ ففي كل موضع منه يتأمل الكلمات منفردة ومجتمعة: لم كانت على ذلك النحو ولم تكن على هذا، سائلا نفسه أو أستاذه، رادّا الأمر إلى تفكير المتكلم. والجرجاني؛ فهو في بيان نظم الكلام والمعاني. وقد أفاض أستاذي الدكتور محمد حماسة -عبد اللطيف- في بيان وحدة النظرية بين سيبويه والجرجاني، وإكمال الخالف منهما عمل السالف. ومن الطريف هنا أنه لما كان الأستاذ الشايب قد فهم من كلام الجرجاني أنه يقول بأسلوب لفظي مصوغ على مثاله، وجدت الدكتور شكري -عياد: ٢٩- استنكر ذلك قائلا: "وضْع الأستاذ الشايب لقضية اللفظ والمعنى يتجاوز كل ما كتبه عبد القاهر حول هذا الموضوع. فلم يذهب عبد القاهر قط إلى مثل قول الأستاذ الشايب إن هناك أسلوبا معنويّا وأسلوبا لفظيّا يتكون على مثاله. ولاشك أن هذا تبسيط شديد للعلاقة بين اللغة والفكر، ولكن الإجماع منعقد بين الباحثين في اللغة والأدب والأنثروبولوجيا وعلم النفس على أن العلاقة بين اللغة والفكر لا تتم من جانب واحد يمكن أن يعد أحدهما أصلا والآخر صورة له". وكذلك ناصف - "٢" - ولاسيما ص٣٨ التي قرّب فيها استعمالات العرب القدماء لكلمتي المعنى واللفظ. وبين يديّ كتيّب -عنبر- متواضِع متجاوَز، غير أن فيه طرافةً باقيةً بوُصوله من خلال استفتاء جمع كبير من الأدباء، منهم من ملأ الدنيا بعد ذلك، إلى أن المعاني والعبارات تتكون في الذهن في وقت واحد معا.

حال الصم البكم، الذين يفكرون ولا يتكلمون؛ إذ هم يتعلمون اللغة من أهلهم كما يتعلمها غيرهم، ولا شيء إلا أنهم يركِّبونها من كلمات الأصابع؛ فإن أهلهم يعلمونهم بالإشارة المعنى (الكلمة) والفُكَيْرة (الجملة) والفِكْرة (الفِقْرة) والقضية (النَّصّ)، على النحو الذي يعيشون ويعايشونهم به. ولم نعرف بعدُ البلد الذي أهله كلهم صم بكم!

دَلالاتُ فِكْرَةِ سْتِتْكيفيتْشَ الْأولى

[١٠] لا تخرج دلالة الفكرة الأولى السابق استنباطها من نص ستتكيفيتش في الفقرة الثالثة، عن أن تكون إحدى ثلاث:

١ أنْ ليست اللغة غير أداة، ويمكن للتفكير الاستغناء بغيرها عنها، وهو ما عليه العرب الآن.

٢ أنْ لا تفكير دون لغة، وبعدم اللغة ينعدم التفكير، وهو ما عليه العرب الآن.

٣ أن لا تفكير متزنا بلغة مضطربة، وباضطراب اللغة يضطرب التفكير، وهو ما عليه العرب الآن.

نَقْدُ الدَّلالَةِ الْأولى

[١١] فضلا عن شياع وعي علاقة اللغة بالتفكير، السابق بيانه، يزيِّف قصدَ الدلالة الأولى عدمُ اشتغال ستتكيفيتش ببيان الأداة المستغني بها التفكيرُ عن اللغة، بل قد اشتغل بعكس ذلك مما يأتي طرف منه في أثناء هذا البحث.

نَقْدُ الدَّلالَةِ الثّانِيَةِ

[١٢] ولما كان وجود الإنسان مشروطا في الثقافة الغربية الحديثة، بكونه مفكرا، أي "قادرا من خلال ملكة اللغة على ممارسة التحليل المنطقي والرياضي واكتساب المعرفة وتوظيفها لتوليد معارف جديدة "[1]- تفضي الدلالة الثانية مما سبق، إلى دلالة أخرى محتومة: أن لا عرب الآن، أو هُمْ كما قيل وهمٌ، والوهم كما سبق في الفقرة السادسة، لا لغة له!

إنه على رغم جنون هذه الدعوى، من التغافل عن مقتضى شواهد كثيرة مختلفة أن في العالم الآن -مهما تكن الأحوال والأهواء!- عربا، وأن في العالم الآن -من ثم- لغة وتفكيرا عربيين، واستحسان أهلنا لنا أن نتغافل عنها قائلين: "إذا كان المتكلم مجنونا فالمستمع عاقل"- يحملنا على تصديق قصد دلالة الدلالة الثانية، ما صح لدينا على الزمان، عن الحضارة الغربية -وهو آفتها- من أنها لا ترى إلا نفسها؛ فلا حياة إلا باعتناق مبادئها، ولا سيادة إلا باعتماد طرائقها، وكأن ما كان قبلها من حضارات وما يكون، حديث خرافة[2].

---

[1] علي "١": ١٣٩.

[2] التوحيدي: ١/ ١٠٩ – ١٢٨؛ ففيه نص مناظرة أبي سعيد السيرافي وأبي بشر القنائي سنة ٣٢٦هـ، في أن يونان على ما يؤديه منطقهم المترجم عنهم، دون غيرهم من الأمم "أصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه، وعن كل ما يتصل به وينفصل عنه، وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر وانتشر ما انتشر وفشا ما فشا ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصنائع؛ ولم نجد هذا لغيرهم"، وهو ما كان أبو سعيد رآه دعوة إلى اللغة اليونانية. كذلك شاكر "١"، فصل"... وهذه هي أخطارها"؛ إنها سنة غربية قديمة مأثورة مستمرة!

نَقْدُ الدَّلالَةِ الثّالِثَةِ

[١٣] ينبغي لمن يدافع الظلم، أن يتحرى العَدْل؛ فأتجاوز إلى الدلالة الثالثة الأخيرة المحتملة، بل أورد قول الجابري وكأنه يفصّلها: "المثقف الذي يتكلم بالضرورة لغة عامية هي [أغنى] بكثير من العربية الفصحى في مجال الأشياء الحضارية لكونها تقتبس أسماءها من لغات أخرى مع بعض [التكسير]- لا يستطيع التعامل بها فكريّا. إن العامية رغم غناها [التكنولوجي] الحضاري لا تتوفر على الأدوات والآليات الضرورية للتفكير؛ فهي ليست لغة ثقافة وفكر. ومن هنا فقرها المدقع رغم غناها الظاهري. والنتيجة هي أن المثقف العربي سواء كان طالبا أو أستاذا يعيش عالمين كلاهما قاصر: عالم لغته العامية وعالم اللغة الفصحى. أما الأمي العربي -وهو الذي يشكّل الأغلبية- فهو مسجون في عاميته يتعامل مع أشياء لا يسميها، وإذا فعل سمّاها بأسماء أجنبية مع بعض [التكسير] الضروري الذي لاشك في أنه يترك أثره العميق في عقله، في بنيته الفكرية. أما ذلك العربي الذي يعرف لغة أجنبية واحدة أو أكثر فهو يعيش ثلاثة عوالم مختلفة: إنه [يملك] ثلاثة تصورات [للعالم]: يفكر بلغة أجنبية، ويكتب بلغة عربية فصحى، ويتحدث في البيت والشارع، بل وفي الجامعة؛ باللغة العامية"[١].

كيف يستقيم للعرب الآن تفكير، وهم يعيشون بلهجتهم الحياة الحديثة، ويفكرون بلغتهم التفكير القديم؟ إنها مشكلة اضطراب لغوي تفكيري تؤبّده فكرة ستتكيفيتش الثانية السابقة في الفقرة الثالثة نفسها، لا مشكلة لغة وتفكير مضطربين. هذا أحسن ما تُحْمل عليه دلالة فكرته الأولى، لولا العجب من المفكر بلغةٍ غير العربية الذي ذكره الجابري: كيف يكون عربيّا!

---

[١] الجابري: ٧٩ – ٨٠.

أما انقسام اللغة إلى نمطين: مُبتذل مستهلك في شؤون الحياة اليومية العادية، وممتنع مصون لشؤون الحياة العقلية غير العاديّة، تختلف المسافة بينهما ما اختلفت الثقافات وما اختلف الليل والنهار- فأمر صحيح، فيه التكامل الطبيعي، وليس فيه الاضطراب الذي تشير إليه فكرة ستتكيفيتش الأولى، ولا التضاد الذي تنبه عليه فكرته الثانية.

لقد فصّل الدكتور وافي مشكلة اختلاف لغة الكتابة ولغة الحديث (اللهجة)، بعد أن بيّن أنه "يقصد بلغة الكتابة أو بلغة الآداب، اللغة التي تدون بها المؤلفات والصحف والمجلات وشئون القضاء والتشريع والإدارة، ويدون بها الإنتاج الفكري على العموم، ويؤلف بها الشعر والنثر الفني، وتستخدم في الخطابة والتدريس والمحاضرات، وفي تفاهم الخاصة بعضهم مع بعض وفي تفاهمهم مع العامة إذا كانوا بصدد موضوع يمت إلى الآداب والعلوم. ويقصد بلغة الحديث اللغة العامية التي نستخدمها في شئوننا العادية، ويجري بها حديثنا اليومي"[1]- وحجج فريقين نظرا في حلها، قال أحدهما برفع لهجة الحديث إلى لغة الكتابة، وقال الآخر بخفض لغة الكتابة إلى لهجة الحديث، ثم رأى هو الحل الأمثل "أن ندع الأمور تجري في مجاريها الطبيعية؛ فللغة قوانينها وللظواهر الاجتماعية نواميسها التي تسير عليها، ومن ضياع الوقت في غير جدوى أن نحاول تغيير مجرى هذه القوانين أو صدها عن عملها؛ إذ لا نستطيع إلى تغييرها سبيلا، ولن نجد لسنتها تبديلا. على أن اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث لا ينطوي على شيء من الشذوذ حتى نتلمس علاجا له. بل إنها السنة الطبيعية في اللغات"[2].

---

[1] وافي "٢": ١٥٣.

[2] السابق: ١٦٠.

ولقد ثبت أن إهمال تعليم اللغة القديمة الضخمة الغنى، المنبوزة بالجامدة، سياسة تعليمية سيئة[1]، فثبتت جدوى استمرار نظام التفكير القديم الخصب، المنبوز بالجامد على ما في دعوى جمود اللغة والتفكير العربيين من نظر يأتي.

[1] أونج: ٢٠٣. واللغة القديمة فيما سبق من بحثنا، هي اللغة المكتوبة عنده.

الْمَسْأَلَةُ الثّانِيَةُ: الْجُمودُ وَالتَّطَوُّرُ

بَيانُ التَّطَوُّرِ اللُّغَوِيِّ الْعامِّ

[١٤] بنى الدكتور وافي كتابه "علم اللغة"، على بابين: نشأة اللغة، وحياة اللغة. في هذا الباب الثاني عالج ست قضايا: الأولى: تفرع اللغة إلى لهجات، والثانية: فصائل اللغات، والثالثة: صراع اللغات، والرابعة: التطور اللغوي العام، والخامسة: أصوات اللغة حياتها وتطورها، والسادسة: الدلالة وتطورها.

في علاجه القضية الرابعة رجَع تطورَ اللغة إلى عوامل كثيرة، أهمها أربع طوائف: الأولى: انتقال اللغة من السلف إلى الخلف، والثانية: تأثّر اللغة بلغة أو لغات أخرى، والثالثة: عوامل اجتماعية ونفسية وجغرافية، كحضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها وثقافتها واتجاهاتها الفكرية ومناحي وجدانها ونزوعها وبيئتها الجغرافية، وما إلى ذلك مما رآه يشترك في أنه من مقومات الحياة الاجتماعية، والطائفة الرابعة الأخيرة: عوامل أدبية مقصودة تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة وما تبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما إليها في حمايتها والارتقاء بها[١].

بَيانُ تَطَوُّرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَديمِ

[١٥] وبنى الدكتور وافي كتابه "فقه اللغة " الذي عده بمنزلة الجزء الثاني لكتابه السابق، على ستة أبواب: اللغة الأكادية، واللغات الكنعانية، واللغات الآرامية، واللغات اليمنية القديمة، واللغات الحبشية السامية، واللغة العربية.

---

[١] وافي "١".

في هذا الباب الأخير عالج أربع قضايا: الأولى: حياة اللغة العربية، والثانية: عناصر اللغة العربية، والثالثة: كفاية اللغة العربية، والرابعة: صيانة اللغة العربية.

في علاجه القضية الأولى عرض خمس عشرة مسألة: الأولى: شعبيتها ومنزلتها من اللغات السامية، والثانية: نشأتها وأقسامها، والثالثة: العربية البائدة أو عربية النقوش، والرابعة: العربية الباقية كلمة عامة عنها، والخامسة: صراع لهجاتها بعضها مع بعض وتغلب لهجة قريش، والسادسة: القرآن والأدب الجاهلي ومجيئهما بلغة قريش، والسابعة: نهضة لغة قريش وعوامل هذه النهضة، والثامنة: أثر القرآن والحديث والإسلام في اللغة العربية، والتاسعة: اللهجات العربية بعد تغلب لغة قريش، والعاشرة: احتكاك العربية بأخواتها السامية وغيرها وصراعها معها وآثار ذلك، والحادية عشرة: اللهجات العامية الحديثة عوامل تطورها وصفاتها المشتركة، والثانية عشرة: طوائف اللهجات العامية ومبلغ بعد كل منها عن الفصحى، والثالثة عشرة: لغة الكتابة العربية وتطورها وما استقرت عليه في العصر الحاضر، والرابعة عشرة: بين العامية والفصحى مشكلة اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث، والخامسة عشرة الأخيرة: اللهجة المالطية[1].

بَيانُ تَطَوُّرِ اللُّغَةِ الْعَرَبيَّةِ الْحَديثِ

[١٦] ولقد نبّه الدكتور وافي على أن لغة الكتابة التي تمثل في جملتها اللغة القرشية التي نزل بها القرآن، قد تطورت على السُّنّة اللغوية العامة، تطورا كبيرا، وأنه انتابها في العصر الحاضر تطورات جديدة ترجع إلى عوامل كثيرة، أهمها خمسة:

---

[1] وافي "٢"، السابق.

١ اقتباس مفردات إفرنجية بعد تعريبها للتعبير عن مخترعات أو آلات حديثة، أو مصطلحات علمية، أو نظريات، أو مبادئ اجتماعية، أو أحزاب سياسية... وهلم جرا.

٢ ترجمة كثير من المفردات الإفرنجية الدالة على معانٍ خاصة تتصل بمصطلحات العلوم والفلسفة والآداب... وما إلى ذلك، إلى مفردات عربية كانت تستعمل من قبل في معانٍ عامة، فتجردت هذه المفردات من معانيها القديمة وأصبحت مقصورة على المدلولات الاصطلاحية.

٣ التأثر بأساليب اللغات الإفرنجية ومناهج تعبيرها وطرق استدلالها في المؤلفات العلمية والقصصية والأدبية وفي الصحف والمجلات.

٤ اقتباس كثير من أخيلة هذه اللغات وتشبيهاتها وحكمها وأمثالها... وما إلى ذلك.

٥ إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة. فكثيرا ما لجأ الكتّاب في البلاد العربية إلى هذه الوسيلة للتعبير عن معانٍ لا يجدون في المفردات المستعملة ما يعبّر عنها تعبيرا دقيقا، أو لمجرد الرغبة في الإغراب أو في الترفع عن المفردات التي لاكَتْها الألسنة كثيرا. وبكثرة الاستعمال بعثت هذه المفردات خلقا جديدا، وزال ما كان فيها من غرابة، واندمجت في المتداول المألوف"[1].

مَنْزِلَةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَدِيثًا مِنْ مَنْزِلَتِهَا قَدِيمًا

[١٧] كل ذلك فقه دقيق وثيق لمنزلة اللغة العربية حديثا من اللغة العربية قديما، واللغة العربية قديما من اللغة العربية حديثا، وأن هذه وتلك لغة واحدة، وما ثَمّ إلا أحوال

[1] السابق: ١٥٢- ١٥٣.

الحياة في اللغة التي هي كصاحبها، لو جمدت ماتت، فلما لم تمت لم تجمد، وهو ما أباه ستتكيفيتش فيما استنبطته عنه في الفقرة الثالثة.

إنه إذا كان انحلال اللغة إلى لهجات، أهم موضوعات تاريخ سائر اللغات، وأجدرها بالدراسة - فإن بقاء لغتنا عربيةً على رغم لهجاتها وعلى رغم أطوارها، أجدر موضوعات تاريخها بالدراسة، وهو ما وعاه الدكتور وافي أتم وعي، على رغم ما دعا إليه غيره[1].

أَثَرُ الْإِسْلامِ وَالْقُرْآنِ اللُّغَوِيُّ التَّفْكِيرِيُّ

[١٨] لقد زلزل الإسلام العرب لغة وتفكيرا، واستحثهم إليه بمثل "إن الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم"[2]، الأصل الباقي المشروح بمثل "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها"[3].

إنه لما سب أبو ذر الغفاري -رضي الله عنه!- غلامه بأمه قائلا: "يا ابن السوداء"، قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية. إخوانكم خَوَلُكُمْ (خدمكم)، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل

---

[1] برجشترا سر، ففي عربية القرون الأولى بُعَيْدَ الهجرة، ألقى سنة ١٩٢٩م بالجامعة المصرية، محاضراته العربية في المسائل التاريخية الخاصة باللغة العربية في طور كمالها. ثم نبّه على الحاجة إلى بيان تاريخها منذئذ إلى الآن، وأن أهم موضوعاته تكوّن اللهجات الدارجة على اختلافها. وأشار إلى أن في النظر إلى اللغة العربية من الوجهة التاريخية فائدتين: الأولى إكمال معرفتها، والأخرى معرفة طرائق علم اللغة الغربي الذي يحسن استيعاب العرب له من خلال لغتهم!

[2] سورة الرعد، من الآية١١.

[3] ابن ماجه: ٢/ ١٣٩٥.

وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم"[1]، فانتبه إلى بقية فيه من اللغة والتفكير، جاهلية تعوق إيمانه الجديد، فالتقطها، واطّرحها[2].

كان الإسلام فيما يرى مالك بن نبي، انفجارا لغويا تفكيريّا مباغتا، على نحو فريد في تاريخ اللغات، انبعثت به اللغة العربية كما انبعث به الرسول العربي -صلى الله عليه، وسلم!- مثالا للثقافة الجديدة والحضارة الوليدة، وأداة أدبها الجملة المنظمة، بعد أن كانت البيت الموزون[3].

ولولا القرآن الذي وقفت عليه الأعمار والأعمال، ونشأت له واستنبطت منه وصدرت عنه العلوم والمعارف والخبرات، والأقوال والأفعال والإقرارات- ما كانت عربية، ولذهبت كما ذهبت اللاتينية أو السنسكريتية[4].

أَثَرُ عُلومِ الْأَوائِلِ اللُّغَوِيُّ التَّفْكيريُّ

[١٩] ثم زلزلتهم في عصر بني العباس علومُ الأوائل، فوسعتها لغتهم وتفكيرهم ناصعَيْنِ دقيقَيْنِ بلا عوجٍ ولا تعقيد، وتطوروا من الأسلوب القديم التركيبي، إلى الأسلوب المولد

---

[1] البخاري: ١/ ١٤، والعسقلاني: ١/ ٨٦.

[2] محمد: ٥؛ فقد ذكر عن سارتر أنه لما قال طالب فرنسي لصديقه الزنجي: "لنشتغل الآن كما يشتغل الزنج" - وإن لم ينطق الكلمة الأخيرة فقد فهمت من هذا المثل التعبيري- هجره صديقه إلى غير لقاءٍ آسفا لهذه البقية العنصرية (الجاهلية) التي لم يطرحها من لغته وتفكيره!

[3] ابن نبي: ١٨٤، ١٨٥.

[4] عبد التواب: ١٠٨- ١١٥.

التحليلي الذي أنشأه طائفة من الكتّاب رائدهم ابن المقفع[1]، لتميل به العربية إلى بسط المعنى وانسياب الصياغة واسترسالها وسهولة اللفظ:

إذا قال القديم: "جَدُّكَ (حَظُّكَ)، لا كَدُّك (عَناؤُكَ)"، فترك لسامعه أن يحل ما ركب- قال المولَّد: "إذ لم يُساعدْك الجدُّ، فالحركة (العَناءُ) خِذْلانٌ (خَيْبَةٌ)"[2]، فأخذ بيد سامعه إلى المراد.

أَثَرُ الْفِكْرِ الْغَرْبِيّ الْحَدِيثِ اللُّغَوِيُّ التَّفْكيريُّ

[٢٠] ثم زلزلهم الفكر الغربي الحديث لغة وتفكيرا، فانقسموا إزاءه على خمسة أقسام: منهم من قبله كله وتمسك بالفكر العربي كله، ومنهم من قبله كله وتمسك ببعض الفكر العربي، ومنهم من قبل بعضه وتمسك بالفكر العربي كله، ومنهم من قبل بعضه وتمسك ببعض الفكر العربي، ومنهم من كاد يرفض الفكرين جميعا[3]!

مَراحِلُ الِاسْتِفادَةِ مِنْ صَحيحِ الْفِكْرِ الْحَديثِ

[٢١] إنني لموقن من أنها الأقسام المنطقية التاريخية الثائرة كلما زلزل القديم حديث أو المقيم وافد، حتى إذا ما وُعيتْ حقائق الحديث، وانماز صحيحه من سقيمه، ووجب قبول صحيحه وتغيير القديم به ورد سقيمه وحماية القديم منه- اتحدت تلك الأقسام على قلب قسم واحد لا يقوم له غيره.

---

[1] ضيف "٢": ٢٠.

[2] عابدين: ١٨١.

[3] محمود "تجديد الفكر العربي": ٢٩٢.

هو عمل زمان طويل، تكون فيه ضروب من التجريب متعاقبة ربما تزامنت، هي: الاتباع الأعمى، ثم الاتباع البصير، ثم الامتلاك، ثم الابتداع[1].

وإنّ تأمّلنا لسيرة ألفاظ وتعابير خاصة، على مثل ما سبق في الفقرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، لكفيل بأن يطلعنا على طرف من سيرتنا لغة وتفكيرا. وإن افتقادنا لمثل ذلك على ما ينبغي له من الاستقصاء والوفاء، لدليل ضآلة علمنا بأنفسنا، وضعف وعينا لحياتنا الكائنة والمنتظرة[2].

اطِّراحُ الْفِكْرِ الْقَديمِ كَاطِّراحِ الْفِكْرِ الْحَديثِ

[٢٢] إن استيعاب الفكر الحديث بما فيه من آثار اللغة والتفكير الحديثين، يزيد من إنسانية الإنسان، ويخصب من حياته، وينير من بصيرته، ولكن اطّراح الفكر القديم بما فيه من آثار اللغة والتفكير القديمين، ينقص من إنسانية الإنسان، ويجدب من حياته، ويطفئ من

[1] العقاد: ٨٩ – ٩٠؛ فقد نظرتُ فيما ذكرتُ من ضروب تجريب الجديد، إلى ما ذكر من مراحل مرور الشعر من الركود والجمود إلى النهضة والجودة، وهي: التقليد الضعيف أو التقليد للتقليد، والتقليد المحكم أو التقليد الممتزج بشيء من القدرة، والابتكار الناشئ من شعور بالحرية القومية، والابتكار الناشئ من شعور بالحرية الفردية. والعجب للدكتور زكي نجيب محمود، جعل العقاد في القسم الأول مما سبق، الذي قَبِلَ الفكر الغربي كله وتمسك بالفكر العربي كله، ولم يكن منه، بل من القسم الرابع الذي قبل بعضًا من كلٍّ منهما دون بعض، تشهد لذلك أعماله. ومن الطريف دلالةً، أنني سمعت قريبا حديث العقاد المتلفز الوحيد، مرة أخرى، وفيه للمتأمل ما يجعله في القسم الرابع حتما!

[2] ناصف "١": ١٣٩–١٤٠، ١٤١–١٤٢، ١٨٥– ١٨٦.

بصيرته[1]. ولأمر ما قال رسول الإسلام - صلى الله عليه، وسلم!- في صحابته الذين منهم أبو ذر نفسه -رضي الله عنه!-: "خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"[2]. من ثم ينبغي ألا نعجب لهنري لوسل أن دعا في مقال نشرته لوموند الفرنسية، عنوانه "اللغة العربية والحضارة العربية الإسلامية تزودان الدارس لهما بنظرة جديدة إلى العالم"- إلى تدريس اللغة العربية وكتابها الأكبر "القرآن" في المدارس الفرنسية[3]؛ فلم يرد لأمته إلا الإصلاح. أما العجب العاجب فلستتكيفيتش يدعونا نحن إلى اطراح لغتنا، بأنها قديمة!

---

[1] محمد: ٣٠، وعلي "٢": ١٢؛ فقد أشار الدكتور نبيل علي عالم هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي، ضيف البرنامج، إلى مؤتمر لليونسكو حضره أخيرا، في قضية التنوع اللغوي وخطورة الانقراض المخوف على لغات العالم، ومأساة انقراض لغة منها كل أسبوعين، "بكل ما يعنيه هذا من اختفاء رصيد ثقافي عظيم جدًّا".

[2] العسقلاني: ٦/ ٣٨٧.

[3] أمين: ص٩ وما بعدها.

الْمَسْألةُ الثّالثَةُ: نِظَامُ الْأَطْوارِ

عَلاقَةُ الْكَلِمِ (الْمَعانِي) الْمُجْتَمِعَةِ أَهَمُّ مِنْها

[٢٣] عمر، علي، خالد، الشمس، القمر، الأرض، كلم منفردات متواليات، وهي كذلك معانٍ منفردات متواليات، كل كلمة منفردة منها معنى منفرد، متى خطرت خطر، ومتى خطر خطرت، وما خطور كل كلمة منها أو كل معنى إلا بمنزلة ضرب واحد في واحد أو قسمته عليه، لا زيادة ثم معتبرة.

أما إذا كانت تلك الكلم (المعاني) أنفسها، هكذا: علي وخالد حول عمر والقمر والأرض حول الشمس- فهي كلام مركّب مترابط، وفكرتان متشابهتان مجتمعتان. تدل الأولى على علاقة جماعة من الناس، وتدل الأخرى على علاقة جماعة من الجماد. إنه إذا كانت العلاقة في الأولى علامة سعي الناس إلى الائتلاف وحرصهم عليه، كانت العلاقة في الأخرى علامة ائتلاف الجماد على سنة عليا، ثم كان التقاء العلامتين كلتيهما آية الخضوع العظمى لتقدير خالق واحد بديع عظيم، لم يملك لها ليفي شتراوس إلا أن يقول: "حين ننظر إلى جميع المنجزات الفكرية للإنسان بقدر ما دونت عبر العالم كله، نجد أن القاسم المشترك بينها هو دائما إدخال نظام من نمط ما. وإذا كان هذا يمثل حاجة أساسية للنظام في العقل الإنساني، وما دام العقل الإنساني، بعد كل حساب، ليس سوى جزء من الكون- فإن الحاجة ربما كانت موجودة لأن ثمة نظاما ما في الكون، ولأن الكون ليس في حالة من الفوضى"[١].

---

[١] أبو ديب: ٢٥.

ونحن إذا تأملنا على التاريخ أعمال كبار المفكرين علماء وفنانين، لم نجد قيمتها في ذخائرهم المحتشدة فيها من الكلم (المعاني) المنفردة، بل فيما يختارونه لها ويختارونها له من علاقات تُظهرها وكأن لم تسمع من قبل[1].

ولأمر ما قال أبو نواس لمسلم بن الوليد، الفاخر في قوله:

" رَأْيُ الْمُهَلَّبِ أَوْ بَأْسُ الْأَيَازِيدِ"،

بأنه لم يسبقه إلى جمع (يزيد) أحد-: "مِنْ هَا هُنَا وَهِمْتَ"[2].

وللأمر نفسه قال بايي أنكلان الكاتب الأسباني: "يا لشقاء الشاعر الذي لم يجرؤ يوما على أن يجمع بين كلمتين لم تلتقيا من قبل على الإطلاق"[3].

علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة، أهمُّ من الكلم (المعاني) المنفردات أنفسها؛ ففضلا عن أنها التي تقدم الفكرة "دلالة علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة"، لا المعنى المنفرد، فتظهر الكلمة أحيانا وكأن لم تسمع من قبل- تَسْتَقِلُّ وحْدَها بتوليد ما لا يحصى من الأفكار[4].

وبالقياس تكون علاقةُ جُمَلِ الفِقْرَةِ المجتمعة، أهمَّ من الجمل المنفردات، وعلاقةُ فِقَرِ النَّصِّ المجتمعة، أهمَّ من الفِقَرِ المنفردات، وعلاقةُ نُصوصِ الكِتابِ المجتمعة، أهمَّ من النصوص المنفردات؛ فإن المتأمل يطيل النظر حتى تنكشف له رسالة الكتّاب المستولية على نصوصه؛ فتنكشف بانكشافها قضايا النصوص، ثم أفكار الفقر، ثم فُكَيْرات الجمل؛ فتكون لمعاني الكلم عندئذ قيمة.

---

[1] ابن الأثير: ١/ ١٦٦، ورتشاردز: ٤٦، وفيشر: ٢٠٤، ووات: ٤٩ - ٥٣، وفيما أورده الباحث الأخير -وهو محلل اقتصادي- دليل عموم التسليم ببداهة هذه الفكرة الآن.

[2] المرزباني: ٣٥٦.

[3] فضل: ٤٥٦.

[4] علي "١": ١٤٢.

عَلاقَةُ الْكَلِمِ (الْمَعانِي) الْمُجْتَمِعَةِ عَمَلُ النَّحْوِ

[٢٤] ما علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة، بعضها ببعض إلا عمل النَّحْو، وما تعليق مستعملها لها بعضها ببعض إلا إعمال هذا النحو[١]، وما الانطلاق منها إلى علاقة الجمل في الفقرة والفقر في النص والنصوص في الكتّاب، إلا انطلاق من نحو الجملة القديم الدارج لدينا الآن -وعليه مآخذ تنفي عنه صفة الوفاء- إلى نحو النص الحديث المتمَنّى لنا[٢].

"وَجْهُ النَّحْوِ الْفَلْسَفِيِّ الْمُجْدِي"

[٢٥] لما كان نظام اللغة مقتصرا عند دو سوسير عالم اللغة الغربي، على الأصوات والكلمات فقط أو مع عدد ضئيل من العبارات الثابتة والنماذج العامة، لم يكن لتكوين الجملة لديه علاقة بنظام اللغة، بل بالكلام المنطوق؛ ومن ثم كان خارج إطار علم اللغة الحقيقي لأنه عندئذ نمط من الإبداع اللغوي الحر الذي لا تعوقه قواعد اللغة إلا ما اختص بصياغة الكلمات ونماذج الأصوات؛ ثُمَّ من ثَمَّ لم تكن للنحو أهمية كبيرة[٣].

ولما لم يكف في فهم طبيعة الفكر البشري أن تفسر ظواهره على منهج الديكارتيين، بردها إلى مبدأ حيوي يدعى العقل لم تكشف خصائصه بعد على نحو متماسك وشامل- انطلق تشومسكي عالم اللغة الأمريكي، من حصر ديكارت نفسِه إنسانيةَ الإنسان بمقدرته من خلال

---

[١] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٨١- ٨٣، ٨٤، ٩٨، وحسان: ١٨٥- ١٩٠، وعبد اللطيف: ٩٩، ١٠٢- ١٠٣، ١٠٤- ١٠٥، وناصف "١": ٢٥٣- ٢٥٤، ٢٤٦- ٢٤٨، ٢٥٨، ٢٧٢- ٢٧٣، ٢٧٧، وعبد المطلب: ٥٥.

[٢] مصلوح: ٤٣١.

[٣] تشومسكي: ٣١- ٣٢.

اللغة على التحليل والتوليد[1]، إلى التفتيش في تلك المقدرة عن نماذج تتيح له وضع نظام من القواعد يسمح بتوليد الجمل الممكنة في اللغة كُلِّها، يشتمل على عناصر ثلاثة هي: المكوّن التركيبي والمكوّن الصوتي والمكوّن الدلالي (نظريته النحو التوليدي) لا ينحصر في حدود لغة ما وإن اعتمد عليها، بل يشمل اللغات الطبيعية كلها فيضطلع بدراسة الشروط الواجبة فيها، فصارهمه "تأصيل النحو في أعمق أعماق التربة العقلية المشتركة للغة البشرية، على أساس أن العقل عنده فطري، وأن اللغة بنحوها المنطقي متأصلة في الحياة الذهنية التي يوجهها العقل"[2].

لقد استحسن منهج وصف ظواهر اللغة والنشاط العقلي بأعلى درجات الدقة الممكنة ومحاولة تجريد بناء نظري يفسر تلك الظواهر ويكشف مبادئ انتظامها وعملها ولا يربط التراكيب والأعمال العقلية المفترضة بأية آليات فسيولوجية، ولا يفسر الوظيفة العقلية من خلال أسباب فيزياوية، فراجَعَ نظريةَ النحو الفلسفي أو الكلي التي نشأت في القرن السابع عشر، منطلقا من الاعتذار بجواز الذهاب إلى أبعد مما يمكن تخيله في سبيل تفسير الملاحظ، ومن التشبه بنيوتن في محاولته فهم طبيعة حركة الكواكب، إلى المنافحة عن النظرية المهجورة بأنها ليست نمطا من النحو المعياري الذي تجاوزته الدراسة اللغوية، بل من التفسير العقلي أي تفسير حقائق الاستعمال على أساس فروض متعلقة بطبيعة اللغة وطبيعة الفكر البشري[3].

إنه لحلم بعيد بُعْدَ أولية الإنسان في هذه الحياة، ما يطمح إليه تشومسكي من "النحو الكلي" الذي يبعث للعالم أصول لغة واحدة وتفكير واحد، كان حافز الدكتور مازن الوعر إلى إقناع أساتذته ومنهم تشومسكي نفسه، بجعل رسالته للدكتوراه في دراسة التراكيب الأساسية في اللغة العربية، مستخدما المنهج الذي وضعه العرب القدماء، مقترنا بالمنهج الدلالي التصنيفي

---

[1] علي "١": ٦٨.

[2] إبراهيم: ٦٧، وزكريا: ٢١٢.

[3] تشومسكي: ٢٤- ٢٦.

الذي وضعه عالم الدلاليات الأمريكي ولتركوك وبالمنهج التوليدي التحويلي الذي وضعه تشومسكي وقد تَلْمَذَ لهما، من أجل وصف التراكيب العربية وشرحها نحويّا ودلاليّا، حتى "يمكن للنظرية اللسانية الحديثة أن تستفيد من المواد اللسانية المقدمة في هذه الدراسة"[1]- لحظي بإعجاب تشومسكي وتصريحه المكتوب في غرة العمل، بما فيه من إضافة إلى النظرية الغربية!

لقد اشتد انشعاب الناس إلى أمم مختلفة اللغات والتفاكير، تسهر أنحاؤها (أنظمتها) على رعاية اختلافها، بحيث لا يستبعد المتأمل ألّا يكون ذلك الحلم الأخّاذ، إلا كابوس "العولمة" قد استغشت به ثياب "النحو العالمي"، تدعو الناس إلى أن يعتقدوا الحضارة الغربية وينتموا إليها دون حضارتهم؛ إذ لا حياة إلا باعتناق مبادئها، ولا سيادة إلا باعتماد طرائقها، كما سبق في الفقرة الثانية عشرة، وهم لا يريدون إلا أن يستوعبوا الحضارة الغربية كما استوعبهم الغرب، لا أن يكونوه، كما لم يكنهم. ولن يكونوه -لو أرادوا- بل سيكونون له، كما كان كثير من العالم الذي اغتصبه وأجبره على حضارته، فصار حظائر لمخلفاته[2].

ولن يفوت المتأمل أن يستظهر من تصريح تشومسكي نفسه المكتوب في غرة عمل الدكتور مازن الوعر الآنف ذكره، أن الأصول المَحْلُومَ باكتشافها، هي للغة وتفكير غربيّين، كما أراد ستتكيفيتش فيما استنبطته عنه من أفكار في الفقرة الثالثة!

ولكن ينبغي ألا يفوته أنه تتجلى في خلال ذلك علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة، بعضها ببعض، التي هي أهم منها هي نفسها، والتي هي عمل النحو- عملا لغويا تفكيريا؛ فيتجلى النحو نظاما لأطوار اللغة والتفكير جميعا معا أي السلك الذي ينتظمها لتكون على التاريخ عقدا متآخذ الحبّات لولاه لانفرطت لغاتٍ وتفاكير شتى، ليكون هو ذلك الموضوع الأجدر

[1] الوعر "١": ٢٥٠.

[2] بورا: ٣٦- ٣٧.

بالدراسة من موضوعات تاريخ اللغة العربية، الذي نبهتْ عليه الفقرة السابعة عشرة، بَلْهَ أن يكون وجه النحو الفلسفي المجدي.

نَقْدُ الدُّكْتورِ تَمّامْ حَسّانْ لِعَمَلِ الدُّكْتورِ عُثْمانْ أَمينْ

[٢٦] في خلال حديثه عن كون الإسناد في اللغة العربية قرينة معنوية مقالية من قرائن التعليق، تؤازر غيرها من القرائن المقالية (المعنوية واللفظية)، ومن القرائن الحالية (المقامية) -وهذه كلها قرائن التعليق- ومن القرائن العقلية (العهدية الذهنية والمنطقية)، ومن القرائن المادية (مخلفات المجرم في مكان الجريمة وما أشبه)، وأنه بهذا التآزر والتضافر نفهم معنى النص الدلالي- ذكر الدكتور تمام حسان أن الإسناد في اللغات الغربية مفتقر إلى وساطة نوع من القرائن اللفظية يسمى الأفعال المساعدة، فليس هو فيها قرنية كما في العربية. ثم أشار إلى محاولة الفيلسوف الدكتور عثمان أمين في كتيب له، تفضيل اللغة العربية بهذا على لغات أخرى غيرها، ثم أعرض عن هذا الضرب من البحث، لأنه مما وراء منهج اللغة الذي يعتني به الفلاسفة -إن جاز أن يعتني به أحد- لا اللغويون. وصرح بأنه يعتني من هذه المسألة مثلا، بكون الإسناد "قرينة معنوية لتمييز المسند إليه من المسند في الجملة، في ظل ظاهرة كبرى تحكم استخدام القرائن جميعا، هي ظاهرة "تضافر القرائن"[1]، وهي نظريته المهمة التي قدمها بهذا الكتاب، وانطلقت منها واعتمدت عليها دراسات كثيرة.

---

[1] حسان: ١٩٣.

دَلالَةُ عَمَلِ الدُّكْتورِ عُثْمانْ أَمينْ

[٢٧] إننا إذا نظرنا في كتيب الدكتور عثمان أمين، المقصود بعينه على صغره (فلسفة اللغة العربية)، وجدناه منذورا في ستينيات القرن العشرين، للنزعة القومية العربية وتنبيه المخدوعين بدعوى قصور اللغة العربية- مبنيّا على عشرة فصول: الأول تمهيد في اللغة والأمة، والثاني خصائص اللغة العربية، والثالث حضور جواني، والرابع الصدارة للمعنى، والخامس الإعراب مطلب العقل، والسادس ظلال وألوان، والسابع الحركة والقوة، والثامن اعتراض ورَدّ، والتاسع مصير اللغة العربية، والعاشر اللغة العربية والمثالية الفلسفية- مختومًا بقوله: "إن عزة الإسلام في المحافظة على عزة العروبة، وعزة العروبة في المحافظة على الميزات الفريدة التي تميزت بها اللغة العربية: إنها لغة مثالية، ذات فلسفة واضحة، فلسفة "جوّانية" موحدة، تربط القول بالفكر، وتوحد بين النظر والعمل"[١].

إنه يبين اعتماد الفكر العربي على امتزاج اللغة والتفكير العربيين، وصدوره عنه، بحيث إذا فسد هذا الامتزاج واستعجم، فسد ذلك الفكر واستعجم، ولما كانت حياتنا بحياة هذا الفكر، كانت بحياة ذلك الامتزاج كذلك. وهي قضية أُهْملت كما اتضح من عمل الدكتور تمام حسان، في سبعينيات القرن العشرين، لخفوت النزعة القومية، ولسيطرة المنهج الوصفي، فلما تلعّبت بنا الآن أصابع العولمة، وسيطرت نظرية النحو التوليدي الساعي إلى النحو الفلسفي، عادت جَذَعة جديرةً بالتأمّل.

---

[١] أمين: ١٠٥.

[٢٨] لقد كان ستتكيفيتش كما يتضح مما استنبطت عنه من أفكار في الفقرة الثالثة، واعيا كيف يميّز النحو اللغة والتفكير، حتى ليُعدّ نحوهما جميعا[١]. ونحن إذا استعملنا دلالة عكس الكلام تبيّنا أنه يشير إلى بقاء اللغة والتفكير عربيين ما بقي لأطوارهما النحو العربي نظاما، وأن ليس لعجمة الكلمات (المعاني) المفردة، أو عروبتها في هذا الشأن، من أثر. وهو قد قال في موضع آخر من كتابه نفسه: "إن اللغة العربية ليست مختلفة عن الإنجليزية مثلا لأن كلمة (يكتب) تتضمن السابقة (ياء المضارعة)، وأن الكلمة الإنجليزية (Writes) لا تتضمنها. إن المنطق الدلالي والصرفي واحد في الكلمتين، لقد عبّر المتكلم عن أبسط فكرة عملية للحدث في الحالين... إن الاعتبارات المعجمية والصرفية ليست بعائق يحول دون التماثل المنطقي للغات، أما النحو فإنه كما يبدو في المقابلة بين الجملتين البسيطتين السابقتين (What does he do?) و(ماذا يفعل؟)، يضع هذا التماثل في خطر. إن النحو الذي هو بناء لمنطق لغوي متكامل ومركب، يختلف اختلافا شديدا من لغة إلى لغة أخرى. لكن النحو في التحليل النهائي، يعد انعكاسا لأنماط فكرية تطورت من اكتشافات فكرية إلى عادات فكرية، ومن ثم إلى قوانين فكرية، ونحن عادةً نتعامل مع قواعد الفكر. إن اكتشافاتنا الفردية لأفكار جديدة نادرا ما يسمح بتطورها إلى عادات فكرية شائعة؛ ولهذا نتلاشى لأنها عوارض زائلة دون أن تشكل قواعد جديدة"[٢].

لكأنّه نظر في مثل هذه الجملة "الراديو والتلفزيون والسينما كرنفال إنترناشيونال" -وكل كلمة منها أعجمية صيغة ومعنى- فرأى كيف تضافرت بينها سائر قرائن التعليق (النحو) العربيّ

---

[١] صادق: ١٠٨؛ فقد استعملت مصطلح " النحو الإيقاعي " لنحو الإيقاع، ولما كانت الموسيقا عند أهلها تفكيرًا مجردًا، جاز مصطلح نحو التفكير جوازًا حسنًا!

[٢] ستتكيفيتش: ٢٧٨.

فاستعربتْ، فلمْ يلق بالا لصيغ الكلمات ومعانيها المنفردات، قائلا: هذه طيور عالمية مهاجرة، فحيثما أقامت وعشَّشَت انتسبت!

ظاهِرَةُ تَعْرِيبِ التَّعْبِيرِ

[٢٩] نحوُ اللغةِ والتفكيرِ العربيِّ باقٍ من قديم إذن نظاما لأطوارهما، يحفظ عليها عروبتها، على رغم ما استعجم أو يستعجم من صيغ الكلم ومعانيها المنفردات[١]. ولكن بين هذه المنزلة ومنزلة الكلمات (المعاني) المجتمعة بعلاقة تامة، منزلة التعبير "الوحدة المعنوية الدنيا التي يحتضنها تركيب ما في الكلام ولا تحدّها بنية خاصة، ونهتدي إليها بتقطيع الكلام بمراعاة تمام المعنى"[٢]، المكوّن الجُمْلي عند اللغويين النفسيين، الذي تحلّ إليه الجملة خلال الفهم ثم تنعقد به[٣].

لقد كثر في هذه المنزلة حديثا ما أخذته العربية من غيرها، حتى لقد ذكره الدكتور وافي ضمن أهم عوامل تطويرها في العصر الحاضر، قائلا في المرتبة الخامسة: "اقتباس كثير من أخيلة هذه اللغات وتشبيهاتها وحكمها وأمثالها... وما إلى ذلك"[٤]؛ فتناوله بعض الباحثين على أنه من "التداخل الأسلوبي"، ناقدا نفور من سمّاهم "الصفويين" -نسبة عجيبة إلى الصفاء اللغوي!- منه، وممثلا بما دخل العربية منه على رغم أنفهم، من الفرنسية، مثل قول الفرنسيين: "ذر الرماد في العيون"، ومنبّها على طبيعيّته بين اللغات المتلاحقة، وعلى جدواه على لغتنا المفتقرة

---

[١] الوعر "١": ١٨- ١٩.

[٢] الطرابلسي: ٣١٨.

[٣] عبده: ٢١.

[٤] وافي "٢": ١٥٢.

إليه شغلا لفراغها، وداعيا ضرورةً إلى دراسته دراسة معجمية اجتماعية تفسر الحضارات بالمصطلحات (الكلمات) وبالتراكيب (التعابير) التي تنشئها أو تستعيرها[1]!

إن تسمية هذه الظاهرة (تداخلا)، غير سديدة؛ إذ تداخل الأساليب أن تتسرب من كلّ منها إلى الآخر ملامح، وهو التلاقح الآنف الذكر، والمراد هنا دخول ملامح من طرف إلى آخر دون عكس، وهو لا يخرج عن التعريب، وقد عرض الباحث نفسه لدعوة المجمع إلى "تعريب الأساليب" أي التعابير[2]. ولا ريب في أنفة بعض أدبائنا على الزمان من تعريب التعبير تمسكا "بنقاء الديباجة"، واجتهادهم -إن اضطروا- أن يَحُلّوه ويعقدوا عقدا عربيّا بحتا. هذا شأنهم المبني على اعتقادهم أن وقوع الكلمة أو التعبير المعرَّبين في لغتهم، كوقوع قطرة الليمون في زِقّ العسل المصفى، شرٌّ مستطير. والحق ألّا أثر لذلك ما بقي كالخرق المرفوء، كِسرةً تهضمها معدة النحو العربي، فأما أن تتتايع التعابير المعربة آخذا بعضها بحُجَز بعض كرقع الثوب السبعين الحافظيّة التي لا باقية معها لحقيقة الثوب- فلا تلاقح ولا استعارة، بل فناء وعدم. وفيما استنبطته عن ستتكيفيتش في الفكرة السادسة من الفقرة الثالثة، ما يؤكد هذا الرأي.

أما مقدرة مثل هذه الكلمات والتعابير المسلوكة في نظام أطوار اللغة والتفكير الذي أنشأها أو الذي استعارها، متى انتزعناها منه فدرسناها دراسة معجمية اجتماعية- على أن تفسر الحضارات -ولا ريب في أن المراد تفسير ضعف الحضارة العربية وقوة الحضارة الغربية!- فبعيدة التخيل؛ إذ القريبة المتحققة مقدرة نظام أطوار اللغة والتفكير نفسه على ذلك. ولكن تلك الأولى مفيدة في الاطلاع على طرف من سيرة تلاقح الحضارات وأثر بعضها في بعض.

---

[1] الجمزاوي: ١٥٩- ١٧٠.

[2] عياد: ٣٢- ٣٣، وعبد المطلب: ١٢٩-١٣١؛ ففيهما من سيرة مصطلح " أسلوب " في كتب النقد العربي من قديم إلى حديث، ما ينكر تسمية مثل هذه التعابير، أساليب.

تَمَسُّكُ دُعاةِ التَّطْويرِ بِنِظامِ أَطْوارِ اللُّغَةِ وَالتَّفْكيرِ الْعَرَبِيَّيْنِ

[٣٠] تطور الثقافة حياة، وجمودها موت، والفنانون ولاسيما الأدباء، أكثر الناس وعيا لذلك؛ ومن ثم يدعون كل حين إلى اطراح نظام أطوار اللغة والتفكير، حتى إذا ما تحركت الثقافة وتطورت على ما يرغبون، دعوا إلى التمسك بالنظام نفسه، وعيا منهم لوظيفته الآنفة البيان.

هذا أدونيس الصاخب الثورة على نظام أطوار اللغة والتفكير العربيين في "زمن الشعر"[١]، يعود في " النص القرآني"، إلى ما صخب به، ليعدّله ذاكرا أنه قاله في سياق آخر، داعياً إلى التمسك بما ثار عليه -ففيه لا في القدامة ولا في الحداثة، يكمن الإبداع- شارحًا كيف يأبى هذا النظام "زراعة أعضاء غريبة"[٢]، قاصدا فيما فهمت، شَوْبه بغيره، على جهة الكذب اللغوي الذي قال فيه الدكتور شكري عياد: "إنما تفسد اللغة وتنحطّ المقدرة اللغوية عندما يتعود الناس الكذب في استعمال اللغة. فكما أن الحياة الاجتماعية لا تستقيم إذا كان الكذب هو قاعدة التعامل، فكذلك الحياة اللغوية -وهي أداتها الأولى- تضطرب وتفسد حين يتعمد الناس تحريف الكلم عن مواضعه"[٣].

أما غير الفنانين من دعاة التطوير، فمطمئنون إلى بقاء عروبة الثقافة، ببقاء نظام أطوار اللغة والتفكير العربي، فضلاً عما يختص به العرب من ظروف أخرى[٤].

---

[١] أدونيس، ١٩٨٣: ١٣، ٤٠، ١١٣، وغيرها.

[٢] أدونيس، ١٩٩٣: ٩٦- ٩٨. وراجع الخراط: ٤٦، ٤٧؛ فقد طمح إلى أن يتحرر من نظام اللغة والتفكير، ثم خاف من هذه الحرية!

[٣] عياد: ١١٠- ١١١.

[٤] محمود "تجديد الفكر العربي": ٣٦٢- ٣٦٥.

الْمَسْأَلَةُ الرّابِعَةُ: مِثَالُ الِاتّصَالِ

دَعْوى حَداثَةِ طَهَ حُسَيْنْ وَقَدامَةِ الرّافِعِيّ

[٣١] ذكر الدكتور زكي نجيب محمود أن نهضتنا اللغوية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، التي تخللت نهضتنا الحضارية، أخذت في طريقين: "أما أحدهما فطريق سلكه فريق من الناهضين أرادوا باللغة أن تنافس العامية في وسيلة أدائها، وأما الطريق الآخر فهو الذي سلكه فريق ظن أن النهوض باللغة إنما يكون بإحياء القديم، وكان الله يحب المحسنين"[١]!

ولا ريب عندي في أنه وضع هذا التقسيم وفي ذهنه طه حسين من الفريق الأول الناهض، ومصطفى صادق الرافعي من الفريق الآخر القاعد؛ فهما قد ثارت بينهما في المدة المذكورة، مشكلة القديم والحديث، التي مثَّل فيها الرافعي القديم راغما، ومثَّل فيها طه حسين الحديث راضيا، بآية ما جمعه طه حسين في كتابه الذي ذكر فيه أنه "يريد أن تكون اللغة حية نامية، ومن ذكر الحياة والنمو، فقد ذكر التطور، ومن ذكر التطور وآمن به فهو من أنصار المذهب الجديد"[٢]، وأنه لا يكره أن يستعير "من اللغات الحديثة الأوروبية معاني وأساليب وألفاظا"[٣]، وأن أسلوب الرافعي على فقهه لدقائق العربية "لا يلائم العصر الذي نعيش فيه"[٤]؛ إذ يتمسك باللغة الموروثة دون زيادة أو نقصان، وهو ضرب من النفاق أن نعيش الحياة الحديثة ونكتب

---

[١] السابق: ٢٢٣.

[٢] حسين: ٣/ ٣٠.

[٣] السابق: ٣/ ١٣.

[٤] السابق: ٣/ ١٢.

اللغة القديمة[1]. وتمنى أن "لو كتب الكاتبون في هذا الموضوع، وأعلن كل منهم رأيه فيه؛ فقد تنتهي المناقشة بنا إلى الاتفاق على قاعدة يحسن أن نتفق عليها منذ الآن، فنتقي هذا الاضطراب الذي نشهده في النثر والشعر وأساليبهما، ونتقي شيئا آخر ثقيلا منكرا، هو سخط الأدباء والكتّاب إذا نقدهم ناقد وأخذهم كاتب بما لا يحبون"[2].

حُكْمُ سْتِتْكيفيتْش لِمَذْهَبِ طَهَ حُسَيْنْ عَلى مَذْهَبِ الرّافِعِيّ

[٣٢] لكأنما أراد ستتكيفيتش بعمله الذي أفضى إلى ما استنبطته عنه في الفقرة الثالثة، ولاسيما الفكرتان الأخيرتان- أن يجيب دعوة طه حسين ويحقق أمنيته، محفوزًا بما عرف عنه من أنه من القسم الثاني من أقسام العرب المتزلزلين بالفكر الغربي الحديث، الذي قبله كله وتمسك ببعض الفكر العربي[3]- وبما لم يُخْفه الرافعي من رفض الفكر الغربي الحديث[4]؛

---

[1] السابق: ٣/ ٢٩، ٣٥.

[2] السابق: ٣/ ١٣.

[3] محمود: "تجديد الفكر العربي": ٢٩٢.

[4] الرافعي "٢": ٢/ ٢٩٦؛ فقد سخر مرّ السخر في مقاله الحواري "اللسان المرقّع" مثلا، من "حضرة صاحب السعادة"، الذي خير منه قروي ساذج يكون لقبه "حضرة صاحب الجاموسة"، مستهلا بقوله: "وقال صاحب سر [م] باشا: جاء [حضرة صاحب السعادة] فلان لزيارة الباشا. وهو رجل مصري ولد في بعض القرى، ما نعلم أن الله -تعالى!- ميزه بجوهر غير الجوهر، ولا طبع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب، ولا زاد في دمه نقطة زهو، ولا وضعه موضع الوسط بين فنّين من الخليقة- غير أنه زار فرنسا، وطاف بإنجلترا، وساح في إيطاليا، وعاج على ألمانيا، ولوّن نفسه ألوانا، فهو مصري ملون؛ ومن ثم كان لا يرى في بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك، فما يظهر له دين قومه إلا مقابلا لشهواتٍ أحبها وغامر فيها، ولا لغة قومه إلا مقرونة بلغة أخرى ودّ لو كان من أهلها، ولا تاريخ قومه إلا مُغْمى عليه، كالميت بين تواريخ الأمم! هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعمين، مصريّ المال فقط -إذ كانت أسبابهم ومستغلاتهم في مصر- عربيٌّ

فَحَكَمَ معتسفًا دون موازنة، لمذهب طه حسين اللغوي التفكيري الغربي، بالنجاح والبقاء- وعلى مذهب الرافعي اللغوي التفكيري العربي، بالفشل والفناء!

مادَّةُ الْمُوازَنَةِ

[٣٣] لقد ذهبت في أعمال طه حسين والرافعي، ألتمس من نصوصها ما يؤهِّله التَّوارد للموازنة، فحصلتُ على نصين متشابهين رسالة ومقدارا، أوردُهُما فيما يأتي مشفوعين بجداول العناصر الدّالة، تمهيدا للنظر المراد.

الاسم لا غير-إذ كانت أسماؤهم من جناية أهليهم بالطبيعة- مسلمٌ ما مضى دون ما هو حاضر؛ إذ كان لا حيلة في أنسابهم التي انحدروا منها! هو كغيره من هؤلاء المترفين المنعمين المفتونين بالمدنية، لكل منهم جنسه المصري، ولفكره جنس آخر. قال: وكان حضرة صاحب السعادة يكلّم الباشا بالعربية التي تلعنها العربية، مرتفعا بها عن لغة الفصيح ارتفاعا منحطّا، نازلا بها عن لغة السوقة نزولا عاليا"!

نَصُّ طَهَ حُسَيْنْ[1]

"انْظُرْ (-يَا سَيِّدِي-)[2] إِلَى يَمِينٍ،/[1] نَخُذْ بِحَظِّكَ مِنَ الْحُزْنِ،/[3] وَانْظُرْ إِلَى شِمَالٍ،/[4] نَخُذْ بِحَظِّكَ مِنَ السُّرُورِ،/[5] فَلَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ إِذَا لَمْ تَكُنْ حُزْنًا وَسُرُورًا، وَلَذَّةً وَأَلَمًا، وَجِدًّا وَلَهْوًا./[6]

انْظُرْ عَنْ يَمِينٍ،/[7] وَانْظُرْ عَنْ شِمَالٍ،/[8] ثُمَّ انْظُرْ أَمَامَكَ إِلَى هَذَا الْبَلَدِ الْحَزِينِ التَّعِسِ، الَّذِي يَعْدُو عَلَى حُقُوقِهِ أَصْحَابُ الْجِدِّ (-وَيَلْهُو بِمَنَافِعِهِ أَصْحَابُ اللَّهْوِ-)[10] وَهُوَ يَحْتَمِلُ عُدْوَانَ أُولَئِكَ (-وَيَحْتَمِلُ لَهْوَ هَؤُلَاءِ-)[11] مَحْزُونًا حِينًا، مَسْرُورًا حِينًا آخَرَ، سَاخِرًا مِنْ أُولَئِكَ وَهَؤُلَاءِ دَائِمًا، لِأَنَّهُ قَدْ بَلَا مِنَ الدَّهْرِ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ، وَذَاقَ مِنَ الْأَيَّامِ حُلْوَهَا وَمُرَّهَا، وَوَثِقَ بِأَنَّ عَدْلَ اللهِ قَرِيبٌ، وَبِأَنَّ الْحَقَّ مُنْتَصِرٌ (-مَهْمَا يَتَّصِلْ سُلْطَانُ الْبَاطِلِ-)[12] وَبِأَنَّ صَرْحَ الْجَوْرِ مُنْدَكٌّ،/[9] مَهْمَا يُشَيَّدْ بِأَضْخَمِ الْأَحْجَارِ وَأَصْلَبِ الصُّخُورِ/[13]".

---

[1] حسين "بَيْنَ بَيْنَ": ١٤. وقد أعدت ترقيم النص كما ينبغي، وأثبت عليه علامات تقسيمه إلى جمله. وفيه "بلى" هكذا، والمشهور في رسم هذه الألف الواويّة الأصل "بلا" على ما آثرت. والرجلُ مُمْلٍ لا كاتب!

نَصّ الرَّافِعِيّ[1]

"وَيْحَكَ!/١ لِمَ تَبْتَئِسُ،/٢ أَيُّهَا الْفَقِيرُ؟/٣

الْغَنِيُّ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ حُظُوظَ النَّاسِ جَمِيعًا حَظًّا وَاحِدًا، لِيَخْتَصَّ نَفْسَهُ بِهَذَا الْحَظِّ،/٤ وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَخْتَصَّ بِحَظِّ الْغَنِيِّ؛/٥ فَمَاذَا تَرَكْتُمَا لِلّهِ يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ؟/٦

إِنَّ اللّهَ قَدِ ائْتَمَنَكَ عَلَى أَثْمَنِ الْفَضَائِلِ وَأَعَزِّهَا مِنَ الصَّبْرِ وَالْقَنَاعَةِ وَشَرَفِ الضَّمِيرِ، وَأَشْرَفَ بِكَ عَلَى مَصَارِعِ الْأَغْنِيَاءِ؛ فَرَأَيْتَ كَيْفَ يَخْفُقُ قَلْبُ أَحَدِهِمْ وَهُوَ يَحْسَبُهُ كُرَةَ الْأَرْضِ زُلْزِلَتْ زِلْزَالَهَا، وَكَيْفَ تَطْرِفُ عَيْنُهُ وَهُوَ يَتَوَهَّمُهَا اللُّجَّةَ الَّتِي تَبْتَلِعُ كُلَّ مَا فِي رَأْسِهِ مِنَ الْأَحْلَامِ، وَكَيْفَ يَمُوتُ وَهُوَ يَرَى كُلَّ مَا كَانَ فِي يَدِهِ كَالظِّلِّ عَلَى الْمَاءِ لَا يَذُوبُ مَاءً، وَلَا يَبْقَى ظِلًّا، وَيَرَى أَنَّهُ كَانَ يَشْتَرِي الْمَالَ الَّذِي لَا حَدَّ لَهُ بِالْعُمْرِ الْمَحْدُودِ، فَلَمَّا أَفْلَسَ مِنْ هَذَا خَسِرَ الِاثْنَيْنِ جَمِيعًا/٧".

[1] الرافعي "١": ٤٠. وقد أعدت ترقيم النص كما ينبغي، وأثبت عليه علامات تقسيمه إلى جمله كذلك.

الْجَدْوَلُ الْأَوَّلُ[1]

المسند إليه / المسند	ضمير خطاب	ضمير تكلم	نكرة	مضاف إلى معرف بأل	ضمير غيبة
فعل أمر	٧				
فعل مضارع		١		١	١
شبه جملة ظرفي زماني			١		
جملة (فعل مضارع ومضاف إلى معرف بأل)			١		
جملة (فعل مضارع وضمير غيبة)			١		

الْجَدْوَلُ الثَّاني[2]

المسند إليه / المسند	ضمير خطاب	ضمير تكلم	معرف بأل	علم
فعل ماض	٢			

---

[1] جدولت هنا نوعي المسند والمسند إليه في كل جملة من جمل نص طه حسين الثلاث عشرة، على حسب ورودها فيه. أما المسند فالفعل أو الخبر، وأما المسند إليه فالفاعل أو المبتدأ، وقد تعارف البلاغيون الذين يتمسّكون بهذين المصطلحين -ولاسيما متأخروهم- على البدء بالمسند إليه بما يقتضي أن يوضع في يمين الجدول -راجع السيوطي، وصقر "١": ٣٠- ولكنني آثرت هنا أن أضع في يمين الجدول المسند، فلن أقف عند أي من مؤسّسي الجملة (المسند والمسند إليه)، بل أتناولهما بها، فما هي إلا مركب لغوي من عنصرين مؤسسين بينهما علاقة إسناد، ربما ارتبطت بأحدهما أو كليهما عناصر أخرى مكمّلة أو ملوّنة. ثم المسند موطن الفائدة الطبيعي منها.

[2] جدولت هنا نوعي المسند والمسند إليه في كل جملة من جمل نص الرافعي السبع، على حسب ورودها فيه كذلك.

فعل مضارع	١	١		
جملة (فعل مضارع وضمير غيبة)			١	
جملة (فعل مضارع وضمير خطاب)	١			
جملة (فعل ماض وضمير غيبة)				١

الْجَدْوَلُ الثَّالِثُ[١]

الجملة	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	المجموع
عدد الكلم	٣	٣	٧	٤	٧	١٩	٣	٤	٧١	٧	٤	٤	٨	١٤٤
عدد العلاقات	٢	٢	٣	٢	٣	٤	٢	٢	١٦	٣	٢	٣	٥	٤٩
متوسط العلاقة	١,٥٠	١,٥٠	٢,٣٣	٢	٢,٣٣	٤,٧٥	١,٥٠	٢	٤,٤٣	٢,٣٣	٢	١,٣٣	١,٦٠	٢,٩٣

[١] جدولت هنا عدد كلم كل جملة من جمل نص طه حسين، وعدد علاقاتها، ثم استخرجت بقسمة الأول على الثاني، متوسط نصيب العلاقة من الكلم في الجملة المعينة وفي الجمل كلها. والكلمة المقصودة هنا عنصر لغوي من الجملة، يؤسسها مع قسيمه أو يكمّل أحد مؤسسيها أو كليهما، أو يلوّنها أي يؤدي معنى طارئا عليها أو على أي من عناصرها المؤسِّسة أو المكمِّلة. هو تعريف يراعي وظيفية الكلمة في الجملة كثيرا، فلا يعد (ها) التنبيهية، ولا (أل) الموصوليّة، ولا (ك) الخطابية وما أشبهها- كلمًا، بل أجزاء كلم، على حين يعد من الكلم (يا) الندائية، و(قد) التحقيقية، و(ت) الفاعلية وما أشبهها. أما العلاقة المقصودة هنا فرباط الكلم التأسيسي (الإسناد) أو التكميليّ (التقييد) فقط؛ إذ لما كانت الملوِّنات تضاف إلى ما لوّنته، لم نعتد برباطهما التلويني.

الْجَدْوَلُ الرَّابِعُ[1]

الجملة	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	المجموع
عدد الكلم	٢	٣	٢	١٦	٨	١٦	١٠٦	١٥٣
عدد العلاقات	٢	٢	٢	٦	٦	٧	١٧	٤٢
متوسط العلاقة	١	١,٥٠	١	٢,٦٦	١,٣٣	٢,٢٨	٦,٢٤	٣,٦٤

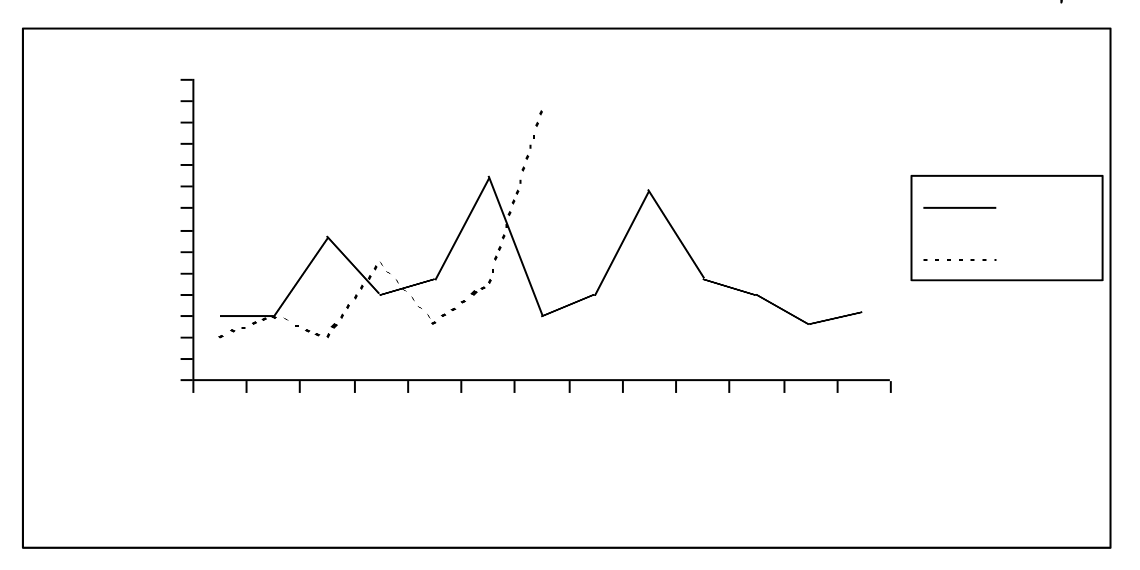
الْجَدْوَلُ الْخَامِسُ[2]

ع	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	ج
كط	٢	٢	١	٣	١	٤	٣	٦	٧	٤	٨	٧	١١	٧	٣	-		٦٩
كر	٢	٤	٥	٧	٨	٦	١١	٨	١١	١٠	٤	٦	٧	٧	٥	٢	١	١٠٤

[1] جدولت هنا من كل جملة من جمل نص الرافعي، على مثال الجدول الثالث.

[2] ع= العلاقة، كط= كلم طه، كر= كلم الرافعي، ج= المجموع. وقد جدولت هنا من الجملتين التاسعة بنص طه حسين والسابعة بنص الرافعي -وهما أبرز جملهما جميعا كما يتضح من الجدولين السابقين- كلمَ كل علاقة. وقد نقصت كلم كلٍّ من النصين، كلمتين كانتا مفتتح التعلُّق، وخلت علاقة جملة طه حسين، السادسة عشرة، من الكلم، لاستتارها.

رَسْمُ الْبَيَانِ[1]



الْجَدْوَلُ السّادِسُ[2]

الجملة اللاحقة / الجملة السابقة	إنشائية	علاقتهما	خبرية	علاقتهما
إنشائية	٨	٢ الاعتراض ٥ العطف ١ الاستئناف	٣	٢ الاعتراض ١ الاستئناف
خبرية	١	الاستئناف		

---

[1] بنيت هنا منحنى متوسط كلم العلاقة (المحور (ص)) في كل جملة (المحور (س)) من جمل نص طه حسين بالخط المتصل، ومن جمل نص الرافعي بالخط المتقطع. والمادة مستفادة من الجدولين الثالث والرابع.

[2] جدولت هنا على حسب الورود، علاقات جمل نص طه حسين الاثنتى عشرة -إذ الأخيرةُ غير متعلقة بشيء بعدها- مراعيا من أحوال الجمل خبريتها وإنشائيتها -إذ هي الحال المعتبرة هنا، راجع ابن هشام: ٢/ ١٠٠- ١٠١، وحسن: ٣/ ٦٥٢- ٦٥٤- وقاصدا بعلاقة العطف ضم اللاحقة بأداة خاصة إلى السابقة، وبعلاقة الاستئناف جوار اللاحقة للسابقة، وبعلاقة الاعتراض اشتمال السابقة على اللاحقة بين أجزائها.

الْجَدْوَلُ السّابِعُ[1]

الجملة اللاحقة / الجملة السابقة	إنشائية	علاقتهما	خبرية	علاقتهما
إنشائية	٢	الاستئناف	٢	الاستئناف
خبرية	١	الاستئناف	١	العطف

الرِّسالَةُ وَالْأُسْلوبُ

[٣٤] إنَّ من التَّوارُدِ المُهْمَل صدور طبعتي الكّابين المعتمدتين هنا عفوا لا قصدا، عن مكان واحد (بيروت)، في زمان واحد تقريبا (٢، ١٩٨٣م)، غير أنه لا يخلو من الدلالة على طلب القارئ العربي لهما جميعا معا!

لقد كانت رسالة نص طه حسين تَصْبير البلد، ورسالة نص الرافعي تصبير الفقير. أما صبر البلد المرجو في الأول، فعلى ظلم حكامه الجادين واللاهين جميعا؛ فعما قريب ينتصف منهم، وأما صبر الفقير المرجو في الآخر، فعلى قيد الفقر؛ إذ هو مقام من محاسن الفضائل فيه وقاؤه من نقائص الأغنياء المهلكة.

لقد كان طه حسين ناصحا واقعيّا ثائرا، والرافعي ناصحا مثاليّا هادئا. أما ناصحيّتهما فواضحة من رسالتي نصيهما المذكورتين آنفا؛ فثم أزمة يطلع عليها كل منهما، ويلتمس للمأزوم فيها سبيل النجاة منها، ولئن تخير الأول من البلد فردا، لقد أراد الآخر بالفرد جنسا. وأما واقعية طه حسين دون الرافعي، فمن ملاحظته البلد حوله مكانا وناسا، والتماسه بما تؤدّيه الملاحظة،

[1] جدولت هنا على حسب الورود، علاقات جمل نص الرافعي الست -إذ الأخيرةُ غير متعلقة بشيء بعدها- على مثال الجدول السادس.

دليل ما يريد[1]. وأما مثالية الرافعي دون طه حسين، فمن تأمله سر الخُلُق في نفس الجنس، والتماسه بما يؤديه تخيّله، دليل ما يريد[2]. ولقد يكون من جَرائر مثاليته تعلُّقه بالصورة المركبة المتداخلة الأجزاء، التي تتجلى في جملة نصه السابعة الأخيرة- على حين كان من جرائر واقعية طه حسين تعلقه بالصورة المركبة المتجاورة الأجزاء، التي تتجلى في جملة نصه التاسعة. فإذا جاز أن نذكر من أسرار هذه الصورة، عمى طه حسين الذي كان يحمله على المتابعة والمعاقبة، وكأن الأحداث تَتخاطف سمعَه؛ فهو في ملأٍ من أذنه[3]- جاز أن نذكر من أسرار تلك الصورة، صمم الرافعي الذي كان يحمله على التوليد والتشقيق، وكأن المشاهد تتخاطف بصره؛ فهو في ملأٍ من عينه[4].

اعْتِذارٌ عَنِ اعْتِمادِ الْإِحْصاءِ

[٣٥] أغبط علماءنا القدماء على ما رزقوا من اليقين (أن أيقنوا بجدوى النظر في الكلام العربي)، خائفًا شكي، والإخلاص (أن أخلصوا للحق نظرهم في الكلام العربي) خائفًا ريائي، والانقطاع (أن انقطعوا خلال نظرهم في الكلام العربي، مما سواه) خائفًا شغلي، والدُّؤوب (أن دأبوا على النظر في الكلام العربي حتى تظهر الجدوى) خائفًا فتوري، وهي أحوال مختلفة مؤتلفة، لو بقيت لأمثالي من الباحثين، لأغنتنا عن التمهيد لنظرنا في الكلام

---

[1] وهبه: ٤٦٧؛ ففيه بيان للواقعية يؤيد ما نسبت إليه طه حسين في نصه المختار، ولا عليّ ألا يكون كذلك في غيره.

[2] السابق: ٢٣٤؛ ففيه بيان للمثالية يؤيد ما نسبت إليه الرافعي في نصه المختار، ولا عليّ ألا يكون كذلك في غيره.

[3] هيكل: ٣٨٠.

[4] السابق: ٣٨٧.

العربي دائما طمأنة لأنفسنا ولغيرنا، بمثل تلك المقدمة المجدولة من إحصاء العناصر الدالة السابقة في الفقرة الثالثة والثلاثين؛ إذ ليس كمكاشفة النص استبطانا واستيعابا.

نَقْدُ جِهَتَيِ الْخِطابِ الْمُسْتَوْلي عَلَى النَّصَّيْنِ

[٣٦] إذا تأملنا "يَا سَيِّدِي" ثانية جمل طه حسين، و"أَيُّهَا الْفَقِيرُ" ثالثة جمل الرافعي، معا -وكلتاهما نداء- اطلعنا على فرق ما بين جهتي الخطاب المستولي على نص كل منهما، الذي بينه الجدولان الأول والثاني.

"يَا سَيِّدِي" من لوازم الحديث اليومي العادي، يتبادلها المتلاقون في البيوت والشوارع والأندية، كلٌّ يحمّلُها ما شاء من مشاعره رضا أو سخطا وإقرارا أو إنكارا.

و"أَيُّهَا الْفَقِيرُ" ليست من ذلك الباب، بل تكاد لا يقولها إلا شخص بعينه لشخص بعينه، ويكاد لا يحمّلُها إلا الأسف.

كأنما اشتاق طه حسين إلى خلاط من يسمعهم ولا يراهم، ولا يخلو "انْظُرْ" قبل تلك الجملة وبعدها، من دلالة- على حين أقبل الرافعي على نفسه دون غيره ممن لا يسمعهم ولا ينتبه لهم، حتى ليبدو هو الفقير المذكور.

جهة الخطاب المستولي على نص طه حسين إذن، حقيقية، لا يَحْتَجُّ لها أنه كان يخاطب عامله الكاتب عنه[1]، بل ما في نصه من علامات شوقه إلى مجتمع الناس أن يحضروا إليه لما امتنع عليه أن يحضر إليهم: (انظر، يمين، خذ، انظر، شمال، أمامك، هذا...). وجهة الخطاب المستولي على نص الرافعي إذن، مجازية، من باب التجريد المحض[2]، لا لأنه ليس ثَمَّ مدعوٌّ

---

[1] السابق: ٣٨٠.

[2] طبانة: ١٢٥؛ ففيه أن التجريد المحض أن يكون ظاهر خطاب المتكلم، لغيره، وهو لنفسه.

للإقبال[1]، بل لما في نصه من علامات شغله بنفسه يصفها من داخل، كي يصدق الوصف من قبل أن يصدقه غيره: (تبتئس، تريد، تختص، تركتما، ائتمنك، أشرف بك، رأيت كيف وكيف وكيف...).

بَيْنَ فِعْلِ الْأَمْرِ الطَّحْسَنِيّ وَالْفِعْلِ الْمَاضِي الرَّافِعِيّ

[٣٧] بنظرة أخرى إلى الجدولين الأول والثاني، يتبين اختصاص نص طه حسين بفعل الأمر دون نص الرافعي، واختصاص نص الرافعي بالفعل الماضي دون نص طه حسين، وذلك أثر طبيعي؛ فالماضي مختبرٌ حكيمٌ لا يكتم الحق، إذا أنصف خُلُقًا لم يَقَعْ للإمكان أبدعُ منه، يشتغل به المثاليون الهادئون المعتزلون الراضون، ومن هؤلاء جميعا الرافعيُّ في نصه المختار - والحاضر وما تعلق به من المستقبل جَلَبَةٌ وصَخَبٌ، لا ينتصف فيه إلا الجسور، يشتغل به الواقعيون الثائرون المتحرّقون الساخطون، ومن هؤلاء جميعا طه حسين في نصه المختار.

اخْتِلافُ عَلاقاتِ الْكَلِمِ وَالْجُمَلِ بَيْنَ النَّصَّيْنِ

[٣٨] كلم نص طه حسين و كلم نص الرافعي -وإن زادت هذه قليلا- اللواتي بينها الجدولان الثالث والرابع، متقاربات عددا. وعلى رغم هذا اجتمعت كلم نص الرافعي في سبع علاقات تامات (جمل)، بمتوسط (٢١,٨٥) كلمة في الجملة الواحدة، على حين اجتمعت كلم نص طه حسين في ثلاث عشرة، بمتوسط (١١,٠٧) كلمة في الجملة الواحدة. واجتمعت بالمتوسط في العلاقة الناقصة الواحدة داخل الجملة (التأسيس أو التكميل)، (٢,٩٣) من كلم جملة طه حسين، و(٣,٦٤) من كلم جملة الرافعي. فإذا قسمنا متوسط نصيب العلاقة التامة

[1] حسن: ٤/ ١٠.

على متوسط نصيب العلاقة الناقصة، حصلنا في نص طه حسين على (٣،٧٧)، وفي نص الرافعي على (٦)، وهو بيِّنٌ في أن علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة، التي هي عمل النحو الذي هو نظام أطوار اللغة والتفكير- أكثر تعقُّدًا في نص الرافعين منها في نص طه حسين، وكأنه ما توجّس منه ستتكيفتيش في الفكرة الثامنة الأخيرة التي استنبطتها عنه في الفقرة الثالثة!

إذا تأملنا رسم البيان السابق في الفقرة الثالثة والثلاثين، تبيّنا كيف تتنامى درجات تعقيد علاقات الكلم (المعاني) المجتمعة في نص الرافعي، صاعدة إلى غاية الرسالة المرادة- على حين تضطرب قرينتها في نص طه حسين صعودا وهبوطا، حتى إنها لتعود إلى قريب جدًّا مما كانت عليه.

وإذا تأملنا علاقات الجمل التي بينها الجدولان السادس والسابع، تبينا غلبة العطف على نص طه حسين، وغلبة الاستئناف على نص الرافعي، واختصاص نص طه حسين بالاعتراض دون نص الرافعي.

ما من إشكال لديّ في اختلاف عمل النحو بين طه حسين والرافعي، في شيء مما في هذه الفقرة إلا اختصاص نص طه حسين بالاعتراض علاقة جمل، دون نص الرافعي؛ فظاهره نقيض سواه من الظواهر السابقة!

أنْ يختلف عمل النحو بين مستعمله الهادئ ومستعمله الثائر، فيحزم أولهما في حُزْمة العلاقة من الكلم أكثر مما يحزم الآخر، ويتأنّق دون الآخر بتدريج ذلك، ويخالف بين جملِهِ خبرًا وإنشاءً فيستأنفها على حين يؤالف الآخرُ فيعطف- هذا كله مفهوم معروف غير منكر، جار على سنة اختلاف الأناة -وهي طبيعة الهادئ- والعجلة، وهي طبيعة الثائر[1]. أما أن

[1] فندريس: ١٩٥، وصقر "١": ٢٠٢، ٢٠٣.

يختص نص الثائر المتعجل بالاعتراض علاقة جمل، وهي ينبغي أن تكون من سمات نص الهادئ المتأني- فمشكل محتاج إلى تأمل.

كل ما بين قوسين في نص طه حسين، اعتراض؛ فيكون ثَمَّ أربعة اعتراضات. أما أولها فجملة "يَا سَيِّدِي" الآنفة الذكر في الفقرة السادسة والثلاثين، التي يخرجها كونها من لوازم الحديث اليومي العادي، من الإشكال. وأما الاعتراضان الثاني والثالث، فمن آثار تكميل المتعجل كلامه؛ إذ تخطر له مكمّلات فيضيفها فتتعلق بأجزاء متقدمة من كلامه فتفضي إلى اعتراض المتأخر، هكذا: كانت جملة "يلهو بمنافعه أصحاب اللهو"، معطوفة على "يعدو على حقوقه أصحاب الجد"، وجملة "يحتمل لهو هؤلاء"، معطوفة على "يحتمل عدوان أولئك"، فلما خطر لهذا الثائر المتعجل تكميل ما تقدم بتقييد مطلقه، فعلق بـ"يعدو" هذه الحال "هو يحتمل عدوان أولئك..."، وعلق بـ"يحتمل" هذه الأحوال "محزونا..."- صارت الجملتان العاشرة والحادية عشرة معترضتين لأجزاء الجملة التاسعة. وأما الاعتراض الرابع الأخير فمن آثار احتراس المتعجل من أن يساء فهمه؛ إذ هو لم يبْنِه من أوله بحديث يمنع سوء الفهم. لقد كان ماضيا إلى عطف "بأن صرح الجور مندك"، على "بأن الحق منتصر"، فخطر له ما في بقاء الباطل من تثبيط وتيئيس، فقال: "مهما يتصل سلطان الباطل"، ثم ارتاح إلى ما فعل فكرره أخيرا، فصارت الجملة الثانية عشرة معترضة لأجزاء الجملة التاسعة، والجملة الثالثة عشرة مستأنفة بعد الجملة التاسعة.

في هذا من إيضاح الإشكال بلاغ، وفيه بيان طرفٍ من المتابعة والمعاقبة اللتين سبق في الفقرة الرابعة والثلاثين ذكر اتصاف نص طه حسين بهما، على حين اتصف نص الرافعي بالتوليد والتشقيق. ولكنه بيان غير كاف؛ إذ انحصر في علاقة ناقصة واقتصر على أحد الموازَنين.

تَحْلِيلُ عَلاقاتِ أَبْرَزِ جُمَلِ النَّصَّيْنِ:

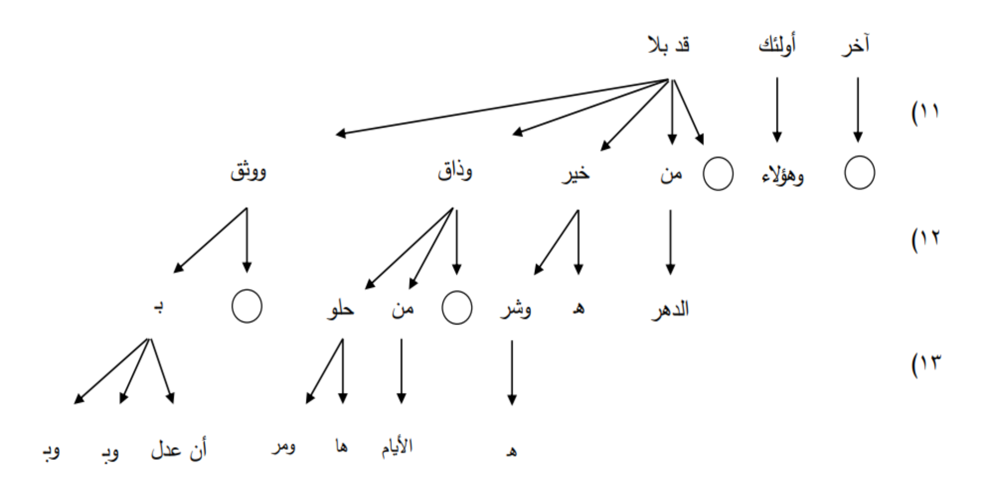
[٣٩] في الجملة التاسعة من نص طه حسين كما سبق في الفقرة الرابعة والثلاثين، تتجلى المتابعة والمعاقبة المفضيتان إلى الصورة المركبة المتجاورة الأجزاء، وفي الجملة السابعة من نص الرافعي يتجلى التوليد والتشقيق المفضيان إلى الصورة المركبة المتداخلة الأجزاء. وفي الجدول الخامس حللت كلًّا منهما إلى كلمها وعلاقاتها؛ فاتضح لي أن إحدى عشرة علاقة من سبع عشرة (مجموع علاقات جملة الرافعي) أي ٦٤٫٧٠٪، زادت حُزَمُ كَلِمِها على قريناتها، وأن ثلاث علاقات من ست عشرة (مجموع علاقات جملة طه حسين) أي ١٨٫٧٥٪ فقط، زادت حُزَمُ كَلِمِها على قريناتها، وهو بيِّنٌ في أن ارتفاع درجة تعقُّد علاقات الجملة، ينهض عند الرافعي من كل جهة من جهاتها قصدًا، وينهض عند طه حسين من بعض جهاتها عفوًا.

ولا ريب في أن موازنة نهضة الارتفاع في جملة طه حسين أي العلاقات (١١، ١٢، ١٣)، بمثال من نهضات الارتفاع في جملة الرافعي كما في العلاقات (٧، ٨، ٩) - مما يقتضيه البيان[١]:

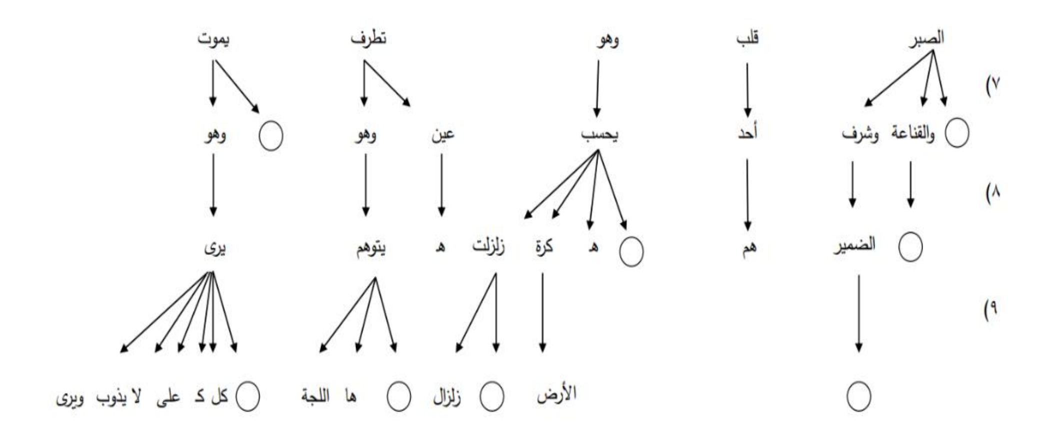
---

[١] يقوم التحليل الذي أجمله الجدولان الثالث والرابع، وفصله الجدول الخامس، ويبينه تشجير المثالين التاليين- على تفريق الكلم (المعاني) المجتمعة، وضبط علاقة السابقة منها باللاحقة بسهم يخرج من الأولى إلى الآخرة -وسواء أكانت أيٌّ منهما مذكورةً محسوبةً، أم غير مذكورة ولا محسوبة حالةً محلها الدائرة المفرغة- على نهج كأنه إعراب بالأسهم، ثم على عد جميع ما في درجة واحدة من الكلمات -مهما اختلفت مصادر علاقاتها- علاقة واحدة، جاريا على النظر النحوي المشهور المتداول من قديم إلى حديث. ولقد كان ضبط التشجير نتيجة تناظري فيه أنا وأخي العزيز الدكتور محمد نادر عبد الحكيم مدرس علم اللغة الحديث بقسم اللغة العربية من كلية الألسن بالقاهرة وكلية الآداب بمسقط.

مثال طه حسين



مثال من الرافعي



مصادر العلاقة الأولى من هذين المثالين، ثلاثة في الأول وخمسة في الآخر، ومصادر العلاقة الثانية أربعة في الأول وسبعة في الآخر، ومصادر العلاقة الثالثة أربعة في الأول وخمسة في الآخر. وليس بعد هذا التدسُّس إلى مُضْمَن طوايا علاقة الكلمات (المعاني) المجتمعة التي هي عمل النحو الذي هو نظام أطوار اللغة والتفكير، من زيادة بيان لمستزيد.

إن الأناة التي مكنت الرافعي من أن يتنقل بين جهات جملته المختلفة يشقق لها العلاقات الكثيرة المختلفة المتراكبة طبقا عن طبق التي يحزم بها الكلم الكثيرة المختلفة المتدابرة يمينا وشمالا- لمفتقرة في استيعابها إلى أناة مثلها بل أطول منها؛ إذ قد عمل الرافعي على يقين مما يَؤمّ، على حين يعمل المتلقي عنه على شك مما رأى الرافعي أَمَّه.

أما العجلة التي أفضت بطه حسين إلى أن يكتفي من ذلك بأقله، فمكتفية في استيعابها بعجلة مثلها بل أقل منها؛ إذ قد عمل طه حسين مأزوما بمنازعة الخواطر، على حين يعمل المتلقي عنه وادعًا غير مأزوم.

طَوْرُ الثَّوْرَةِ وَالْعَجَلَةِ، وَطَوْرُ الْهَدْأَةِ وَالْأَنَاةِ

[٤٠] لقد جرى في نصَّيْ طه حسين والرافعي على رغم اختلافهما ثورة وهدأة وعجلة وأناة، عمل النحو العربي نفسه، فإذا ثبت أن أحدهما عربي اللغة والتفكير لم يخلع قط من عروبتهما بل هو فيهما على النهج القديم كما سبق في الفقرتين الحادية والثلاثين والثانية والثلاثين، ثبت أن الآخر مثله، وإذا ثبت أن أحدهما ناجح باق، ثبت أن الآخر مثله، وأن ليس ثَمّ -إن تمسكنا بالاختلاف- غير طورٍ من اللغة والتفكير بعد طورٍ أو معه، يحفظ عروبتهما نظامهما الباقي (النحو العربي). قال طه حسين: "يغلو قوم منا في إيثار القديم فيضيقون وفي الحياة سعة. ويغلو قوم منا في إيثار الجديد فيرتفعون عما ألف الناس. ومع ذلك فالقصد أساس الخير في كل شيء. لسنا أبناء القرن الخامس للهجرة، ولسنا أبناء القرن السادس عشر للهجرة، وإنما

نحن أبناء القرن الرابع عشر للهجرة. بيننا وبين الماضي أسباب متصلة، وبيننا وبين المستقبل أسباب ستتصل"[1]، وما هذه الأسباب إلا النظام (النحو العربي) الذي ينتظم ماضي اللغة والتفكير العربيين وحاضرهما ومستقبلهما جميعا معا في عقد الفكر العربي.

---

[1] حسين: ٣/ ١٢.

خَاتِمَةُ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ

يظل المرء في شأنه سادرا حتى يطّلع من غيره على ما ينبهه إلى ما هو عليه مما تخفيه عنه العادة. وربما استفز هو غيره إلى نقده، أو بدأه غيره. وسواء لديه أَصَدَقَه غيره أم كَذَبه؛ فسينتبه إلى ما لم يكن لينتبه إليه وحده.

لقد ركن العربي إلى حضارته القوية، وأخلد إلى غطّة لم ينتزعه منها غير صخب عدوان حضارة غيره، ففزع إلى ماديات حضارته فوجدها عليلة كليلة، وإلى معنوياتها فوجد عدوه قد بث ألسنته تُنفّره منها أو تصغرها عنده بعد أن كان يظنها لا يجترئ عليها أحد: أما عقيدته التي ساح في أرجاء الأرض يدعو إليها، لا يبتغي إلا أن يهتدي به غيره فيفوز عند ربه فوزا عظيما- فصارت مُنهزَمه، وانبغى له أن يستبدل بها ما لدى غيره من عقائد الانتصار. وأما لغته التي يراها فيرى عقيدته والعلوم والمعارف والخبرات والأقوال والأفعال والإقرارات التي تعلقت بها منذ اعتقدها وإلى وقته الذي هو فيه، فصارت شيخة فانية، مُتْحَفا مُغْلقا، وانبغى له أن يستبدل بها ما لدى غيره من لغات الفتوّة!

إنه إذا كان قديما يُجِلّ لغته حتى ليرى من لم يتكلمها أعجم بمنزلة العجماوات، ويستغرب بلاده صارخا "لعن الله بلادا ليس فيها عرب"، رائيا نفسه فيها "غريب الوجه واليد واللسان"- فقد اطلع حديثا من غيره على أنه مثله، يرى لغته كما يرى هو لغته، حتى إنه ليعدّ غيرها نباح كلاب، ويستحلّ الكذب بها[١]! وما أطرف دلالة أنه "عندما يكون الرجل الإنجليزي غير مفهوم فإنه يقول لمحدثه: وهل أنا أتكلم العربية. وعندما يكون العربي غير مفهوم فإنه يقول

---

[١] علي "١": ٣٤٧.

لمحدثه: وهل أنا أتكلم الصينية. وعندما يكون الصيني غير مفهوم يتساءل إن كان يتحدث الإنجليزية"[1]- على تمسك كلٍّ بلغته!

من هذا الباب نفسه أي باب اللغة (أصل الاتصال البشري الباقي المستمر في وسائله المختلفة)، وعلى منهج العولمة (ظاهرة الاتصال الحضاري المستمرة في محاولاته المختلفة)، تطوع حديثا بعض المستشرقين الذين طوفوا في بلادنا العربية من شرقيها إلى غربيها، وتأملوا من كثب، وعرفوا دون غيرهم كثيرا، ودرسوا تطور اللغة العربية ألفاظا وتعابير، وتطور التفكير اللغوي عند العرب في العصر الحديث، وجهاد رجال النهضة أدباء وعلماء لتحديث اللغة العربية وجعلها وافية بمقتضى الحياة- بملاحظة اقتراب اللغة العربية من عائلة لغات الثقافة الغربية، ثم ببيان ما ينبغي للغة العربية -والمراد العرب- أن تصطنعه لتصبح عضوا عاملا مؤثرا في تلك العائلة.

لقد خلط فيما انتهى إليه أفكارا ضعيفة منكَرة وأخرى قوية معجِبة؛ فحَفَزَني إلى النظر فيها وفي لغتنا العربية التي نصَّ منها على نماذج معينة؛ فانتهيت إلى ما يأتي:

- فكرة "اللغةُ أداةٌ" على اختلاف ما هي أداته، خطأٌ، مهما راجت على ألسن الكبار والصغار!
- بين الفَكْر الذي هو إعمال الخاطر في الشيء، والتفكير الذي هو مبالغة في الفَكْر استُغني بها عنه لكثرة هذا الحدث وتعلق حياة الإنسان به، والفِكْر الذي هو ثمرة الفَكْر والتفكير- فروق واضحة.
- علاقة اللغة بالفِكْر هَمُّ الفلاسفة اللازم.
- علاقة اللغة بالتفكير من هموم النفسيين اللغويين (اللغويين النفسيين).

---

[1] محمد: ١٣.

- علاقة اللغة بالتفكير أساس عمل التقنيين (علماء هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي).
- وعي علاقة اللغة بالتفكير، أصيل في ثقافتنا العربية.
- دلالة بعض الأفكار الاستشراقية على أن العرب الآن يفكرون بغير اللغة، أو لا يفكرون إذ لا لغة لهم- واهية نظرا وعملا.
- لا وجه لدلالة انقسام اللغة العربية إلى نمطين: مبتذل مستهلك، وممتنع مصون- على أن العرب الآن مضطربون لغة وتفكيرا.
- فيما قدم الدكتور علي عبد الواحد وافي من بحثٍ للتطور اللغوي العام ولتطور اللغة العربية قديما وحديثا، بيان شاف كاف في رد وصْمها بالجمود، وفقه دقيق لمنزلتها حديثا منها قديمًا، ومنزلتها قديما منها حديثا.
- كانت للإسلام والقرآن قديمًا، ثُم لعلوم الأوائل وسيطًا، ثُم للفكر الغربي حديثًا- آثارٌ لغوية تفكيرية، بينة الدلالة على الحياة لا الجمود.
- للاستفادة من صحيح الفكر الحديث، مراحل أربع: الاتباع الأعمى، ثم الاتباع البصير، ثم الامتلاك، ثم الابتداع.
- اطّراح الفكر القديم كاطراح الفكر الحديث، خسارةٌ فادحة.
- علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة، أهم من الكلم (المعاني) المنفردات أنفسها.
- علاقة كلم الجملة (المعاني) المجتمعة، أهم من الكلم (المعاني) المنفردات أنفسها، وبالقياس تكون علاقة جمل الفقرة المجتمعة أهم من الجمل المنفردات، وعلاقة فقر النص المجتمعة أهم من الفقر المنفردات، وعلاقة نصوص الكتاب المجتمعة أهم من النصوص المنفردات؛ فإن المتأمل يطيل النظر حتى تنكشف له رسالة الكتاب المستولية على نصوصه؛ فتنكشف بانكشافها قضايا النصوص، ثم أفكار الفقر، ثم فُكَيْرَاتُ الجمل، فتكون لمعاني الكلم عندئذ قيمة.

- علاقة الكلم (المعاني) المجتمعة -وكذلك علاقة الجمل والفقر والنصوص- عمل النحو.
- للنحو الفلسفي وجهٌ ظاهر الجدوى على كون التعليق (إعمالِ النحو) عملا لغويا تفكيريا، ووجهٌ غامض الدلالة على مظهر عجيب من مظاهر العولمة.
- في دعوى قدرة التعابير الدخيلة على تفسير الحضارات، شبهةُ تَعَمَّد إثبات الضعف.
- النحو وحده هو نظام أطوار اللغة والتفكير العربيين.
- في تمسك دعاة التطوير بنظام أطوار اللغة والتفكير العربيين، وعي واضح لوظيفته الخالدة السابقة.
- نسبة طه حسين إلى الحديث الغربي والرافعي إلى القديم العربي، تمهيد استشراقي للحكم لمذهب الأول اللغوي التفكيري بالنجاح والبقاء، وعلى مذهب الآخر اللغوي التفكيري بالفشل والفناء.
- مذهب طه حسين ومذهب الرافعي طوران من اللغة والتفكير عربيان، أولهما طور الثورة والعجلة والآخر طور الهدأة والأناة، نظامهما جميعا معا النحو العربي.
- إنه إذا اقتضت مقالاتُ الحضارةِ العادِيَةِ، العربيَّ إحدى خطتي خسف أحلاهما مرٌّ: أن يعتقدها وينتمي إليها، أو أن يموت بحضارته ويحّيا من الحياة والكون- فحسبها أن نبهته لينظر في نفسه وأمته وحضارته، حتى إنه إذا ذكر ذاكر مصطلح "عَوْلَمة" وسكت، تراءتْ بحِمّى الانتباه، طوائفُ من المواد العلمية والإعلامية.

لقد تبينتْ لي فيما تطوع به بعض المستشرقين من بيان واقع اللغة العربية وتحديد مستقبلها، ملامحُ من الأخطاء المتعمدة والدعاوى العريضة، لا تقبلها أدبيّاتُ الاتصال التي

من بَديهيّاتها التفريقُ بين اتصال أهل الأمة الواحدة الذي يحفظ لهم خُصوصيَّتهم، واتصال أهل الأمم المتعددة الذي يتيح لهم تَنافُعَهم[1].

[1] دعا أستاذنا محمود محمد شاكر، العقاد -رحمهما الله!- أستاذه، فأنكر العقاد ذلك وكأنه استعظمه، فذكر أستاذنا أنه تعلم منه طرفاً مما يقال عن الإسلام. وللعقاد كتاب بهذا الاسم "ما يقال عن الإسلام" مهم، غير أن المقصود -لا ريب- أكبر. ولقد اجتهدت أن أستوعب عن أستاذنا سماعا وقراءة، طرفا مما علمه من ذلك وما نبه عليه، ثم تيسر لي سنة ١٩٩٩م، تدريس مقرر الاستشراق بجامعة السلطان قابوس بمسقط، فتأملت مالا يتأمله إلا من درّس أو ألّف، ولاسيما أنني حصرتُ المقرر في اللغة العربية.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

بَيْنَ الْأَعْشَى وَجَرِيرٍ: مُوَازَنَةٌ نَصِّيَّةٌ نَحْوِيَّةٌ

مُقَدِّمَةٌ

شَرْحُ الْكَلامِ الْعَرَبِيِّ

[١] تبدو لي كتب شرح الكلام العربي أنفع لِلنَّحْوِيِّ من كتب مسائله؛ فربما لم يبتهج بكتاب مثلما يبتهج بكتاب لغوي في شرح نص من الكلام العربي المبين قرآنه وشعره ونثره، ولم ينقطع لكتاب مثلما ينقطع له، ولم يستوعب من مسائل علم النحو أنفسها مثلما يستوعب ما يرد في خلاله.

ثم تبدو لي كتب المجالس وأشباهها من كتب الأمالي، من مثل: "مجالس ثعلب"، و"أمالي ابن الشجري"، وغيرها التي أنتجتها مجالس أصحابها لطلاب العلم ينظرون لهم كلما لقوهم، في نصوص قصيرة خاصة أو مشكلة، مُحَضَّرة أو مُقْتَرَحة، ولا يتركونها حتى يشرحوا خُصوصيَّتها أو يزيلوا إشكالها، مستطردين إلى ما لا يقع بكتب مسائل علم النحو من الأشباه والنظائر والأضداد والأمثلة والشواهد - أَحْظى بأول إقبال ذلك النَّحْوِيِّ، وأَدْعى إلى تأمله، وأَرْوَحَ لقلبه؛ فربما لا يكاد يمل تأمل نمط من المسائل حتى ينشط لتأمل غيره.

ثم تبدو لي كتب شرح الأمثال العربية القديمة، من مثل: "الأمثال" للقاسم ابن سلام، و"مجمع الأمثال" للميداني، وغيرها التي كانت على طريقة موادها نصوصا من الكلام العربي المبين قصيرة خاصة أو مشكلة- أَعْلَقَ لدى ذلك النَّحْوِيِّ بكتب الأمالي؛ فربما بحث في تراكيبها المطردة والشاذة عن مسائلها النحوية، ووقف في الكتاب الواحد من الأمثال على أنماط مختلفة، ونظر فيما بينها من جوامع وفوارق؛ فاطلع على طرف من موازنة أنماط الكلام المتزامنة.

ثم تبدو لي كتب شرح النصوص الطويلة (القصائد)، من مثل: "شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات" للأنباري، و"الغيث المسجم" للصفدي، وغيرها التي نازعت فيها عقولُ الشراح عقولَ أصحابها سياسةَ الكلام العربي- أَعْلَقَ لدى ذلك النَّحْوِيِّ بكتب شرح النصوص القصيرة (الأمثال)؛ فربما عكف منها على مسائل التراكيب الفنية الطريفة والتحريرات العلمية اللطيفة، حتى انتبه إلى فروق ما بين النصوص المتزامنة والمتعاقبة بعضها وبعض من جهة، وفروق ما بين الشروح المتزامنة والمتعاقبة بعضها وبعض من جهة أخرى، ووقف على أنماطها المختلفة؛ فاطلع على طرف آخر من موازنة أنماط الكلام المتزامنة والمتعاقبة.

مَقالَةُ أَبي عَمْرِو بْنِ الْعَلاءِ

[٢] وربما انتبه ذلك النَّحْوِيُّ من مقالات العلماء في شعر الطبقة الأولى من فحول الجاهليين (امرئ القيس، والنابغة، وزهير، والأعشى)، إلى مقالة أبي عمرو بن العلاء هذه النفيسة:

"نَظيرُهُ (الأعشى) في الْإِسْلامِ جرير،
وَنَظيرُ النّابِغَةِ الْأَخْطَلُ،
وَنَظيرُ زُهَيْرٍ الْفَرَزْدَقُ"[١]-

كما انتبهتُ، وأحسَّ لها قيمة ليست لسائر مقالات العلماء كما أحسستُ.

ولكنني على رغم عجزي أولا عن فهم تشبيه الأخطل بالنابغة إلا في النصرانية، وعجبي آخرا من تشبيه الفرزدقِ المُتَعَهِّرِ بزهيرٍ المُتَعَفِّفِ- لم أترك لخواطري التي بينها وبين خواطر أبي

[١] ابن سلام: ١/ ٦٦.

عمرو مثل ما بين الخبر والمعاينة، أن تصرفني عما في مقالته على تقدم زمانها من الأفكار الجليلة التالية:

١ مُقْتَضى علم العالم بالشعر ألا يغفل عن الحاضر اشتغالا بالماضي؛ فأبو عمرو المشهور انصرافه عن حاضر الشعر العربي إلى ماضيه واشتغاله به زمانا طويلا حتى حفظ منه ما لم يحفظ أحدٌ، قد دل على أنه لم يكن أقل اشتغالا بحاضره منه بماضيه؛ فمقالته لا تكون إلا عن انقطاع لهما جميعا.

٢ الشعر العربي بحر واحد متدفق محيط، لا يَنْخَلِعُ حاضره من ماضيه؛ فأبو عمرو قد وازن بأولئك الشعراء الجاهليين هؤلاء الإسلاميين، على ما بينهم من فيافي الزمان والمكان المترامية المدلهمة.

٣ نَوازِعُ الشعراء طبيعية خالدة، لا يستحيل أن يشابه فيها حاضر ماضيا؛ فأبو عمرو قد وجد لكل شاعر من شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين إلا امرأ القيس، من يشابهه ويجري معه، ووقع بالشاعر على الشاعر كما يقع الحافر على الحافر.

٤ أَفْذاذُ الشعراء لا يُشابَهون؛ فأبو عمرو قد أخرج امرأ القيس من المشابهة على رغم أنه أخو طبقة الثلاثة المذكورين الأولى، وكأنه لا ينسلك فيما ينسلك فيه غيره من الشعراء، مهما تكن أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم!

مُوازَنَةُ الْكَلامِ بِالْكَلامِ

[٣] لقد رأيت مقالته علامة بارزة على منهج موازنة النصوص المتزامنة أو المتعاقبة أو المتزامنة المتعاقبة معا، ودعوة خالدة إلى بحث نحوي راسخ شامخ، لا يتناهى في أية الجهتين إلى غاية، بل يتراحب كلما سار فيه النحويون، نافيا عنهم خوفهم من نَفاد مسائل البحث

وتكرارها الذي يؤرقهم، واقفا غيرهم على جَلال ما يعملون لهذه الثقافة العربية الإسلامية المُشَرَّفة المضيَّعة.

كيف أنشأ نصوصَهم، الثلاثةُ الشعراء الجاهليون (الأعشى والنابغة وزهير)، والثلاثةُ الشعراء الإسلاميون (جرير والفرزدق والأخطل)؟

وما الذي اجتمعوا فيه، وما الذي افترقوا، بحيث أشبه بعضهم بعضا، وبقوا مع ذلك شعراء كبارا، لا يغني بعضهم طلاب الشعر عن بعض؟

ذاك سؤال كبير في موازنة النصوص المتزامنة، وهذا سؤال كبير في موازنة النصوص المتعاقبة، ولا ريب لدي في أن جوابهما الكامل صعبٌ محتاجٌ إلى انتهاج مناهج واستفتاء نظريات من علوم كثيرة لغوية كعلم النحو وغير لغوية كعلم النفس، ربما تيسر يوما ما حين يستقل ثم يستحصد في العربية "علم النص" نظرا وعملا جميعا معا، ولاسيما أن تنظر في مثل ذلك الجواب الواحد تلك العلوم الكثيرة، وألا ينتظر بعضها بعضا أن ينظر له فيشاركه في النظر؛ فللبحث في كل علم تقاليد وأعراف تشبه الخصائص يكاد الباحثون لا يتجاوزونها.

شُعَراءُ مَقالَةِ أَبي عَمْرٍو

[٤] ومن ثم فتشت عن دواوين الشعراء الستة، ثم قرنت بعضها ببعض على ما رأى أبو عمرو، ورتبتها -حتى أوازن بعضها ببعض- قَرِينَيْنِ قَرِينَيْنِ، على النحو الآتي:

١ الأعشى = جرير.

٢ النابغة= الأخطل.

٣ زهير= الفرزدق.

عسى أن يُعْقِبَ هذا النمط الواحد من الموازنة جوابَ السؤالين السابقين جميعا معا؛ فليس في قَرْن الثلاثة الجاهليين وموازنة بعضهم ببعض ثم في قَرْن الثلاثة الإسلاميين وموازنة بعضهم ببعض، غيرُ التطويل على نفسي وعلى القارئ بما لا تظهر لي الآن فيه جدوى كبيرة.

شِعْرُ الأعشى وَجرير

[٥] وجدت للأعشى اثنتين وثمانين (٨٢) قصيدةً وقِطْعَةً ونُتْفَةً ويَتيمًا، ولجرير أربعمئة وسبع عشرة (٤١٧) من مثل ذلك -فشعر جرير أكثر من شعر الأعشى، بما كان جرير أكثر انصرافا إلى الشعر وانقطاعا له، والأعشى أكثر ابتلاء بتضييع شعره ونسيانه- قد تَقَاسَمَتْها البحورُ على النحو الآتي بالنِّسَبِ المُقَرَّبة:

البحر	طويل	بسيط	وافر	كامل	رجز	رمل	سريع	منسرح	خفيف	متقارب
الأعشى	٣٤	١١	١٠	١٥	٦	٢	٢	١	٦	١٢
جرير	٣٧	١٦	٢١	١٧	٧	×	١	٠	×	٢

فأغراني ذلك بتصديق مقالة الفاخرين للأعشى بأنه أكثر الأربعة الجاهليين عَروضًا[١]؛ فقد غَنّى وهو الجاهلي ببحرين (الرمل، والخفيف)، صَمَّ عنهما جرير وهو الإسلامي، على رغم ما افتتنت به بعض الحواضر في زمان جرير من الغناء الحافز الطبيعي إلى تصريف أوزان

[١] السابق: ١/ ٦٥، فقد نقل عن أصحاب الأعشى احتجاجهم له بأنه "أَكْثَرُهُمْ عَروضًا"، وهو ما فسره في حاشية الصفحة نفسها أستاذنا محمود محمد شاكر -رحمه الله!- بقوله: "يَعْني كَثْرَةَ أَوْزانِهِ وَاخْتِلافَها، وَكَذلِكَ تَجِدُ شِعْرَ الأعشى".

الشعر[1]، ولكن يبدو أن ميل الأعشى إلى الغناء المتلقِّب به "صَنَّاجَة الْعَرَب"[2]، والمتلهي به عن الحبيبة المعرضة[3]، لم يكن بجرير المؤثر التداوي من الحبيبة بذكراها[4].

ولكن ذلك الجدول لا يبين منازل تلك البحور المشتركة بينهما كما يبينها الجدول الآتي:

المنازل	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
الأعشى	طويل	كامل	متقارب	بسيط	وافر	رجز	سريع	منسرح
جرير	طويل	وافر	كامل	بسيط	رجز	متقارب	سريع	منسرح

فعلى حين ائتلفت بينهما منازل الطويل والبسيط والسريع والمنسرح؛ فظهر طرف مما يمكنه أن يكون الجامع بينهما- اختلفت منازل الكامل والمتقارب والوافر والرجز؛ فظهر طرف مما يظل الفارق بينهما، وتلك معطيات مهمة، ولاسيما إذا تأملتُها في ضوء "جدول تطور أوزان الشعر العربي"، الذي صنعه بعض الباحثين مما وصل إليه هو وغيره[5]، وحسبي أن أستفيد منه للجدول الآتي:

المنازل	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
الجاهلية	طويل	بسيط	وافر	كامل	رمل	متقارب	سريع	رجز	خفيف	منسرح	مديد

---

[1] ضيف "٢": ٣١٧- ٣٢٤.

[2] الأصفهاني: ٩/ ٣٢٢٩، وابن منظور: ص، ن، ج.

[3] وفي ذلك قوله -الأعشى: ٥٩-:

"ومستجيبٍ تَخَالُ الصَّنْجَ يَسْمَعُهُ إِذَا تُرَجِّعُ فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضُلُ

مِنْ كُلِّ ذَلِكَ يَوْمٌ قَدْ لَهَوْتُ بِهِ وَفِي التَّجَارِبِ طُولُ اللَّهْوِ وَالْغَزَلُ".

[4] وفي ذلك قوله -جرير : ١/ ١٦٥-:

"هَلْ يَرْجِعَنَّ وَلَيْسَ الدَّهْرُ مُرْتَجِعًا عَيْشٌ بِهَا طَالَمَا احْلَوْلَى وَمَا لَانَا

أَزْمَانَ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانَ مِنْ غَزَلِي فَكُنَّ يَهْوَيْنَنِي إِذْ كُنْتُ شَيْطَانَا".

[5] البحراوي: ٥٦.

الأعشى	طويل	كامل	متقارب	بسيط	وافر	رجز	خفيف	رمل	سريع	منسرح	
الهجري١	طويل	كامل	وافر	بسيط	خفيف	رجز	متقارب	منسرح	رمل	مديد	
جرير	طويل	وافر	كامل	بسيط	رجز	متقارب	سريع	منسرح			

فقد ائتلفت بعض المنازل بين شعري شاعرينا خاصة وشعري عصريهما عامة، فنسبتْ كلا منهما إلى عصره، كما يأتي:

١ منزلة الطويل أولا في الجاهلية وشعر الأعشى والقرن الهجري الأول وشعر جرير جميعا.

٢ منزلة المنسرح عاشرا في الجاهلية وشعر الأعشى جميعا.

٣ منزلة البسيط رابعا في القرن الهجري الأول وشعر جرير جميعا.

٤ منزلة المنسرح ثامنا في القرن الهجري الأول وشعر جرير جميعا.

واختلفت بعض المنازل، فكفلت لكل منهما خصوصيته المتأبِّية أبدا على التعميم، كما يأتي:

١ منزلة المديد في الشعر الجاهلي مفتقدة في شعر الأعشى، ومنزلتا الرمل والمديد في شعر القرن الهجري الأول مفتقدة في شعر جرير.

٢ منازل الكامل والمتقارب والبسيط والوافر والرجز والخفيف والرمل والسريع في شعر الأعشى خاصة، غيرُها في شعر الجاهلية عامة.

٣ منازل الوافر والكامل والرجز والمتقارب والسريع في شعر جرير خاصة، غيرُها في شعر القرن الهجري الأول عامة.

[٦] ولقد كان لكل من ذلك أثره في إجراء الموازنة بين شعري الأعشى وجرير؛ فقد مضيت في شعر الأعشى الأقل، أتمسك بكل قصيدة أجد لها من شعر جرير الأكثر، ما يلائمها عَروضًا وطولًا ومَعْنًى؛ فلم أعثر من شعر الأعشى إلا على أربع قصائد فقط تلائم أربعًا من شعر جرير. ثم مضيت أتذوق الكلام وأنظر فيما وراءه، حتى أشفقت من استطالة البحث؛ فاصطفيت من تلك القصائد الثماني هاتين القصيدتين وكلتاهما مستحسنة مصطفاة.

الْأُولَى لَامِيَّةُ الْأَعْشَى[1]

وقد فصَّلتُها بما استوعبتها على النحو الآتي[2]:

[١: فَصْلُ الْبَيْنِ]

١ "وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطيقُ وَداعًا أَيُّها الرَّجُلُ

[٢: فَصْلُ الِاسْتِحْسَانِ]

٢ غَرّاءُ فَرْعاءُ مَصْقولٌ عَوارِضُها تَمْشي الْهُوَيْنَى كَما يَمْشي الْوَجِي الْوَحِلُ

٣ كَأَنَّ مِشْيَتَها مِنْ بَيْتِ جارَتِها مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيْثٌ وَلا عَجَلُ

٤ تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواسًا إِذا انْصَرَفَتْ كَما اسْتَعانَ بِريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

٥ لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجيرانُ طَلْعَتَها وَلا تَراها لِسِرِّ الْجارِ تَخْتَتِلُ

---

[1] الأعشى: ٥٥- ٦٣، وربما ظُنَّ حسنًا أن أقدم لهذه القصيدة بشرح بعض مفرداتها، ولكنني استحسنت ألا أفعل؛ فربما أفسدها تقديم مثل هذا الشرح، ولاسيما أن سياق البحث كفيل به.

[2] أكتب الأبيات متصلة الأشطار بلا بياض بين صدورها وأعجازها، إلا الأبيات المصرعة أو المقفاة الواضح قصد الشاعر فيها إلى الوقف على أعاريضها تشبيها لها بضروبها- أخذا بما رأيته من أصالة اتصالها في عمل الشاعر وحداثة انفصالها في عمل العَروضيّ، على ما أغرانا أستاذنا محمود محمد شاكر -رحمه الله!- بمثل قوله -شاكر "٣": ٣٩ح: "جريت في هذه المقالات على كتابة بيت الشعر سطرا واحدا، ليس بين المصراعين بياض، كما ألفنا فيما ننشره من الشعر. هذا، والقدماء كانوا يكتبون الشعر كذلك سطرا واحدا متصلا في جميع المخطوطات القديمة"، وإن لم يجر هو نفسه على ذلك في كثير مما أخرج، فربما خالفه الطابع إلى ما نهاه عنه، ولاسيما أنني سمعته يشكو كثرة أخطاء طباعة كتبه على رغم شدة عنايته بتدقيقها!

٦ يَكادُ يَصْرَعُها لَوْلا تَشَدُّدُها إِذا تَقومُ إِلى جاراتِها الْكَسَلُ

٧ إِذا تُعالِجُ قِرنًا ساعَةً فَتَرَتْ وَاهْتَزَّ مِنها ذَنوبُ الْمَتْنِ وَالْكَفَلُ

٨ صِفْرُ الْوِشاحِ وَمِلْءُ الدِّرْعِ بَهْكَنَةٌ إِذا تَأَتّى يَكادُ الْخَصْرُ يَنْخَزِلُ

[٣: فَصْلُ الْإِعْراضِ]

٩ صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنّا ما تُكَلِّمُنا جَهْلًا بِأُمِّ خُلَيْدٍ حَبْلَ مَنْ تَصِلُ

١٠ أَأَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْشى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ الْمَنونِ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ

[٤: فَصْلُ الِاسْتِلْذاذِ]

١١ نِعْمَ الضَّجيعُ غَداةَ الدَّجْنِ يَصْرَعُها لِلَذَّةِ الْمَرْءِ لا جافٍ وَلا تَفِلُ

١٢ هِرْكَوْلَةٌ فُنُقٌ دُرْمٌ مَرافِقُها كَأَنَّ أَخْمَصَها بِالشَّوْكِ مُنْتَعِلُ

١٣ إِذا تَقومُ يَضوعُ الْمِسْكُ أَصْوِرَةً وَالزَّنْبَقُ الْوَرْدُ مِنْ أَرْدانِها شَمِلُ

١٤ ما رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الْحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْراءُ جادَ عَلَيْها مُسْبِلٌ هَطِلُ

١٥ يُضاحِكُ الشَّمْسَ مِنْها كَوْكَبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بِعَميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ

١٦ يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْها نَشْرَ رائِحَةٍ وَلا بِأَحْسَنَ مِنْها إِذْ دَنا الْأُصُلُ

[٥: فَصْلُ الْخَيْبَةِ]

١٧ عُلِّقْتُها عَرَضًا وَعُلِّقَتْ رَجُلًا غَيْري وَعُلِّقَ أُخْرى غَيْرَها الرَّجُلُ

١٨ وَعَلَّقَتْهُ فَتاةٌ ما يُحاوِلُها مِنْ أَهْلِها مَيِّتٌ يَهْذي بِها وَهِلُ

١٩ وَعُلِّقَتْني أُخَيْرى ما تُلائِمُني فَاجْتَمَعَ الْحُبُّ حُبًّا كُلُّهُ تَبِلُ

٢٠ فَكُلُّنا مُغْرَمٌ يَهْذي بِصاحِبِهِ ناءٍ وَدانٍ وَمَحْبولٌ وَمُحْتَبِلُ

٢١ قالَتْ هُرَيْرَةُ لَمّا جِئْتُ زائِرَها وَيْلي عَلَيْكَ وَوَيْلي مِنْكَ يا رَجُلُ

[٦: فَصْلُ الطُّمَأْنِينَةِ]

٢٢ يا مَنْ يَرى عارِضًا قَدْ بِتُّ أَرْقُبُهُ كَأَنَّما الْبَرْقُ في حافاتِهِ الشُّعَلُ

٢٣ لَهُ رِدافٌ وَجَوْزٌ مُفْأَمٌ عَمِلٌ مُنَطَّقٌ بِسِجالِ الْماءِ مُتَّصِلُ

٢٤ لَمْ يُلْهِني اللَّهْوُ عَنْهُ حينَ أَرْقُبُهُ وَلا اللَّذاذَةُ مِنْ كَأْسٍ وَلا الْكَسَلُ

٢٥ فَقُلْتُ لِلشَّرْبِ في دُرْنَى وَقَدْ ثَمِلوا شيموا وَكَيْفَ يَشيمُ الشّارِبُ الثَّمِلُ

٢٦ بَرْقًا يُضيءُ عَلى الْأَجْزاعِ مَسْقِطُهُ وَبِالْخَبِيَّةِ مِنْهُ عارِضٌ هَطِلُ

٢٧ قالوا نِمارٌ فَبَطْنُ الْخالِ جادَهُما فَالْعَسْجَدِيَّةُ فَالْأَبْلاءُ فَالرِّجَلُ

٢٨ فَالسَّفْحُ يَجْري فَخِنْزيرٌ فَبُرْقَتُهُ حَتّى تَدافَعَ مِنْهُ الرَّبْوُ فَالْجَبَلُ

٢٩ حَتّى تَحَمَّلَ مِنْهُ الْماءَ تَكْلِفَةً رَوْضُ الْقَطا فَكَثيبُ الْغَيْنَةِ السَّهِلُ

٣٠ يَسْقي دِيارًا لَها قَدْ أَصْبَحَتْ عُزُبًا زُورًا تَجانَفَ عَنْها الْقَوْدُ وَالرَّسَلُ

[٧: فَصْلُ الرِّحْلَةِ]

٣١ وَبَلْدَةٍ مِثْلِ ظَهْرِ التُّرْسِ موحِشَةٍ لِلْجِنِّ بِاللَّيْلِ في حافاتِها زَجَلُ

٣٢ لا يَتَنَمّى لَها بِالْقَيْظِ يَرْكَبُها إِلّا الَّذينَ لَهُمْ فيما أَتَوْا مَهَلُ

٣٣ جاوَزْتُها بِطَليحٍ جَسْرَةٍ سُرُحٍ في مِرْفَقَيْها إِذا اسْتَعْرَضْتَها فَتَلُ

[٨: فَصْلُ التَّلَهّي]

٣٤ إِمّا تَرَيْنا حُفاةً لا نِعالَ لَنا إِنّا كَذَلِكَ ما نَحْفى وَنَنْتَعِلُ

٣٥ فَقَدْ أُخالِسُ رَبَّ الْبَيْتِ غَفْلَتَهُ وَقَدْ يُحاذِرُ مِنّي ثُمَّ ما يَئِلُ

٣٦ وَقَدْ أَقودُ الصِّبا يوْمًا فيَتْبَعُني وَقَدْ يُصاحِبُني ذو الشِّرَّةِ الْغَزِلُ
٣٧ وَقَدْ غَدَوْتُ إلى الْحانوتِ يَتْبَعُني شاوٍ مِشَلٌّ شَلولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ
٣٨ في فِتْيَةٍ كَسُيوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِموا أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذي الْحيلَةِ الْحِيَلُ
٣٩ نازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحانِ مُتَّكِئًا وَقَهْوَةً مُزَّةً راووقُها خَضِلُ
٤٠ لا يَسْتَفيقونَ مِنْها وَهْيَ راهِنَةٌ إلّا بِهاتِ وَإِنْ عَلّوا وَإِنْ نَهِلوا
٤١ يَسْعى بِها ذُو زُجاجاتٍ لَهُ نُطَفٌ مُقَلِّصٌ أَسْفَلَ السِّرْبالِ مُعْتَمِلُ
٤٢ وَمُسْتَجيبٍ تَخالُ الصَّنْجَ يَسْمَعُهُ إذا تُرَجِّعُ فيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضُلُ
٤٣ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ يَوْمٌ قَدْ لَهَوْتُ بِهِ وَفي التَّجارِبِ طولُ اللَّهْوِ وَالْغَزَلُ
٤٤ وَالسّاحِباتُ ذُيولَ الخَزِّ آوِنَةً وَالرّافِلاتُ عَلى أَعْجازِها الْعِجَلُ

[٩: فَصْلُ الْوَعيدِ (الرِّسالَة)][١]

٤٥ أَبْلِغْ يَزيدَ بَني شَيْبانَ مَأْلُكَةً [أَبا ثُبَيْتٍ/١ أَما تَنْفَكُّ تَأْتَكِلُ/٢
٤٦ أَلَسْتَ مُنْتَهِيًا عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِنا وَلَسْتَ ضائِرَها ما أَطَّتِ الْإِبِلُ/٣
٤٧ تُغْري بِنا رَهْطَ مَسْعودٍ وَإِخْوَتِهِ عِنْدَ اللِّقاءِ/٤ فَتُرْدي/٥ ثُمَّ تَعْتَزِلُ/٦
٤٨ لَأَعْرِفَنَّكَ (إِنْ جَدَّ النَّفيرُ بِنا/٨ وَشُبَّتِ الْحَرْبُ بِالطُّوّافِ/٩ وَاحْتَمَلوا/١٠)
٤٩ كَناطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيَفْلِقَها فَلَمْ يَضِرْها وَأَوْهى قَرْنَهُ الْوَعِلُ/٧
٥٠ لَأَعْرِفَنَّكَ (إِنْ جَدَّتْ عَداوَتُنا/١٢ وَالْتُمِسَ النَّصْرُ مِنْكُمْ عَوَضُ/١٣) تُحْتَمَلُ/١١
٥١ تُلْزِمُ أَرْماحَ ذي الْجَدَّيْنِ سَوْرَتَنا عِنْدَ اللِّقاءِ/١٤ فَتُرْديهِمْ/١٥ وَتَعْتَزِلُ/١٦
٥٢ لا تَقْعُدَنَّ وَقَدْ أَكَّلْتَها حَطَبًا تَعوذُ مِنْ شَرِّها يَوْمًا وَتَبْتَهِلُ/١٧

---

[١] قسمت هذا الفصل على فقرتيه وجملهما، ورقمتها، تمهيدا لبحثها فيما يأتي، تجنبا للتطويل بإعادة ذكرها.

٥٣ قَدْ كانَ في أَهْلِ كَهْفٍ (إِنْ هُمُ قعَدوا) ١٩ وَالْجاشِرِيَّةِ مَنْ يَسْعى وَيَنْتَضِلُ/١٨

٥٤ سائِلْ بَني أَسَدٍ عَنّا/٢٠ (فَقَدْ عَلِموا أَنْ سَوْفَ يَأْتيكَ مِنْ أَنبائِنا شَكَلُ)/٢١

٥٥ وَاسْأَلْ قُشَيْرًا وَعَبْدَ اللهِ كُلَّهُمُ/٢٢ وَاسْأَلْ رَبيعَةَ عَنّا كَيْفَ نَفْتَعِلُ/٢٣

٥٦ إِنّا نُقاتِلُهُمْ حتى نُقَتِّلَهُمْ عِنْدَ اللِّقاءِ وَهُمْ جاروا وَهُمْ جَهِلوا/٢٤

٥٧ كَلّا زَعَمْتُمْ بِأَنّا لا نُقاتِلُكُمْ/٢٥ إِنّا لِأَمْثالِكُمْ (يا قَوْمَنا) ٢٧ قُتُلُ

٥٨ حَتّى يَظَلَّ عَميدُ الْقَوْمِ مُتَّكِئًا يَدْفَعُ بِالرّاحِ عَنْهُ نِسْوَةٌ عُجُلُ

٥٩ أَصابَهُ هِنْدُوانِيٌّ فَأَقْصَدَهُ أَوْ ذابِلٌ مِنْ رِماحِ الْخَطِّ مُعْتَدِلُ

٦٠ قَدْ نَخْضِبُ الْعَيْرَ مِنْ مَكْنونِ فائِلِهِ وَقَدْ يَشيطُ عَلى أَرْماحِنا الْبَطَلُ/٢٦

٦١ هَلْ تَنْتَهونَ/٢٨ وَلا يَنْهى ذَوي شَطَطٍ كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فيهِ الزَّيْتُ وَالْفُتُلُ /٢٩

٦٢ إِنّي لَعَمْرُ الَّذي خَطَّتْ مَناسِمُها تَخْدي وَسيقَ إِلَيْهِ الْباقِرُ الْغُيُلُ

٦٣ (لَئِنْ قَتَلْتُمْ عَميدًا لَمْ يَكُنْ صَدَدًا) ٣١ لَنَقْتُلَنْ مِثْلَهُ مِنْكُمْ فَنَمْتَثِلُ

٦٤ (لَئِنْ مُنيتَ بِنا عَنْ غِبِّ مَعْرَكَةٍ) ٣٢ لَمْ تُلْفِنا مِنْ دِماءِ الْقَوْمِ نَنْتَفِلُ/٣٠

٦٥ نَحْنُ الْفَوارِسُ يَوْمَ الْعَيْنِ ضاحِيَةً جَنْبَيْ فُطَيْمَةَ لا ميلٌ وَلا عُزُلُ/٣٣

٦٦ قالوا الرُّكوبَ/٣٤ فَقُلْنا تِلْكَ عادَتُنا أَوْ تَنْزِلونَ فَإِنّا مَعْشَرٌ نُزُلُ/٣٥]".

وَالْآخِرَةُ نُونِيَّةُ جَرِيرٍ[1]

وقد فصَّلتُها بما استوعبتها على النحو الآتي:

[١: فَصْلُ الْبَيْنِ]

١ "بانَ الْخَليطُ ولَوْ طُوِّعْتُ ما بانا   وَقَطَّعوا مِنْ حِبالِ الْوَصْلِ أَقْرانَا
٢ حَيِّ الْمَنازِلَ إِذْ لا نَبْتَغي بَدَلًا بِالدّارِ دارًا ولا الْجيرانِ جيرانَا
٣ قَدْ كُنْتُ في أَثَرِ الْأَظْعانِ ذا طَرَبٍ مُرَوَّعًا مِنْ حِذارِ الْبَيْنِ مِحْزانَا
٤ يا رُبَّ مُكْتَئِبٍ لَوْ قَدْ نُعيتُ لَهُ باكٍ وَآخَرَ مَسْرورٍ بِمَنْعانَا
٥ لَوْ تَعْلَمينَ الَّذي نَلْقى أَوَيْتِ لَنا أَوْ تَسْمَعينَ إِلى ذي الْعَرْشِ شَكْوانَا
٦ كَصاحِبِ الْمَوْجِ إِذْ مالَتْ سَفينَتُهُ يَدْعو إِلى اللهِ إِسْرارًا وَإِعْلانَا

[٢: فَصْلُ الرَّسُولِ]

٧ يا أَيُّها الرّاكِبُ الْمُزْجي مَطِيَّتَهُ بَلِّغْ تَحِيَّتَنا لُقّيتَ حُمْلانَا
٨ بَلِّغْ رَسائِلَ عَنّا خَفَّ مَحْمِلُها عَلى قَلائِصَ لَمْ يَحْمِلْنَ حيرانَا
٩ كيما نَقولَ إِذا بَلَّغْتَ حاجَتَنا أَنْتَ الْأَمينُ إِذا مُسْتَأْمَنٌ خانَا
١٠ نُهْدي السَّلامَ لِأَهْلِ الْغَوْرِ مِنْ مَلَحٍ هَيْهاتَ مِنْ مَلَحٍ بِالْغَوْرِ مُهْدانَا
١١ أَحْبِبْ إِلَيَّ بِذاكَ الْجِزْعِ مَنْزِلَةً بِالطَّلْحِ طَلْحًا وَبِالْأَعْطانِ أَعْطانَا
١٢ يا لَيْتَ ذا الْقَلْبَ لاقى مَنْ يُعَلِّلُهُ أَوْ ساقِيًا فَسَقاهُ الْيَوْمَ سُلْوانَا

---

[1] جرير: ١/ ١٦٠- ١٦٧، وكذلك استحسنت ألا أفسد هذه القصيدة بتقديم شرح بعض مفرداتها.

١٣ أَوْ لَيْتَها لَمْ تُعَلِّقْنا عَلاقَتَها وَلَمْ يَكُنْ داخِلَ الْحُبِّ الَّذي كانَا
١٤ هَلّا تَحَرَّجْتِ مِمّا قَدْ فَعَلْتِ بِنا يا أَطْيَبَ النّاسِ يَوْمَ الدَّجْنِ أَرْدانَا

[٣: فَصْلُ الْمَكِيدَةِ]

١٥ قالَتْ أَلِمَّ بِنا إِنْ كُنْتَ مُنْطَلِقًا وَلا إِخالُكَ بَعْدَ الْيَوْمِ تَلْقانَا
١٦ يا طَيْبَ هَلْ مِنْ مَتاعٍ تُمْتِعِينَ بِهِ ضَيْفًا لَكُمْ باكِرًا يا طَيْبَ عَجْلانَا
١٧ ما كُنْتُ أَوَّلَ مُشْتاقٍ أَخي طَرَبٍ هاجَتْ لَهُ غَدَواتُ الْبَيْنِ أَحْزانَا
١٨ يا أُمَّ عَمْرٍو جَزاكِ اللهُ مَغْفِرَةً رُدّي عَلَيَّ فُؤادي كَالَّذي كانَا
١٩ أَلَسْتِ أَحْسَنَ مَنْ يَمْشي عَلى قَدَمٍ يا أَمْلَحَ النّاسِ كُلِّ النّاسِ إِنْسانَا
٢٠ يَلْقى غَرِيمُكُمُ مِنْ غَيْرِ عُسْرَتِكُمْ بِالْبَذْلِ بُخْلًا وَبِالْإِحْسانِ حِرْمانَا
٢١ لا تَأْمَنَنَّ فَإِنّي غَيْرُ آمِنِهِ غَدْرَ الْخَلِيلِ إِذا ما كانَ أَلْوانَا
٢٢ قَدْ خُنْتِ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَخْشى خِيانَتَكُمْ ما كُنْتِ أَوَّلَ مَوْثُوقٍ بِهِ خانَا
٢٣ لَقَدْ كَتَمْتُ الْهَوى حَتّى تَهَيَّمَني لا أَسْتَطِيعُ لِهذا الْحُبِّ كِتْمانَا
٢٤ كادَ الْهَوى يَوْمَ سَلْمانَيْنِ يَقْتُلُني وَكادَ يَقْتُلُني يَوْمًا بِبَيْدانَا
٢٥ وَكادَ يَوْمُ لِوى حَوّاءَ يَقْتُلُني لَوْ كُنْتُ مِنْ زَفَراتِ الْبَيْنِ قُرْحانَا
٢٦ لا بارَكَ اللهُ فِيمَنْ كانَ يَحْسَبُكُمْ إِلّا عَلى الْعَهْدِ حَتّى كانَ ما كانَا
٢٧ مِنْ حُبِّكُمْ فَاعْلَمي لِلْحُبِّ مَنْزِلَةً نَهْوى أَمِيرَكُمُ لَوْ كانَ يَهْوانَا
٢٨ لا بارَكَ اللهُ في الدُّنْيا إِذا انْقَطَعَتْ أَسْبابُ دُنْياكِ مِنْ أَسْبابِ دُنْيانَا
٢٩ يا أُمَّ عُثْمانَ إِنَّ الْحُبَّ عَنْ عَرَضٍ يُصْبي الْحَلِيمَ وَيُبْكي الْعَيْنَ أَحْيانَا
٣٠ ضَنَّتْ بِمَوْرِدَةٍ كانَتْ لَنا شَرَعًا تَشْفي صَدى مُسْتَهامِ الْقَلْبِ صَدْيانَا

[٤: فَصْلُ الْوَجْدِ]

٣١ كَيفَ التَّلاقي وَلا في القَيْظِ مَحْضَرُكُمْ منّا قَريبٌ ولا مَبْداكِ مَبْدانَا

٣٢ نَهْوى ثَرى العِرْقِ إذْ لَمْ نَلْقَ بَعْدَكُمُ كَالْعِرْقِ عِرْقًا ولا السُّلّانِ سُلّانَا

٣٣ ما أَحْدَثَ الدَّهْرُ مِمّا تَعْلَمينَ لَكُمْ لِلْحَبْلِ صُرْمًا ولا لِلْعَهْدِ نِسْيانَا

٣٤ أَبُدِّلَ اللَّيْلُ لا تَسْري كَواكِبُهُ أَمْ طالَ حَتّى حَسِبْتُ النَّجْمَ حَيْرانَا

٣٥ يا رُبَّ عائِدَةٍ بِالْغَوْرِ لَوْ شَهِدَتْ عَزَّتْ عَلَيْها بِدَيْرِ اللُّجِّ شَكْوانَا

٣٦ إنَّ الْعُيونَ الَّتي في طَرْفِها مَرَضٌ قَتَلْنَنا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلانَا

٣٧ يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حَتّى لا صِراعَ بِهِ وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَرْكانَا

٣٨ يا رُبَّ غابِطِنا لَوْ كانَ يَطْلُبُكُمْ لاقى مُباعَدَةً مِنْكُمْ وَحِرْمانَا

٣٩ أَرَيْنَهُ الْمَوْتَ حَتّى لا حَياةَ بِهِ قَدْ كُنَّ دِنَّكَ قَبْلَ الْيَوْمِ أَدْيانَا

[٥: فَصْلُ الْخَيالِ]

٤٠ طارَ الْفُؤادُ مَعَ الْخَوْدِ الَّتي طَرَقَتْ في النَّوْمِ طَيِّبَةَ الْأَعْطافِ مِبْدانَا

٤١ مَثْلوجَةَ الرِّيقِ بَعْدَ النَّوْمِ واضِعَةً عَنْ ذي مَثانٍ تَمُجُّ الْمِسْكَ وَالْبانَا

٤٢ تَسْتافُ بِالْعَنْبَرِ الْهِنْدِيِّ قاطِعَةً هَمَّ الضَّجيعِ فَلا دُنيا كَدُنْيانَا

٤٣ ظَنّي بِكُمْ حَسَنٌ مِنْ خِبْرَةٍ بِكُمُ فَلا تَكونوا كَمَنْ قَدْ كانَ أَلْوانَا

٤٤ بِتْنا نَراها كَأَنّا مالِكونَ لَها يا لَيْتَها صَدَّقَتْ بِالْحَقِّ رُؤْيانَا

٤٥ قالَتْ تَعَزَّ فَإنَّ الْقَوْمَ قَدْ جَعَلوا دونَ الزِّيارَةِ أَبْوابًا وَخُزّانَا

٤٦ لَمّا تَبَيَّنْتُ أَنْ قَدْ حيلَ دونَهُمُ ظَلَّتْ عَساكِرُ مِثْلُ الْمَوْتِ تَغْشانَا

[٦: فَصْلُ الرِّحْلَةِ]

٤٧ ماذا لَقيتَ مِنَ الْأَظْعانِ يَوْمَ قَنًا يَتْبَعْنَ مُغْتَربًا لِلْبَيْنِ ظَعّانَا

٤٨ أَتْبَعْتُهُمْ مُقْلَةً إِنْسانُها غَرِقٌ هَلْ ما تَرى تارِكٌ لِلْعَيْنِ إِنْسانَا

٤٩ كَأَنَّ أَحْداجَهُمْ تُحْدى مُقَفِّيَةً نَخْلٌ بِمَلْهَمَ أَوْ نَخْلٌ بِقُرّانَا

٥٠ يا أُمَّ عُثْمانَ ما تَلْقى رَواحِلُنا لَوْ قِسْتِ مُصْبَحَنا مِنْ حَيْثُ مُمْسانَا

٥١ تَخْدي بِنا نُجُبٌ دَمّى مَناسِمَها نَقْلُ الْحَزابِيِّ حِزّانًا فَحِزّانَا

٥٢ تَرْمي بِأَعْيُنِها نَجْدًا وَقَدْ قَطَعَتْ بَيْنَ السَّلَوْطَحِ وَالرَّوْحانِ صَوّانَا

[٧: فَصْلُ الذِّكْرى]

٥٣ يا حَبَّذا جَبَلُ الرَّيّانِ مِنْ جَبَلٍ وَحَبَّذا ساكِنُ الرَّيّانِ مَنْ كانَا

٥٤ وَحَبَّذا نَفَحاتٌ مِنْ يَمانِيَةٍ تَأْتيكَ مِنْ قِبَلِ الرَّيّانِ أَحْيانَا

٥٥ هَبَّتْ شَمالًا فَذِكْرى ما ذَكَرْتُكُمُ عِنْدَ الصَّفاةِ الَّتي شَرْقِيَّ حَوْرانَا

٥٦ هَلْ يَرْجِعَنَّ وَلَيْسَ الدَّهْرُ مُرْتَجِعًا عَيْشٌ بِها طالَما احْلَوْلى وَما لانَا

٥٧ أَزْمانَ يَدْعونَني الشَّيْطانَ مِنْ غَزَلي فَكُنَّ يَهْوَيْنَني إِذْ كُنْتُ شَيْطانَا

٥٨ مَنْ ذا الَّذي ظَلَّ يَغْلي أَنْ أَزورَكُمُ أَمْسى عَلَيْهِ مَليكُ النّاسِ غَضْبانَا

[٨: فَصْلُ الْوَعيدِ]

٥٩ ما يَدَّري شُعَراءُ النّاسِ وَيْلَهُمُ مِنْ صَوْلَةِ الْمُخْدِرِ الْعادي بِخَفّانَا

٦٠ جَهْلًا تَمَنَّوْا حُدائي مِنْ ضَلالِهِمُ فَقَدْ حَدَوْتُهُمُ مَثْنى وَوُحْدانَا

٦١ غادَرْتُهُمْ مِنْ حَسيرٍ ماتَ في قَرَنٍ وَآخَرينَ نَسَوا التَّهْدارَ خِصْيانَا

٦٢ ما زالَ حَبْلي في أَعْناقِهِمْ مَرَسًا حَتّى اشْتَفَيْتُ وَحَتّى دانَ مَنْ دانَا

٦٣ مَنْ يَدْعُني مِنْهُمُ يَبْغي مُحارَبَتي فاسْتَيْقَنَنَّ أُجِبْهُ غَيْرَ وَسْنانَا
٦٤ ما عَضَّ نابِيَ قَوْمًا أَوْ أَقولَ لَهُمْ إِيّاكُمُ ثُمَّ إِيّاكُمْ وَإِيّانَا

[٩: فَصْلُ الذَّمِّ (الرِّسَالَةِ)][١]

٦٥ قُلْ لِلأُخَيْطِلِ [لَمْ تَبْلُغْ مُوازَنَتِي/١ فَاجْعَلْ لِأُمِّكَ أَيْرَ الْقَسِّ مِيزانَا/٢
٦٦ إِنّي امْرُؤٌ لَمْ أُرِدْ فيمَنْ أُناوِئُهُ لِلنّاسِ ظُلْمًا وَلا لِلْحَرْبِ إِدْهانَا
٦٧ أَحْمي حِمايَ بِأَعْلَى الْمَجْدِ مَنْزِلَتي مِنْ خِنْدِفٍ وَالذُّرا مِنْ قَيْسِ عَيْلانَا/٣
٦٨ قالَ الْخَلِيفَةُ وَالْخِنْزيرُ مُنْهَزِمٌ ما كُنْتَ أَوَّلَ عَبْدٍ مُحْلِبٍ خانَا/٤
٦٩ لاقَى الْأُخَيْطِلُ بِالْجُولانِ فاقِرَةً مِثْلَ اجْتِداعِ الْقَوافي وَبْرَ هِزّانَا/٥
٧٠ يا خُزْرَ تَغْلِبَ/٦ ماذا بالُ نِسْوَتِكُمْ لا يَسْتَفِقْنَ إِلى الدَّيْرَيْنِ تَحْنانَا/٧
٧١ لَمّا رَوِينَ عَلى الْخِنْزيرِ مِنْ سَكَرٍ نادَيْنَ يا أَعْظَمَ الْقَسَّيْنِ جُرْدانَا/٨
٧٢ هَلْ تَتْرُكُنَّ إِلى الْقَسَّيْنِ هِجْرَتَكُمْ وَمَسْحَكُمْ صُلْبَهُمْ رَحْمانَ قُرْبانَا /٩
٧٣ لَنْ تُدْرِكوا الْمَجْدَ أَوْ تَشْروا عَباءَتَكُمْ بِالْخَزِّ أَوْ تَجْعَلوا التَّنّومَ ضَمْرانَا/١٠]".

[١] وكذلك قسمتُ هذا الفصل تمهيدًا وتجنُّبًا.

تَفْصيلُ القَصيدَةِ

[٧] إن للشاعر بالقصيدة حين يقولها لقصدًا إلى إرسال رسالةٍ (مُغْلَغَلَةٍ، مَأْلُكَةٍ) ما، تدل عليها أدلةٌ مختلفة، منها ما يأتي:

١ طبيعة القصيدة الخاصة.

٢ سياق القصيدة الشعري.

٣ سياق القصيدة الاجتماعي.

أما دلالة طبيعة القصيدة الخاصة فَأَنْ تَتَفَصَّلَ فُصولها وتَتَوصَّلَ ظاهراً وباطنا بحيث تؤدي رسالتها، وأما دلالة سياق القصيدة الشعري في ديوانها وغيره فأن يشتمل على أشباهها اللاتي يغرين بالاطمئنان إلى فهم تلك الرسالة، وأما دلالة سياق القصيدة الاجتماعي في إِرْسالِها وتَلَقّيها فأن يُنصَّ بحال صاحبها وبفهم متلقيها على تلك الرسالة، حتى إن علماء المتلقين إذا صنفوا القصيدة مع غيرها من شعر صاحبها أو غيره وضعوها تحت عنوان باسم تلك الرسالة.

وأولئك المتلقون هنا قسمان: مُرْسَلٌ إليه مقصود هو نفسه بالرسالة، ورَسولٌ حامل لها موكولٌ إليه كثيرٌ من أمرها، وكلاهما محتاج إلى أن يَتَأَتّى له الشاعر، وإلا مَلَّ الرسالةَ الرسولُ فلم يُعَنِّ نَفْسَهُ أن يُبَلِّغَها، أو كَرِهَها المرسَلُ إليه فلم يقبل أن يَسْمَعَها.

ولقد كان من منهج الشاعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بني أمية، أن قسم قصيدته على فُصول: فصل لرسالته، و فصول لعَطْفِ الرسول والمرسل إليه على رسالته- وأن جَرى على تأخير فصل الرسالة إلى آخر القصيدة -وإن فرغ منه أولا- حتى يجد مندوحة ليتأتى إليها ويعطف المتلقين عليها، وحتى تكون آخر ما يُتَلَقّى فَيَبْقى.

فمن ثم ينبغي أن يكون من منهجي أن أقدم النظر في فصل الرسالة الذي بدأ به الشاعران وأؤخر النظر في فصول التأتي التي ختما بها على الحقيقة؛ عسى أن أتبين من مَسيرَتَيْ تَفْكيرَيْهِما ما يستخفي بطيّات نَصّيهما.

فَصْلُ الرِّسالَةِ

رِسالَتا الشّاعِرَيْنِ

[٨] لقد قصد الأعشى إلى منع "يَزيد" أحد رؤوس بني شيبان، من إيغار صدور "بني سيار" أحد بيوت قبيلته، على "بني كعب" أحد بيوت قبيلة الأعشى، ليقتلوا أحد رؤوسهم برجل منهم مُهْمَلٍ قتلوه- وقصد جرير إلى منع الأخطل شاعر بني تغلب الأكبر من التطاول عليه.

وعلى رغم أنْ ليس هذا المَنْع ببعيد من ذلك -فكلاهما مَنْع من الكلام، ولئن كان كلام يزيد مما يفضي إلى القتال، لقد أفضى كلام الأخطل من قبل إلى مقتلة لم يمل جرير تعييره بها، و"الْكِلامُ مِنَ الْكَلامِ"!- كانت شناعة الذم وسيلة جرير إلى منع خصيمه، وسياسة الوعيد وسيلة الأعشى إلى منع خصيمه، وليس أدل على المتوسل من وسيلته؛ فأما المتوعّد فصبور، وأما الذامّ فغضوب!

مِقْدارَا الرِّسالَتَيْنِ

[٩] وعلى حين شغلت رسالة الأعشى اثنين وعشرين بيتا بنسبة ٣٣٪، من آخر قصيدته التي عدتها ستة وستون بيتا، وكان فصلها أطول الفصول؛ فدل ذلك على فضل عنايته برسالته وجلال شأنها عنده- لم تشغل رسالة جرير غير تسعة أبيات بنسبة ١٢٪، من آخر قصيدته التي عدتها ثلاثة وسبعون بيتا، ولم يكن فصلها أطول الفصول؛ فدل ذلك على فضل استهانته برسالته وهوان شأنها عليه، دون إهمال أثر اختلاف الوعيد والذم في ذلك -مهما اتفقا في المنع السابق- ففي الوعيد علاج، وفي الذم بتر!

إِحَاطَةُ الرِّسَالَتَيْنِ

[١٠] ثم على حين اجتمع الشاعران في بناء أجزاء رسالتيهما على هاتين الجملتين الطلبيتين ["أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَأْلُكَةً (...)"، و"قُلْ لِلْأُخَيْطِلِ (...)"]، الخارجتين بمسنديهما [(فعل أمر الإبلاغ)، و(فعل أمر القول)]، مخرج النصيحة إِعْذَارًا إلى المتلقين، وبالمسند إليه الواحد فيهما (ضمير المخاطب غير المعين الحضور) مخرج التأنيب على الصمت والصبر الموضوعين في غير موضعهما متى كان المتكلم هو المخاطب على جهة التجريد، أو مخرج التَّسْميع بين الناس الذين لا يتناقلون شيئا كما يتناقلون رسائل بعضهم إلى بعض ولاسيما إذا تَوَاصَوْا بكتمانها، متى كان المخاطب غير المتكلم- أَلْطَفَ الأعشى وطأة أجزاء رسالته على خصيمه بتقديم كلمة "مَأْلُكَةً" قبلها بحيث كانت تفريعا عنها وتبيينا لها وبدلا منها، والمألكة هي الرسالة التي لا تكون عادة إلا بين الإخوان الحريصين على التواصل في البعد كالتواصل في القرب، تذكيرا له بحقه عليه عسى أن يجيبه إلى ما يستحق- وأَقْذَعَ جرير وطأة أجزاء رسالته على خصيمه بمباشرتها بفعل القول، تنكيلا به وتَحْييرا له عن وجوه الجواب!

ذِكْرُ الْخَصِيمَيْنِ

[١١] ومهما يكن مُتَّجَهُ ضمير المخاطب فقد عزف الأعشى عن مواجهة خصيمه بتحميل غيره الوعيد إليه، وأَلْطَفَ ذِكْرَهُ له باسمه مضافا إلى قومه "(...) يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ"، تذكيرا له بحقهم عليه ألا يهلكهم كِفاءَ ما سَوَّدوه عليهم، كما عَرَّف اسمَه المضافَ بعدما ذهبت عنه عَلَمِيَّتَه اسمُهُمُ المضافُ إليه[1]، حتى تجلى ما في عزوفه عن مواجهته من استبقائه والحرص عليه. وعزف جرير عن مواجهة خصيمه بتحميل غيره الذم إليه، وأقذع ذِكْرَهُ بلقبه

---

[1] ابن يعيش: ١/ ٤٤- ٤٥.

مصغرا " (...) للأُخَيْطِل"، الذي نبز به "لسفهه واضطراب شعره"[1]، تحقيرا له وحَطًّا منه، حتى تجلى ما في عزوفه عن مواجهته من اطراحه والزهد فيه.

اسْمُ رِسَالَةِ الْأَعْشَى

[١٢] وعلى حين اجتمع الشاعران بإطاري التبليغ والتَّحْديث اللذَيْن في جملتيهما الأُوليين، على أن تتضمنا ما بعدهما على نحوٍ ما وتستوليا عليه كما يتضمن الإطار ما فيه ويستولي عليه؛ فتتوثق بذلك علاقة أجزاء الرسالة بعضها ببعض على أحسن ما يتمنى مُرْسِلٌ حريص على كلمته إلى المتلقي- استفاد الأعشى من جواز انقطاع ما بعد "مألكة" منها وحمله على الاستئناف، ما يتيحه ذلك لكل جزء من أجزاء رسالته من خصوصية تبدو بها حَمّالة وجهين من اللين والقسوة مُلْتَبِسَيْنِ!

ومهما تكن شدة إطار الجملة الأولى المحيط بأجزاء الرسالة، فلا غنى عن كسره وفحصها، ولاسيما أنها تفتقر فيما بينها هي إلى مقدار من التجاذب الباطني والظاهري يُقيم صُلْبَها، ولا يتركها لذلك الإطار أشتاتا متنافرة ضعيفة التأثير.

تَقْسيمُ أَجْزاءِ الرِّسالَتَيْنِ

[١٣] لقد جمع بين الشاعرين المنع الذي أمّاه؛ فإنه لما اقتضى (الوعيدُ= الذمُّ) (متوعِّدًا= ذامًّا) و(متوعَّدًا = مذمومًا) و(شُهودًا) تَحمِلُ مِنْ كُلٍّ منهما أو إليه وتحكم له أو عليه -وإلا تَنافَتْ أفعالُهما وضاعت بينهما رسالة الوعيد أو الذم- قَسم الشاعران أجزاء رسالتيهما على ثلاثة الأقسام المنطقية السابقة؛ فجعل الأعشى أجزاء رسالته الخمس والثلاثين

---

[1] ابن دريد: ٣٣٨- ٣٣٩، وكذلك ١٠٦.

جملة[1]: عشر جملٍ منها لنفسه هو منضما إليه أحيانا قومه (٢٩٪)، وسبع عشرة جملة منها ليزيد منضمًّا إليه أحيانا قومه كذلك (٤٩٪)، وثماني جمل منها للشهود (٢٣٪)- وجعل جرير أجزاءَ رسالته العشرَ الجملِ: سبع جملٍ منها للأخطل وقومه (٧٠٪)، وجملتين اثنتين منها له هو وحده (٢٠٪)، وجملة واحدة منها للشهود (١٠٪).

ولكن كانت لمنهَجِي الشاعرين في تقسيم الجمل على أصحابها، اللذين يتحرك بهما تفكيرهما- معالمُ تحتاج إلى فضل تأمل فيما يأتي.

أَصْحابُ الْأَقْسامِ

[١٤] لقد أدار الأعشى على خصيمه يزيد سبع عشرة جملة (٤٩٪) مسندة إلى ضمير خطابه، وعلى نفسه عشر جمل (٢٩٪) مسندة إلى ضمير تكلمه، وعلى الشهود ثماني جمل (٢٣٪) مسندة إلى أسماء القتال والمقاتلين المعرفة بأل والموصولة وضمائر غيبتهم. وأدار جرير على خصيمه الأخطل سبع جمل (٧٠٪) مسندة أربع مرات إلى ضمير خطابه، و مرة إلى لقبه المنبوز به، ومرة إلى اسم استفهام عن بعض هموم قومه الخبيثة، ومرة إلى ضمير غيبته- وعلى نفسه جملتين اثنتين (٢٠ %) مسندتين إلى ضمير تكلمه، وعلى الشهود جملة واحدة (١٠٪) مسندة إلى معرف بأل.

لقد أدارا جميعا أكبر أقسام أجزاء رسالتيهما على خصيميهما، ولكنهما اختلفا في نسبة تلك الأكبريَّة فكانت عند جرير أكبر منها عند الأعشى، وما ذلك إلا من انصراف جرير إلى

---

[1] الجملة في هذا البحث مُرَكَّبٌ لُغَوِيٌّ مِنْ عُنْصُرَيْنِ مُؤَسِّسَيْنِ بينهما عَلاقة إسناد، ربما انضافت إليهما أحدهما أو كليهما عناصرُ مُكَمِّلَةٌ (مُتَعَلِّقات)، وربما انضافت إلى تلك العناصر كلها أو بعضها عناصرُ أخرى مُلَوِّنَةٌ (أَدَوات).

التنكيل بخصيمه وتحييره عن وجوه الجواب وإخراسه أمام المتلقين، وتمسك الأعشى بتنبيه خصيمه إلى أنه يعاند الدنيا كلها بما ينتوي لا الأعشى وقومه وحدهم، وشتانَ ما هما!

لقد كان التوفيق إلى أخبث التهم والسباب والشتائم والتَّعايير والتَّغاييظ، هو هَمَّ جرير اللازم في أجزاء رسالته، حتى كاد لا يدع لغيرها مكانا إلا أن يكون من بابتها، كما فيما اختاره للشهادة على ما بينه وبين خصيمه؛ فقد كان مقالةً للخليفة نفسه في سب خصمه، إن تكن أخف إقذاعا يكفها أن تكون مقالة الخليفة المسموع المتبوع.

ولقد خَيَّلَ لي الأعشى بإلحاحه على إسناد جمل خصيمه إلى ضمير خطابه، أن جملةَ الإطار الآنفة الذكر " أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَيْبانَ مَأْلُكَةً (...)"، هي نفسها مسندةٌ إلى ضمير خطاب يزيد نفسه كذلك، وكأنه بما طمع فيه وطمح إليه غافل عن حقيقة نفسه؛ فأراد الأعشى أن يريه إياها في مرآته، ولسان حاله يقول: نَبِّهْ نفسَك، وهذا ألطفُ تأتيا إلى إنجاز المراد!

تَتابُعُ الْأَقْسامِ

[١٥] وعلى حين حرص الأعشى على مزج جمل كل طرف من أطراف أجزاء رسالته (يزيد، الأعشى، الشهود) بجمل غيره سريعا ومدافعتها ومنافاتها لكيلا تنفرد بمجال الصراع فتقطع بمعنى واحد يفسد عليه مراده من وعيده؛ فبدأ بندائه ليزيد حتى ينتبه إلى ما سيقوله له، وختم بمقالته لبعض خصومه حتى يرتدعوا، ووالى الجمل بين البدء والختم على النحو الآتي:

الأعشى (١) -يزيد (٢، ٣، ٤، ٥، ٦) -الأعشى (٧) -القتال (٨، ٩، ١٠) -الأعشى (١١، ١٢) -يزيد (١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧) -القتال (١٨، ١٩) -يزيد (٢٠) -القتال (٢١) -يزيد (٢٢، ٢٣) -الأعشى (٢٤) -يزيد (٢٥) -الأعشى (٢٦، ٢٧) -يزيد (٢٨) -القتال (٢٩) -الأعشى (٣٠) -يزيد (٣١، ٣٢) -الأعشى (٣٣) -القتال (٣٤) -الأعشى (٣٥).

لم يعبأ جرير بظهور جمل طرف من أطراف أجزاء رسالته (الأخطل، جرير، الشهود)، على غيره، وانفراده بمجال الصراع الذي لا فخر فيه لفاخر، بل لا شيء غير العار؛ فبدأ وختم بنفي القدرة عن خصيمه، ووالى بين البدء والختم الجمل على النحو الآتي:

الأخطل (١، ٢) -جرير (٣) -الشهود (٤) -الأخطل (٥) -جرير (٦) -الأخطل (٧، ٨، ٩، ١٠).

أَزْمانُ الْأَجْزاءِ

[١٦] ثم على حين وجه الأعشى أكثر جمله (٨٣٪) إلى المستقبل وأقلها إلى الماضي (١٧٪)، وجه جرير نصف جمله إلى المستقبل وقرابة نصفها إلى الماضي.

إن المصيبة عند الأعشى مخشية لم تقع بعد، فإن فعل خصيمه شيئا غدًا فعل هو مثله أو أشد منه، وشهد القتال عندئذ للمُحق على المُبطل، وفي الوقعات السالفة منهم لأعدائهم شاهد عدل لا يكذب، فأما صغائر الجَهَلات الواقعة فينبغي للرؤساء أن يغضوا عنها ولا يُكَبِّروها؛ وفي سبيل ذلك تلطف الأعشى غاية التلطف؛ فأخرج جملا كثيرة ملتبسة الأزمنة:

فمنها ما ظاهره الحاضر المستمر ولكن باطنه مستقبل منتظر، كما في الجمل ٤- ٦ "تُغْري بِنا (...)"، "تُرْدي"، "تَعْتَزِلُ"؛ فربما أيقن من بلغه ما كان من يزيد حقا أن الأعشى أراد هذا الحاضر، ولكنَّ في طَرَفِ الجملة الأولى ظرفًا هو "عند" مضافًا إلى شيء لم يحدث بعد هو "اللقاء"، كفيلا بصرف من لم يبلغه ما كان من يزيد عن الحاضر إلى المستقبل.

ومنها ما ظاهره الماضي المنقطع ولكن باطنه مستقبل منتظر، كما في الجملة ١٨ "قَدْ كانَ في أَهْلِ كَهْفٍ (...) وَالْجاشِرِيَّةِ مَنْ يَسْعى وَيَنْتَضِلُ"؛ فربما ظن المتلقي سريعا أن الأعشى يمتدح هؤلاء القوم بما استمر من فرسانهم ورماتهم قديما، ولكن الأعشى يرمي بين طيات هذه الجملة جملة شرط ماضوية ظاهرا مستقبلية باطنًا هي ١٩ "إِنْ هُمُ قَعَدوا" قبلها أداة

شرطها المستغنية عن جوابها بما اعترضته؛ فيرتد المتلقي إلى نفسه، ويتبين أنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك، وأن الأعشى يريدهم ألا يفعلوا، أو يمدحهم بأنْ لَنْ يفعلوا.

ومنها ما ظاهره الحاضر المستمر أو المستقبل المنتظر وباطنه الماضي المنقطع، كما في الجملة ٢٤ "إِنّا نُقاتِلُهُمْ حَتّى نُقَتِّلَهُمْ عِنْدَ اللِّقاءِ وَهُمْ جارُوا وَهُمْ جَهِلُوا"؛ فربما ظن المتلقي أن بين الأعشى وقومه وهؤلاء الجائرين الجاهلين الذين يتحدث عنهم بهذه الجملة، حربا مشتعلة الآن أو غدا، ولاسيما أن "أل" التي في "اللِّقاء" في سياق الفعل المضارع، يجوز أن تكون عهدية متجهة إلى الآن، وأن تكون جنسية متجهة إلى الغد- حتى إذا ما وضعها المتلقي في سياقها بعد الجملة ٢٣ السابقة لها "اسْأَلْ رَبيعَةَ عَنّا كَيْفَ نَفْتَعِلُ"، كانت عهدية متجهة إلى الماضي؛ فعلم أنه أراد سابق حربهم لهم.

ومنها ما ظاهره الإطلاق من حدود الزمان وباطنه ماض منقطع، كما في الجملة ٣٣ "نَحْنُ الْفَوارِسُ يَوْمَ الْعَيْنِ ضاحِيَةً جَنْبَيْ فُطَيْمَةَ لا مِيلٌ وَلا عُزُلُ"؛ فربما تُلُقِّيَتْ مُطْلَقَةً على أنها أصل راسخ لا يتغير، تَمَدَّحَ فيها الأعشى بثباتهم وكمالهم، ثم انْتُبِهَ إلى ما في أول أحوال الخبر من تقييد ذلك بزمان "يَوْمِ العَيْنِ" الماضي.

وفي ذلك من سياسة المتلقين مهارة واضحة؛ فربما حَمَلَتِ المتوعَّد وغيرَه فظاظةُ المتوعِّد على إهمال الوعيد واحتقاره واطِّراحه؛ فلم يَحْلَ مِنْ وعيده بطائل؛ فَشَدَّ الأعشى وأَرْخى وأَظْهَرَ وأَخْفى وداری وماری؛ فلم يكن لجاهل مُتَفَلِّتٍ مُغامِرٍ غِرّ مُنْخَدِعٍ مُنْدَفِعٍ أن يفهمه سريعا، حتى يكون العالِمُ الحكيمُ الرَّزِينُ الرَّجيح هو الذي يخبره بمراده وبجوابه إليه في وقت واحد معا!

وإن المصيبة عند جرير -إن كانت ثَمَّ مصيبة!- هي هي في الماضي والمستقبل؛ فَعَظامَةُ جرير التي بعثته بشريف الخصال وحملته على كريم الفعال، لن تزال تحمله عليهما، وحَقارَةُ خصيمه التي بعثته بوضيع الخصال وحملته على لئيم الفعال، لن تزال تحمله عليهما، ولا مَنْدوحةَ

لغير ذلك؛ فالطبع غلاب، ولا أمل في غير ذلك؛ "وَتَأْبى الطِّباعُ عَلى النّاقِلِ"! وفي سبيل ذلك مضى جرير مُصَرِّحًا غير مضطر إلى تلطف الأعشى، غير أنه أخرج جملته الثالثة التي كانت محور فقرته الأولى "إِنّي امْرُؤٌ (...) عَيْلانَا"، بحيث اجتمع فيها الزمنان المستوليان على أجزاء رسالته؛ فوجه نعتها الأول "لَمْ أُرِدْ (...)" جهة الماضي، ونعتها الآخر "أَحْمى حِماي بِأَعْلى الْمَجْدِ مَنْزِلَتي (...)" جهة الحاضر المستمر إلى المستقبل؛ فبدا الزمان فيها كليًّا فَوْقيًّا، ولاسيما أن جملة النعت الآخر تحتمل كما سبق، أن تكون حالا من أيٍّ من ضميرَيْ ["لَمْ أُرِدْ"، و"أُناوِئُه"].

تَصَدُّرُ الْمُتَكَلِّمِينَ

[١٧] ثم اجتمع الأعشى في أربع جمل (١١٪) وجرير في جملة واحدة (١٠٪)، على صرف المتلقي عن تلك الأزمان قليلا إلى الإنسان بتصدير المسندات إليها فيها وتحويلها هي وحدها من الفعلية المستولية على سائر الجمل، إلى الاسمية:

قال الأعشى :

٢٤ "إِنّا نُقاتِلُهُمْ (...)".

٢٦ "إِنّا لِأَمْثالِكُمْ (...) قُتُلُ (...)".

٣٠ "إِنّي لَعَمْرُ الَّذي (...) لَنَقْتُلَنْ مِثْلَهُ مِنْكُمْ (...)".

٣٣ "نَحْنُ الْفَوارِسُ (...)".

وقال جرير :

٣ "إِنّي امْرُؤٌ لَمْ أُرِدْ (...) أَحْمي حِمايَ (...)".

ولم يكن المُصَدَّر فيها كلها غير ضمير تكلم الشاعرين وكأنما انحصرت فيهما وحدهما حقيقة الإنسان الفاعل، فأما خصيماهما فربما دعتهما إلى الفعل -إِمّا فَعَلا- دواعٍ خارجة عن حقائقهما.

لقد كان الأعشى مَعْنيًّا بأساليب سياسة الناس مُعْجَبًا بخبرائها الموفقين إلى مساعيهم على رغم المكر والحرج[1]، فوجب الانتباه إلى ما في تأخيره لهذه الجمل ولاسيما الجملة ٣٣ إلى أواخر أجزاء الرسالة، من مندوحة التمهيد لها بما قبلها، لكيلا ينقلب الفخر على الفاخر ولا ينجز الوعيد مراده!

ثم قد ميز منها الجملة الثالثة ٣٠، بإفراد المسند إليه "إِنِّي"، على رغم رجوع الضمير إليه من جملة المسند مجموعا "لَنَقْتُلَنَّ". إن الأعشى هو الغاضب في هذه القصيدة لا غيره، وربما ركن يزيدُ المتوعَّدُ إلى ألّا فعلَ ولا قدرةَ على شيء لشخص واحد مهما كان غضبه، فنبه الأعشى بضمير تكلمه في "إِنِّي" على أنه السيد المطاع في قومه، وبضمير تكلمه مع قومه في "لَنَقْتُلَنْ" على أن قومه لن يتركوه، فمن العقل ألا يغري يزيد المُتَوَعَّدُ أولياءَ المقتول المهمل بأن يقتلوا به أحد رؤساء قوم الأعشى، وإلا انتصف الأعشى منه ومنهم، وانتصر!

ثم قد ميز منها كذلك الجملة الرابعة الأخيره ٣٣، بإخلائها من أداة التوكيد "إنَّ"، فخرجت في ظاهرها مخرج النتيجة التي لا تحتاج إلى اجتهاد، ولكنها في باطنها مقدمة ما سبقها من هذه الجمل، فلو لم يستقر في قلوب الأعشى وقومه أنهم الفوارس الذين تجلَّت عن قدرتهم وغلَبَتِهِم الحروبُ، لم يجترئ على الوعيد.

---

[1] يدل على ذلك تأمل ديوانه، ولاسيما عينيته -الأعشى: ١٠١-:

"بانَتْ سُعادُ وَأَمْسى حَبْلُها انْقَطَعا وَاحْتَلَّتِ الْغَمْرَ فَالْجُدَّيْنِ فَالْفَرَعَا"،

وداليته -الأعشى: ٢٢٧-:

"أَثْوى وَأَقْصَرَ لَيْلَةً لِيُزَوَّدَا وَمَضى وَأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدَا".

أما جرير فقد كان خبيرا بإيذاء الناس، وليس أشد إيذاء لهم من إنكار حقائقهم وإثبات أباطيل غيرهم أو حقائقهم؛ فوجب الانتباه إلى تقديمه لنفسه وحده في الجملة ٣ وإهماله لغيره، ثم لإعادته ضميري جملتي النعتين بالتكلم المناسب للمسند إليه المُصَدَّر "إِنّي"، بدلا من الغيبة المناسبة للمنعوت القريب "امْرُؤٌ"، حتى ملأ الجملة بنفسه الممتلئة بنفسها!

تَفْقيرُ الْفَصْلَيْنِ

[١٨] ولقد أكمن الشاعران للمتأمل وراء جمل أجزاء رسالتيهما، فقرتين متقابلتين:

كانت الفقرة الأولى عند الأعشى من الجمل التسع عشرة الأولى (١-١٩)، في تحقير ما عليه يزيد، وقد شَغَلَتْ تسعة الأبيات الأولى، وكان مِحْورها الذي دارت في فلكه منجذبةً إليه قَسَم الأعشى أنَّ يزيد خاذل من يغريهم بالقتل -لا محالة- بقوله:

"لَأَعْرِفَنَّكَ إِنْ جَدَّ النَّفيرُ بِنا وَشُبَّتِ الْحَرْبُ بِالطُّوّافِ وَاحْتَمَلُوا

كَناطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيَفْلِقَها فَلَمْ يَضِرْها وَأَوْهى قَرْنَهُ الْوَعِلُ

لَأَعْرِفَنَّكَ إِنْ جَدَّتْ عَداوَتُنا وَالْتُمِسَ النَّصْرُ مِنْكُمْ عَوْضُ تُحْتَمَلُ".

وكانت الفقرة الأولى عند جرير من الجمل الخمس الأولى (١-٥)، في تعظيم ما هو نفسه عليه، وقد شغلت خمسة الأبيات الأولى، وكان محورها الذي دارت في فلكه نفي جرير الظلم عن نفسه وإثبات الجرأة والحماية، بقوله:

"إِنّي امْرُؤٌ لَمْ أُرِدْ فيمَنْ أُناوِئُهُ لِلنّاسِ ظُلْمًا وَلا لِلْحَرْبِ إِدْهانَا

أَحْمي حِمايَ بِأَعْلى الْمَجْدِ مَنْزِلَتي مِنْ خِنْدِفٍ وَالذُّرا مِنْ قَيْسِ عَيْلانَا".

وكانت الفقرة الآخرة عند الأعشى الجمل الست عشرة الأخرى (٢٠-٣٥)، في تعظيم ما هو نفسه عليه، وقد شغلت الثلاثة عشر بيتا الأخيرة، وكان مِحْورها الذي درات في فلكه

منجذبةً إليه قَسَم الأعشى أنه مُنْتصفٌ -لا محالة- مِنْ يزيد ومَنْ أطاعه، إذا مضى إغراؤه، بقوله:

"إِنّي لَعَمْرُ الَّذي خَطَّتْ مَناسِمُها تَخْدي وَسيقَ إِلَيْهِ الْباقِرُ الْغُيُلُ
لَئِنْ قَتَلْتُمْ عَميدًا لَمْ يَكُنْ صَدَدًا لَنَقْتُلَنْ مِثْلَهُ مِنْكُمْ فَنَمْتَثِلُ
لَئِنْ مُنيتَ بِنا عَنْ غِبِّ مَعْرَكَةٍ لَمْ تُلْفِنا مِنْ دِماءِ الْقَوْمِ نَنْتَفِلُ".

وكانت الفقرة الآخرة عند جرير الجمل الخمس الآخرة (٦-١٠)، في تحقير ما عليه الأخطل، وقد شغلت أربعة الأبيات الأخيرة، وكان محورها الذي دارت في فلكه منجذبة إليه تأبيد نفي جرير إدراك المجد عن الأخطل، بقوله:

"لَنْ تُدْرِكوا الْمَجْدَ أَوْ تَشْروا عَباءَتَكُمْ بِالْخَزِّ أَوْ تَجْعَلوا التَّنّومَ ضَمْرانَا".

الْفِقَرُ وَأَبْيَاتُهَا

[١٩] لقد اجتمع الشاعران بتقسيم جمل أجزاء رسالتيهما على فقرتين، على ملاءمة ظاهرة الازدواج الإيقاعي الطبيعية من حولهما، وكأن آخرة الفقرتين صدى صوت أولاهما المُجيبُه، وَصْلًا للمتلقي بمجرى رسالتيهما؛ عسى أن يتأمل أجزاءهما، ويطابق بعضها ببعض، تحصيلا لمقصديهما.

واجتمعا كذلك على زيادة نصيب فقرة تعظيم كل منهما لما هو عليه من الأبيات على قرينتها، ترويجا لقوة ما هما عليه (الصوت الداعي)، وضعف ما خصيماهما عليه (الصدى المجيب). ولكنهما افترقا فيما وراء ذلك:

مَنازِلُ الْفِقَرِ

[٢٠] فعلى حين قدم الأعشى فقرة تحقير ما عليه خصيمه على فقرة تعظيم ما هو عليه؛ فدل على أن حقارة ما عليه يزيد هي التي حملته على تعظيم ما هو عليه، ولولا تلك ما كان هذا- قدم جرير فقرة تعظيم ما هو عليه على فقرة تحقير ما عليه خصيمه؛ فدل على أن عظمة ما هو عليه هي التي حملته على تحقير ما عليه خصيمه، ولولا تلك ما كان هذا! لقد أراد الأعشى لنفسه ولخصيمه السلامة؛ فنفث في روعه أخيرا ألا قدرة له عليه، وأراد جرير لخصيمه الندامة؛ فقذف في أذنه أخيرا ألا خير له في نفسه!

مِحْوَرا فِقْرَتَيِ الْأَعْشَى

[٢١] ثم أقسم الأعشى في جملة محور فقرته الأولى، على ما لا يملك من خذلان يزيد، مثلما أقسم في جملة محور فقرته الآخرة، على ما يملك من الانتصاف منه، وأخرج المقسم عليه فيهما جميعا جملتين منسلكتين في جملة قسمية واحدة، على النحو الآتي:

أما الجملتان في الفقرة الأولى ["لَأَعْرِفَنَّكَ (...)"، و"لَأَعْرِفَنَّكَ (...)"]، فقد كانتا جميعا جوابين متعاطفين بعاطف محذوف موضعه قبل "لَأَعْرِفَنَّكَ (...)" الآخرة، لقسم واحد محذوف، وكادت الآخرة منهما -لولا بعض مكملاتهما- تكون توكيدا لفظيا للأولى، والتوكيد اللفظي بمنزلة الصدى الحاكي، والمؤكد قبله بمنزلة الصوت المحكي.

وأما الجملتان في الفقرة الآخرة [" لَنَقْتُلَنْ (...)"، و"لَمْ تُلْفِنا (...)"]، فقد كانتا جميعا جوابين متعاطفين بعاطفٍ محذوفٍ مَوْضِعُه قَبْلَ "لَئِنْ مُنيتَ (...)"، لِقَسَمٍ واحدٍ مذكورٍ "لَعَمْرُ الَّذي (...)" في خبر اسم إن في "إِنّي (...)" المحيطة بالجملة القسمية كلها مهما تعددت أجوبتها.

ثم علق الأعشى أجوبة جملتيه القسميتين جميعا بشروط وقوعها: فاعترض جملته القسمية في الفقرة الأولى بقوله: "إِنْ جَدَّ النَّفيرُ (...)"، في أثناء جوابها الأول- وقوله: "إِنْ جَدَّتْ

عَداوَتُنا (...)" في أثناء جوابها الآخر. واعترض جملته القسمية في الفقرة الآخرة بقوله: "إِنْ قَتَلْتُمْ عَميدًا (...)"، في أثناء جوابها الأول- وقوله: "إِنْ مُنيتَ بِنا (...)" في أثناء جوابها الآخر. وجعل اعتراضاته كلها بجمل شرطية فعلية ماضوية لا أداة لها غير "إِنْ".

ولا اعتراض على هذا التخريج بامتناع نفي المضارع بـ"لم" في جواب القسم "لأنهم ينفونه بما يجوز حذفه للاختصار (...)، والعامل الحرفي لا يحذف مع بقاء عمله، وإن أبطلوا العمل لم يتعين النافي المحذوف"[1]- الذي يقتضي جَعْلَ جواب القسم "لَمْ تُلْفِنا..."، جواب الشرط قبله "لَئِنْ مُنيتَ بِنا (...)"؛ فمراعاة واقع اتساق الشعر على ما تبين آنفا أهم من مراعاة جواز حذف النافي من جواب القسم، ثم قد يكون هذا التركيب مما وقع شاذا في هذا الباب[2].

ثم لا اعتراض على هذا التخريج أيضا برواية البيت على النحو الآتي:

" لَئِنْ مُنيتَ بِنا عَنْ غِبِّ مَعْرَكَةٍ لا تُلْفِنا مِنْ دِماءِ الْقَوْمِ نَنْتَفِلُ"،

شاهدا "على أنه يجوز بقلة في الشعر أن يكون الجواب للشرط مع تأخره عن القسم؛ فإن لام [لَئِنْ] موطئة للقسم، وقوله: [لا تلفنا] جواب الشرط دون القسم، بدليل الجزم"[3]؛ ففضلا عن أَنَّ من أصول اللغة أَلّا تُسْقِطَ رِوايَةٌ رِوايَةً، ينبغي أن تحمل هذه الرواية متى صحت، على أنها من تقصير ياء المد الطويلة[4]، وألا جزم ثَمَّ ولا جواب للشرط إلا المحذوف المدلول عليه بجواب القسم؛ هذا ما يقتضيه اتساق الشعر كذلك.

ولقد أحاط الأعشى جملته القسمية في الفقرة الأولى ببيتين كأنهما من تشابههما ظاهرا وباطنا بيت واحد، هما قوله:

---

[1] الرضي "٢": ٢/ ٣٣٩.

[2] حسن: ٤/ ٤٨٤.

[3] البغدادي: ١١/ ٣٢٧، وحسن: ٤/ ٤٨٧.

[4] ابن عصفور: ١١٩، وما بعدها.

"تُغْرِي بِنا رَهْطَ مَسْعودٍ وَإِخْوَتِهِ عِنْدَ اللِّقاءِ فَتُردي ثُمَّ تَعْتَزِلُ"،

"تُلْزِمُ أَرْماحَ ذي الْجَدَّيْنِ سَوْرَتَنا عِنْدَ اللِّقاءِ فَتُرديهِمْ وَتَعْتَزِلُ"؛

ففعل إلزامه سَوْرتهم في اللاحق مجاز عن فعل إغرائه بهم في السابق، وأرماح ذي الجدين في اللاحق مجاز عن رهط مسعود وإخوته في السابق، والظرف ومضافه "عِنْدَ اللِّقاءِ" هما هما فيهما، وأداة العطف "الفاء" هي هي فيهما، وفعل إِرْدائه هو هو فيهما، وضمير الْمُرْدَيْنَ في اللاحق محذوف من السابق مفهوم سريعا برجوعه إلى رهط مسعود، والعاطف "الواو" في اللاحق بمنزلة العاطف "ثم" في اللاحق، وفعل اعتزاله هو هو فيهما- فأغرق جملته القسمية الأولى في دُوّامة التكرار، على حين لم يفعل مثل ذلك بجملته القسمية الآخرة.

ولكن مع ذلك كله تظل جملة الأعشى القسمية الأولى فعليةً قطبُ حركتها فعله المتصدر فيها تقديرا "أُقْسِمُ"، حتى إنه لما حُذِفَ تَصَدَّرَ جملتي جوابها فعلاه "أَعْرِف (...) أَعْرِف " كذلك، إيهاما بأن فعل خصيمه هو أصل كل تحقير؛ عسى أن يُغَيَّرَ- على حين جملتُه القسميةُ الآخرة اسمية قطبُ حركتها اسمه (ضميره) المتصدر فيها "إني"، إيهاما بأنه هو أصل كل تعظيم؛ عسى أن يُتَمَسَّكَ به!

ثم إن الأعشى بالغ في تقصير جملة القسم من الجملة القسمية الأولى، حتى حذفها مكتفيا بلام القسم في ["لَأَعْرِفَنَّكَ (...)"، و"لَأَعرِفَنَّكَ (...)"]، على حين بالغ في ذكر جملة القسم من الجملة القسمية الأخرى "لَعَمْرُ الَّذي (...)"، حتى شغلت بيتا كاملا، مستبدلا بالمقسمِ به البيتِ الحرام اسمًا موصولا ذَكَرَ في صِلَتِهِ طَرَفًا من مناسك الحج إليه.

ثم مَيَّزَ الأعشى جملة الجواب الأول من الجملة القسمية الأولى بما أطال من بيان المقسم عليه فيها بأنه "كَناطِحٍ صَخْرَةً (...)" حتى شغل بيتا كاملا صار به مثلا شرودا، على حين اكتفى في جملة الجواب الأول من الجملة القسمية الآخرة بأن المقسم عليه سيكون "مِثْلَهُ مِنْكُمْ".

ثم رمى الأعشى الاعتراض في الجملة القسمية الأولى بين أجزاء جملتي جوابها ["لَأَعْرِفَنَّكَ -إِنْ جَدَّ (...)- كَاطِحٍ (...)"، و"لَأَعْرِفَنَّكَ -إِنْ جَدَّتْ (...)- تُحْتَمَلُ"]؛ فكان اعتراضا لها من خلال اعتراض جملتي جوابها، على حين جعل الاعتراض في الجملة القسمية الآخرة قبل كلٍّ من جملتي جوابها ["إِنْ قَتَلْتُمْ (...)- لَنَقْتُلَنْ مِثْلَهُ"، "إِنْ مُنِيتَ بِنا (...)- لَمْ تُلْفِنا (...)"]؛ فكان اعتراضا لها هي لا لجملتي جوابها.

ثم جعل الأعشى اعتراضه في الجملة القسمية الأولى، بخمس جمل: ثلاث ["جَدَّ النَّفِيرُ بِنا"، "شُبَّتِ الْحَرْبُ"، "احْتَمَلوا "]، ثم اثنتان ["جَدَّتْ عَداوَتُنا"، "الْتُمِسَ النَّصْرُ مِنْكُمْ"]، على حين جعل اعتراضه في الجملة القسمية الآخرة، بجملتين: واحدة "قَتَلْتُمْ عَمِيدًا لَمْ يَكُنْ صَدَدًا"، ثم واحدة "مُنِيتَ بِنا عَنْ غِبِّ مَعْرَكَةٍ".

مِحْوَرا فِقْرَتَيْ جَرِيرٍ

[٢٢] ثم أقبل جرير يميز جملَتَيْ محورَيْ فقرتَيْه بعضهما من بعض على النحو الآتي:

أولا: أسند جرير أولاهما إلى ضمير تكلمه "إِنِّي (...)" والآخرة إلى ضمير خطاب خصيمه وقومه "لَنْ تُدْرِكوا (...)"، على غير ما فعل الأعشى؛ فلم تكن به رغبة في تغيير حال خصيمه وقومه إلى أحسن منها، بل في كبتهم بسوئها فلا تقوم له منهم قائمة أبدا، ثم في جعل نفسه بضمير تكلمه خصيمهم بضمير خطابهم، دلالة للمتلقي على أنه وحده كِفاؤهم جميعا معا.

ثانيا: قدم جرير المسند إليه في جملة الفقرة الأولى على المسند وجعلها اسميةً قطبُ حركتها اسمه (ضميره)، إيهاما بأنه هو أصل كل تعظيم وحَرِيٌّ بأن يقدر قدره، على حين صَدَّرَ الفعل في جملة الفقرة الآخرة وجعلها فعليةً قطبُ حركتها فعل خصيمه وقومه المنفي عنهم، إيهاما بأن أفعالهم هي أصل كل تحقير وحرية بأن تُغَيَّرَ! ولما كان قد عَكَسَ ترتيب الأعشى لفقرتيه، كان في هذا الوجه من التمييز جاريا مجراه.

ثانيا: زاد جرير جملة الفقرة الأولى تركيباً دون جملة الفقرة الآخرة، وحسبي أن أجد الجملة الأولى مبسوطة على بيتين والآخرة مقبوضة في بيت واحد، على حين بسط الأعشى قرينتيهما عنده كلا منهما على ثلاثة أبيات.

لقد أسند في جملة فقرته الأولى إلى ضمير تكلمه نكرةً مشهورةً بالتمهيد للكلام "امْرُؤٌ"، تتيح له أن يضيف إليها ما يتيسر له شيئا فشيئا، ثم نعتها بجملة أسند فيها إلى ضمير تكلمه معنى العدل والشجاعة "لَمْ أُرِدْ (...)"، ثم بجملة أسند فيها إلى ضمير تكلمه كذلك معنى الحماية والمجد " أَحْمي (...)"، تحتمل أن تكون حالا من أحد ضميري تكلمه اللذين في جملة النعت السابقة ["لَمْ أُرِدْ (...)"، و"أُناوِئُه (...)"] ولاسيما الآخر، وجعل فيها جارا ومجرورا "بِأَعْلى الْمَجْدِ" يحتمل أن يكون حالا من المضاف في "حِمايَ" قبله، وأن يكون خبرا مقدما على مبتدئه والمعطوف عليه "مَنْزِلَتي (...) وَالذُّرا (...)" في جملة حال من فاعل "أَحْمي" أو المضاف إليه في "حِمايَ" الذي مضافه بمنزلة جزئه، وهو الأرجح لإلحاحه على التقديم والتأخير في جملة هذه الفقرة كلها:

١ "ظُلْمًا لِلنّاسِ= لِلنّاسِ ظُلْمًا"،

٢ "إِدْهانًا لِلْحَرْبِ= لِلْحَرْبِ إِدْهانا"،

٣ "مَنْزِلَتي (...) بِأَعْلى الْمَجْدِ= بِأَعْلى الْمَجْدِ مَنْزِلَتي (...)"،

بتقديم معمولي المصدرين عليهما أولا وثانيا، وخبر المبتدأ عليه ثالثا، تمسكا بما وراء التقديم في المركبين الأولين من معنى الاحتراس الذي في قصر غايته على ما سيأتي من معنى الحماية، تصديقا لقوله مرة في جواب من سأله عن شتمه الناس: "لا أَبْتَدي وَلكِنْ أَعْتَدي"[١] -أي أُجازي!- أخذا بمشاكلة اعتداء المنتصف لاعتداء الجائر في قول الحق - سبحانه، وتعالى!-

---

[١] ابن قتيبة: ١/ ٤٦٦، وقد نبه محققه العلامة في حاشية الصفحة، على علاقة كلمة جرير بآية سورة البقرة.

: "مَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدى عَلَيْكُمْ"[1]، وتمسكا بما وراء التقديم في المركب الثالث من معنى التمدح الذي في قصر منزلته من أهله على أعلى المجد. وألح كذلك على عطف الأشباه على الأشباه في آخر البيتين:

١ "لِلنّاسِ ظُلْمًا= وَلا لِلْحَرْبِ إِدْهانا"،

٢ "مَنْزِلَتي مِنْ خِنْدِفٍ= وَالذُّرا مِنْ قَيْسِ عَيْلانا"،

إيغالا في معنى التمدح، ولاسيما في التعبير الأول بآخر البيت الأول الذي أضاف إلى العدلِ الشجاعةَ وهما مختلفان، على حين لم يضف التعبير الآخر -مهما كان- إلى المنزلة من أُمِّ قومه إلا المنزلةَ من أَبيهم، وهما متكاملان!

فعل جرير ذلك كله بجملة الفقرة الأولى على حين أسند في جملة فقرته الآخرة تأبيد العجز عن إدراك المجد إلى ضمير خطاب خصيمه وقومه، وإن استمر منه هنا كذلك عطف الشبيه على الشبيه في آخر البيت، وهو المظهر الوحيد الذي يمكن عده في وجوه الاتفاق، ولكن لا ظهور له مع وجوه الافتراق العديدة!

ثالثا: أَغْمَضَ جرير تركيب جملة الفقرة الآخرة دون تركيب جملة الفقرة الأولى من عدة جهات مختلفة، منها "أَوْ" الأولى التي يقتضي ظاهر سياقها أن تكون بمعنى "إِلى"، ويقتضي باطن سياقها أن تكون بمعنى "إِلّا"؛ فإن إدراك المجد الذي هو عند عامة الناس مما يحصل شيئا فشيئا، كما في قول الملك الضليل الْحاضِرِهِمْ سريعا:

"لَأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ الْمُنى فَما انْقادَتِ الْآمالُ إِلّا لِصابِرِ"[2]،

يقتضي أن تكون "أو" في بيت جرير كما كانت في بيت الملك الضليل بمعنى "إِلى" الملائم لما يحصل شيئا فشيئا. ولكن الملائم لقصد جرير من رسالته بيان أن خصيمه وقومه لم يسمعوا

---

[1] البقرة: من الآية ١٩٤.

[2] ابن هشام: ١/ ٦٤.

بالمجد أصلا بله أن يكونوا بسبيله، وألّا حيلةَ لهم إليه إذا خَطَرَ لهم مرة وتَمَنَّوْهُ تَمَنِّيًا إِلّا أَنْ تنشق لهم السماء عنه فجأة وهم في وَهْدَةِ الخبال كما انشقت لسلفهم عن المائدة، وفي تأويل "أو" هنا بمعنى "إِلى" كما كانت في بيت الملك الضليل، تضييعٌ لحق هذا الشعر، وقياسٌ لما لا يَنقاس، وتشبيهٌ لما لا يَتشبّه.

ومن جهات الإغماض أيضا الفعل "تَشْروا" الذي يجوز أن يؤول بمعنى "تَبيعوا" فتكون الباء داخلة على المأخوذ، وبمعنى "تبْتاعوا" فتكون الباء داخلة على المتروك، والأول أكثر كما في قول الحق -سبحانه، وتعالى!-: "لَبِئْسَما شَرَوْا به أَنْفُسَهُمْ"[1] -أي لبئْسما باعُوا به أَنفسَهم[2]- وهو ما يغري به تحكيم آخر البيت في أوله؛ فالفعل "تَجْعَلوا" بمعنى "تُصَيِّروا وتُحَوِّلوا"، و"التَّنّوم" و"الضَّمْران" من صغار الشجر، أولهما يتفلق عن حب يستعمل في شؤون كثيرة ربما عيب على مستعمله بعضها، وآخرهما ذو خشب يُحْتَطَبُ ولا أراه بعيدا من "الضومران أو الضيمران (ريحان البر)[3]؛ فقد اشترط جرير بآخر بيته هذا "أَوْ تَجْعَلوا التَّنّومَ ضَمْرانا"، على خصيمه وقومه ليدركوا المجد -ولن يدركوه- أن يحولوا التنوم وهو المذكور أولا، إلى ضمران وهو المذكور آخرا؛ فيكون تأويل "تَشْروا" بـ"تَبيعوا" على الأكثر فيه، من مناسبة أول البيت لآخره.

ولكن في ذلك تضييعا لحق الشعر؛ فالعباءة من ألبسة العرب والخز من ألبسة العجم[4]، ولم يرد جرير إلا تعيير خصيمه العربي وقومه -وهم نصارى- بتشبههم بالعجم كراهةً للعرب المسلمين الغالبين عليهم؛ فمن ثم كان "تَشْروا" بمعنى "تبْتاعوا" على غير الأكثر.

---

[1] البقرة: من الآية ١٠٢.

[2] ابن منظور: ش، ر، ي.

[3] السابق: ت، ن، م- ض، م، ر.

[4] السابق: خ، ز، ز.

لقد أخرج جرير جملة فقرته الآخرة بيتا عجيبا غريبا، في تأبيد النفي على طريقة بعض الأمثال التعبيرية[1]، وكأنما أراده ليذهب مثلا شرودا لا يدع الناس السخرية به من خصيمه وقومه، كسائر أبياته التي أقضَّ بها مضاجع مهجوِّيه وأقلق راحتهم! ولما كان قد عَكَسَ ترتيب الأعشى لفقرتيه، كان في هذا الوجه من التمييز جاريا مجراه.

رابعا: وَسَّطَ جرير جملته الأولى في فقرتها على ما فعل الأعشى، بحيث صارت لها قلبًا تدور حوله سائرُ جملها من قبلها ومن بعدها، على حين أخر جملته الآخرة في فقرتها على غير ما فعل الأعشى، بحيث صارت لها غايةً تؤمُّها من قبلها سائرُ الجمل وتنتهي إليها.

مَا وَرَاءَ تَرْكِيبِ الْمَحَاوِرِ

[٢٣] لقد أوشك الأعشى أن يدل بما سبق من وجوه اتفاق جملتيه القسميتين (محوري فقرتيه اللتين انقسمت عليهما أجزاء الرسالة)، على أن ثقته بما سيكون من يزيد مثل ثقته بما سيكون منه هو، وهذا معنى جَسورٌ لا قُدْرَةَ له عَلَيْه ولا مَنْفَعَةَ له به؛ إذ لا يفضي إلا إلى تَنْفير المُتَوَعَّد وضياع المراد؛ فخلط بوجوه الاتفاق وجوهَ افتراقٍ أخفَتْ جسارته، وكفكفت استطالته، وكَفَلَتْ عطف المتلقي عليه وإنجاز مراده. ولقد أراد جرير أن يرفع نفسه إلى أعلى عليين ويخفض خصيمه وقومه إلى أسفل سافلين؛ فتحرى أن يستمر بين جملتَيْ محورَيْ فقرتَيْه الافتراقُ على النحو السابق، عسى أن يُظْهِرَ الضِّدَّ الضِّدُّ!

---

[1] صقر "١": ١٠٥- ١٠٦.

التَّأَتِّي بِتَحَازُنِ الْعُشَّاقِ

[٢٤] إن إنجاز فصل الرسالة نفسه ولاسيما إذا كان من بابة الهجاء كالوعيد والذمّ اللذين هنا، عَمَلٌ مُفْرِحٌ ربما كانت عاقبته الإنسانية النفسانية أن تَتَهَلَّلَ فصولُ التأتي إلى المتلقين بالفرح نفسِهِ قبل فصل الرسالة حتى تنتهي إليه. ولكن التَّحازُنَ الذي تَحَمَّلَتْهُ في شعرَيِ الأعشى وجرير ولاسيما في مادة هذا البحث، بَيِّنُ الدلالة على إيثارهما العناية بالمتلقين؛ فليس أعطف لهم عليهما من الحزن الذي يبديهما ضعيفين يبرآن من حولهما وقوتهما إلى حولهم وقوتهم.

وربما اقتضى التأتي بالتحازن إلى عطف المتلقين على رسالتين من بابة الهجاء، أن يكون على حَدَثان الزمان الذي يكرم اللئام ويهين الكرام، أو الذي يَسْمو بالجبناء ويَكْبو بالشجعان مثلا، ولكن اقتصار التحازن في فصول التأتي إلى المتلقين بشعري الأعشى وجرير ولاسيما في مادة هذا البحث، على حَدَثان العشق الذي يَبْتَلي الأنفس الخالية الساكنة فيعذِّبها أكثر مما ينعِّمها، بَيِّنُ الدلالة على ميل المتلقين جميعًا دائمًا إلى ما ينشأ ويتطور بين الرجال والنساء.

تَفْصِيلُ مَعَانِي الْأَعْشَى وَتَوْصِيلُهَا

[٢٥] لقد تعلق الأعشى في فصل البين بالسفر -وإن حمل نفسه على توديع حبيبته- كِفاء ما تعلقتْ هي بالصدود في فصل الإعراض؛ فأرانا إياها مظلومةً حين بان عنها وظالمةً حين أعرضت عنه، لأن الأول على رغمها بيده والآخر على رغمه بيدها، كما كشف قوله في فصل البين: "إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ"، الذي قام فيه قائم السفر فآثره عليها، وقوله في فصل

الإعراض: "رَأَتْ رَجُلًا أَعْشى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ الْمَنونِ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ"، الذي حالت فيه حالُه فضَجِرَتْ به.

ثم أضاف فصلَيْ نعوتها إلى ذين الفصلين على حَسَبِ كلٍّ منهما، فبعقب فصل البين أورد فصل الاستحسان الذي تجلت فيه بنعوت طيبة يتمناها الرجال لنسائهم، وبعقب فصل الإعراض أورد فصل الاستلذاذ الذي جلّاها فيه بنعوت خبيثة يتتبعها في النساء الرجالُ المُتَشَهّون، كما كشف قولُه في فصل الاستحسان: "لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجيرانُ طَلْعَتَها"، الذي لم يملَّها فيه معاملوها المطلعون على أحوالها دائما- وقولُه في فصل الاستلذاذ: "يَصْرَعُها لِلَذَّةِ الْمَرْءِ لا جافٍ وَلا تَفِلُ"، الذي لم تستعص فيه على طالب.

ثم أضاف في فصل الخيبة تفسيرا لذلك التدابر، فقد أحبها عفوا من دون قصد، وأحبت هي غيره عفوا من دون قصد، فلم تستقم بينهما علاقة، ولم تصلح زيارة. ولكنه انتصف منها بأنها أحبت رجلا لم يحبها، ثم بأنه هو والرجل الآخر قد أحبتهما فتاتان لم يحباهما، كما كشف قوله: "كُلُّنا مُغْرَمٌ يَهْذي بِصاحِبِهِ ناءٍ وَدانٍ وَمَحْبولٌ وَمُحْتَبِلُ"، الذي كان فيه ويلا عليها كما كانت ويلا عليه، على نحو عامٍّ لم ينج منه رجل ولا امرأة!

ثم حملته على الرحلة عنها هذه الخَيْبَة العامة التي أحاطت بأولئك المجاهيل المُتَدابِرينَ، فلم تختص بالرجال دون النساء، ولكنه لم ينشط لها حتى دل في فصل الطمأنينة على فُروسيَّتِهِ؛ فلم يرحل عنها حتى اطمأن عليها في غيث ونعمة، كما كشف قوله: "يَسْقي دِيارًا لَها قَدْ أَصْبَحَتْ عُزُبًا زورًا تَجانَفَ عَنْها الْقَوْدُ وَالرَّسَلُ"، الذي بدا الغيث فيه مرسلا منه لها على بُعدها.

ثم أقبل في فصل الرحلة على الفلاة القائظة المهلكة يتحرى أن تكون حاله عكس حالها، متداويا من حمى الحب الفادحة بصَيْهَد القيظ الآسي، ومن صحبة الحبيبة المخالفة بصحبة الناقة المواتية، كما كشف قوله: "جاوَزْتُها بِطَليحٍ جَسْرَةٍ سُرُحٍ في مِرْفَقَيْها إِذا اسْتَعْرَضْتَها فَتَلُ"، الذي كان فيه بمثل تلك الفلاة وهذه الناقة شغلُه عما سواهما.

ثم أقبل في فصل التلهي على الشّراب والسماع والنساء، يوازي عبث الحبيبة وسخريتها بعبث وسخرية أشدَّ منهما، ظاهر الفرح بقدرته الآنفة على الفلاة المترامية، كما كشف قوله: "فِي التَّجارِبِ طولُ اللَّهْوِ وَالْغَزَلُ"، الذي جعل التلهي فيه عن الحبيبة كالتعلق بها، تجاربَ من التجارب، لن تنقطع.

ثم أضاف أخيرا فصل الوعيد (الرسالة) السابق بحثه في خلال ست عشرة فقرة [٨-٢٣]، على سبيل الاستطالة التي تُسَوّغُها للمتلقين قدرتُه السالفة على الرحلة وعلى التلهي جميعا معا، وكأن هذا الوعيد أُلْهِيَّةٌ من تلك الألاهيّ!

تَفْصِيلُ مَعَانِي جَرِيرٍ وَتَوْصِيلُها

[٢٦] وتعلق جرير في فصل البين بالبقاء لا السفر؛ فقد كان هو وحبيبته والدار التي عهدته وعهدتها، كائنا واحدا عجيبا مُثَلَّثَ الأرواح منفصلا مما حوله من الناس والزمان والمكان كما تنفصل السفينة المبحرة في أَثْباج البحار لا تَلْوي على شيء؛ فصار ببَيْنِ حبيبته شِلْوًا من شَمْلٍ مُمَزَّقٍ ولَوْحًا من سفينةٍ خَرِبَةٍ، كما كشف قوله: "لَا نَبْتَغي بَدَلًا بِالدَّارِ دَارًا وَلا الْجِيرانِ جِيرانَا"، الذي تجلت فيه حقيقة معنى الوصل لديه.

ثم تَخَيَّلَ في فصل الرسول كلَّ راكِبٍ راحلاً إلى حيث حَبِيبتهُ، قادِرًا على وَصْلِ الدارِ بالدار الذي عَجَزَ هو عنه؛ فحمَّله سلامه وسلام الدار القديمة التي عهدته وعهدتها عليها وعلى ديارها الحديثة، وتعلُّقَه بها الذي لم يفهمه حتى افتقدها، كما كشف قوله: "هَيْهاتَ مِنْ مَلَجٍ بِالْغَوْرِ مُهْدانا"، الذي افتضح فيه تعلقه بالدار وتألمه لبعد القديمة من الحديثة.

ثم قَصَّ في فصل المكيدة كيف تَلَعَّبَتْ به حبيبته وآلَمَتْه قبل رحيلها، وكأنه استبعد أن تَعْطِفَها الرسالة الآنفة، كما كشف قوله: "ضَنَّتْ بِمَوْرِدَةٍ كانَتْ لَنا شَرَعًا تَشْفي صَدى مُسْتَهامِ الْقَلْبِ ظَمْآنَا"، الذي قطعت فيه عليه وعلى نفسها طريق الريِّ الجامعة الشاملة.

ثم رد فصلَ الوجد على فصل البين فاشتكى غرابة الأشياء من حوله بعد بين حبيبته، وبدا كأنه ذلك البحار المائلة سفينته قد أيقن بالغرق، كما كشف قوله: "لَمْ نَلْقَ بَعْدَكُمُ كَالْعِرْقِ عِرْقًا وَلا السُّلّانِ سُلّانَا"، الذي أنكر فيه بَعْدَها كلَّ ما حوله.

ثم تخيل حبيبته في فصل الخيال قد أجابته وعطفت عليه وأمكنته من نفسها بعد إخلاصه لها الوجد بها، كما كشف قوله: "لا دُنْيا كَدُنْيانا"، الذي انبعث فيه ذلك الكائن الواحد العجيب المُثَلَّثُ الأرواح، ولكن خيالها تفلَّت منه وعاد إليها، فأضاف إلى البين بينًا وإلى الألم ألمًا.

ثم اضطر في فصل الرحلة إلى سنة التداوي بالرحيل الذي ليس من رأيه، فأخفاه في طيات رحيل حبيبته الذي من رأيها، حتى تكاد لا تنقطع للمتأمل ريبةٌ في أنه رحل على الحقيقة كما رحلت، إلا أن يكون رحيله كان في خلال رحيلها مُلازَمَةً لها وتَعَلُّقًا بها، حتى يئس من ردها، كما كشف قوله: "قَدْ قَطَعَتْ بيْنَ السَّلَوْطَحِ وَالرَّوْحان صَوّانَا"، الذي عَلَّقَ فيه عينيه على الطريق، ولاسيما أنه تعلق بعدئذ في فصل الذكرى بصور من صورهما في الدار التي عهدته وعهدتها حتى أَثَارَتْهُ في ذيل الصور صورةُ بعض أقربائها يحول دونها، فاحتقره غاضبا عليه متمنيا أن لو دار الزمان فانتصف منه، كما كشف قوله: "كُنْتُ شَيْطانا"، الذي أَسِفَ فيه على سوء الحال وضيعة المآل.

ثم عَمَّمَ في فصل الوعيد غضبه حتى شمل به خصومه من الشعراء، ففخر بما في إفحامه لهم جميعا من مآثر سالفة ومشاهد باقية مستمرة، كما كشف قوله: "قَدْ حَدَوْتُهُمُ مَثْنى وَوُحْدانَا"، الذي قدم فيه نفسه عليهم رائدا لهم.

ثم أضاف أخيرا فصل الذم (الرسالة) السابق بحثه في خلال ست عشرة فقرة [٨-٢٣]، من باب إضافة الخاص إلى العام، اصطفاءً لألدِّ الخُصَماء الشعراء (الأخطل) الذي لن يكون إلا واحدا منهم، فتحرى إفحامه بكل ما يشينه ويؤذيه من خصاله ومعايبه هو وقومه.

لقد اجتمع الشاعران على التأتي إلى المتلقين بتَحازن العُشاق، وعلى تقسيم فصول التأتي على تسعة، ولكنْ كانت لكل منهما في توجيه التسعة الفصول وجهةٌ تَوَلّاها واعيا أو غافلا:

مَا وَرَاءَ تَفْصِيلِ الْأَعْشَى وَتَوْصِيلِهِ

[٢٧] أما الأعشى فتَقَاوى على حبيبته وتَعَزَّزَ وأدار على نفسه أكثر فصول التأتي؛ فلم يُخْلص لها إلا فصلي الاستحسان والإعراض اللذين بدت في أولهما كأنما تخيرت لنفسها ما شاءت من طيب الصفات وفي آخرهما كأنما اجترأت بما اتصفت من طيب تلك الصفات، وأما فصل الخيبة فقد كان شركة بينهما، وأما فصول البين والاستلذاذ والطمأنينة والرحلة والتلهي فقد أخلصها لنفسه يرى فيها ويفعل ما يبدو له.

تَفْصِيلُ مَبَانِي الْأَعْشَى وَتَوْصِيلُهَا

[٢٨] لقد استهل قصيدتَه في فصل البين بإسنادِ فعلِ أمرِ توديعِ امرأةٍ معينة إلى ضمير خطاب نفسه على التجريد " وَدِّعْ هُرَيْرَةَ"، فدل على أنه هو المسافر عنها البائن منها، وأن بعضه يلوم فيها بعضا. وتحرى في قوله الكاشف "إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ" أن يكون جملةً اسمية مؤكدة بـ"إن" مسندة فيها صفة الارتحال إلى معرف بأل العهدية؛ فبدا قوله الكاشف قدره المقدور الذي لا حيلة فيه إلا أن يخضع له.

ثم قطع فصل البين، واستأنف في فصل الاستحسان إسنادَ طائفة من الصفات الطيبة مفردة ومركبة أولاها مفردة صفة مشبهة، إلى ضمير غيبة هريرة المبتدأ المحذوف المفهوم "(هي) غَرّاءُ (...)"، على منهج عربي أصيل في ذلك[١]، أراد به الأعشى صرف المتلقين عن

---

[١] الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٧١- ١٧٢.

الموصوفة المحذوف اسمها إلى صفاتها المذكورة، ليتأملوها كأنها هي التي أمامهم. وتحرى في قوله الكاشف "لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجيرانُ طَلْعَتَها" أن يكون جملة اسمية منسوخة "بلَيْسَ" مسندا فيها شبه الجملة الحرفي التشبيهي إلى ضمير غيبة حبيبته، فبدا قوله الكاشف هديته إليها التي تحسدها النساء عليها!

ثم قطع فصل الاستحسان، واستأنف في فصل الإعراض إسنادَ فعلِ ماضِي الصدودِ عنه إلى اسمها لا ضميرها ملتفتا عن ذلك الخطاب "(...) لا تَراها (...)" في آخر ذكر سابق لنفسه، إلى هذا التكلم "صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنّا ما تُكَلِّمُنا"، بَوْحًا بما يجد من مرارة صدودها وغرابة شأنها. وتحرى في قوله الكاشف "رَأَتْ رَجُلًا أَعْشى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ الْمَنونِ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ"، أن يكون جملة فعلية مسندا فيها فعل ماضِي رؤيةِ رجلٍ ضريرٍ بحدثان خطوب الزمان إلى ضمير غيبة هريرة، فبدا قوله الكاشف مَأْخَذَهُ عليها أَنْ أَضْجَرَها ظاهرُ عَجْزِه عنها!

ثم قطع فصل الإعراض، واستأنف في فصل الاستلذاذ إسنادَ طائفة من الصفات الخبيثة مفردة ومركبة أولاها مركبةٌ (جملةُ المدح الفعليةُ)، إلى ضمير غيبة هريرة المبتدأ المحذوف المفهوم "(هي) نِعْمَ الضَّجيعُ (...)"، على المنهج العربي الأصيل السابق نفسه، وكأنما أراد أن تطابق الصفاتُ الصفاتِ، فَيَنْسَخَ بعضُها بعضًا، ويَنْقَلِبَ الطّيبُ خُبْثًا. وتحرى في قوله الكاشف "يَصْرَعُها لِلَذَّةِ الْمَرْءِ (×) لا جافٍ وَلا تَفِلُ"، أن يكون جملة فعلية مسندا فيها فعل مضارعٍ قسرِها على التمتع بها إلى شَيْئِهِ المحذوف وأن يحتمل المعرف بأل العهدية "الْمَرْءِ" أن يكون معرفًا بأل الجنسية، فبدا قوله الكاشف كيدا لها بدوام قدرته عليها زمانا طويلا! وينبغي التنبيه على أن كلمة "جافٍ" غير صالحة للفاعلية، إذ لا ينتفي الفاعل "بلا" بعد فعله المثبت، فلا أقول مثلا: "جاءَ لا زَيْدٌ وَلا عَمْرٌو"، لتناقض آخر هذا الكلام المنفي وأوله المثبت، بل ينتفي الفعل قبل فاعله، فأقول مثلا: "لا جاءَ زَيْدٌ وَلا عَمْرٌو " في مثالي، و"لا يَصْرَعُها جافٍ

وَلا تَفِلُ"- فتكون كلمة "جافٍ" نعتا للفاعل المحذوف على غير طريقته تَحَرُّجًا[1]، فَهْمًا له من الكلام قبله وبعده؛ "فإذا كان الكلام إنما يصلحه ويفسده معناه، وكان هذا معنى صحيحا مستقيما لم أر به بأسا"[2].

ثم قطع فصل الاستلذاذ، واستأنف في فصل الخيبة إسنادَ فعلِ ماضِي تعلقِ حبيبتِه المبني للمجهول، إلى ضميره ملتفتا عن احتمال غيبة ذلك التعريف بأل العهدية "(...) الْمَرْءِ (...)" في آخر ذكر سابق لنفسه، إلى حضور هذا التكلم "عُلِّقْتُها عَرَضًا"؛ فبدا شَغَفُهُ بِها صِفةً لها متولدة من صفاتها التي لم يملك لها دفعا حين تعرضت له بها. وتحرى في قوله الكاشف "كُلُّنا مُغْرَمٌ يَهْذِي بِصاحِبِهِ ناءٍ وَدانٍ وَمَحْبولٌ وَمُحْتَبِلُ"، أن يكون جملة اسمية مُسْندةً فيها صفاتُ إغرام المُدَلَّهين وصفاتُ تدابرهم إلى العشاق المذكورين جميعهم؛ فبدا قوله الكاشف قضاءَ مُنْتَصِفٍ للرِّجالِ مِنَ النِّساء!

ثم قطع فصل الخيبة، واستأنف في فصل الطمأنينة التنبيه على إسناد جملة تأمل السحاب الفعلية المضارعية، إلى اسم استفهام "يا مَنْ يَرى عارِضًا قَدْ بِتُّ أَرْقُبُهُ (...)"، استثارة لصحبه إليه وإِشْهادًا عليه. وتحرى في قوله الكاشف "يَسْقِي دِيارًا لَها قَدْ أَصْبَحَتْ عُزُبًا زورًا تَجانَفَ عَنْها الْقَوْدُ وَالرَّسَلُ"، أن يكون جملة فعلية مسندا فيها فعل مضارعِ سقيا ديار الحبيبة البعيدة إلى ضمير غيبة ماء العارض؛ فبدا قوله الكاشف لذة الشَّهْم الحدِب المطمئن.

ثم قطع فصل الطمأنينة، واستأنف في فصل الرحلة إسنادَ جملة محذوفة مفهومة إلى نكرة مجرورة برُبَّ المحذوفة المستغنى عنها بواوها "وَبَلْدَة..."، فخَيَّر حبيبته: أَهِيَ بَلْدَةٌ أَمْ بَلَداتٌ، وسَفْرَةٌ أَمْ سَفَراتٌ؟ ففي "رُبَّ" تقليل متأصل غير أنه أُهْمِلَ حتى صار استعماله كالمجاز، وتكثير

---

[1] حسن: ٣/ ٤٩٤؛ ومن ثم جعلوا من شروط حذف المنعوت صلاح نعته لمباشرة عامله إلا إذا كان المنعوت بعضَ كُلٍّ لاحق مجرور "بمن" أو "في"، وليس منه منعوت الأعشى!

[2] ابن جني: ٢/ ٤٣٥، على رغم بيانه شدة القول بحذف الفاعل عند كثير من النحويين.

متفرع عن ذلك التقليل غير أنه أُعْمِلَ حتى صار استعماله كالحقيقة[1]. ثم حيَّرها مرة أخرى: أهو سفر الراضي عنها المهموم بحوادث شؤونه، أم سفر الغاضب عليها الهارب منها؟ فعامل "رُبَّ" (جوابها) محذوفٌ بعقب نعوتِ مجرورِها، مُسْتغنًى عنه بها، مُقَدَّرٌ بفعل ماض كالذي في "أَخَذَتْني (...)" أو "شَغَلَتْني (...)" مثلا، جوابًا لكلامٍ قبل "رُبَّ" مقدرٍ بمثل "ما أَخَذَتْكَ مِنْ حَبيبَتِكَ أَيَّةُ بَلْدَةٍ"، أو "ما شَغَلَتْكَ عَنْ حَبيبَتِكَ أَيَّةُ بَلْدَةٍ" مثلا[2]، يمكن أن يكون قاله للأعشى صَحْبُهُ. ولقد جَرَّبْتُ أن أجعل عامل "رُبَّ" (جوابها) هو الفعل الماضي في "جاوَزْتُها (...)" الجملة المذكورة أخيرا، ثم آثرت أن أقدره محذوفا لَمّا وجدت مثل هذا المذكور في كثير من الشعر القديم الذي قدر فيه علماؤه عامل "رُبَّ" محذوفا، ولاسيما في فصل الرحلة كما في لاميَّة الأعشى التي بين يدي؛ فهذا سيبويه يقول: "سألت الخليل عن قوله -جل ذكره!- [حَتّى إِذا جاؤوها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها]، أين جوابها؟ (...) فقال: إن العرب قد تترك في مثلِ هذا الخبرَ -الجواب- في كلامهم، لعلم المخبَر لأي شيء وضع هذا الكلام. وزعم أنه وجد في أشعار العرب [رُبَّ] لا جواب لها. من ذلك قول الشَّمّاخ:

وَدَوِّيَّةٍ قَفْرٍ تُمَشّي نَعامُها كَمَشْيِ النَّصارى في خِفافِ الْأَرَنْدَجِ

وهذه القصيدة التي فيها هذا البيت لم يجئ فيها جواب لـ[رُبَّ]، لعلم المخاطب أنه يريد [قَطَعْتُها]، وما فيه هذا المعنى"[3]. ثم راجعت ديوان الشماخ؛ فوجدت هذين البيتين من القصيدة الثانية:

"وداويةٍ قَفْرٍ تَمَشّى نِعاجُها كَمَشْيِ النَّصارى في خِفافِ الْيَرَنْدَجِ

---

[1] الرضي "٢": ٢/ ٣٣٠.

[2] ابن يعيش: ٨/ ٢٩.

[3] سيبويه: ٣/ ١٠٣- ١٠٤.

قَطَعْتُ إِلى مَعْروفِها مُنْكَراتِها إِذا خَبَّ آلُ الْأَمْعَزِ الْمُتَوَهِّجِ"[1].

وفي رواية أولهما أربع مخالفات لرواية سيبويه، وفي أول آخرهما ما يغري بجعله عامل "رُبَّ" (جوابها) الذي قدره سيبويه. وقد كان محقق الكتّاب العلامة عَلَّقَ على بيت الشماخ في نص سيبويه قَوْلَهُ: "الشاهد فيه حذف جواب [رُبَّ] لعلم السامع. والمعنى [رُبَّ دَوِّيَّةٍ قَطَعْتُ] أو نحو ذلك. وقد رَدَّ على ما نقله سيبويه عن الخليل من تأوله من حذف الجواب بأن بعد البيت:

قَطَعْتُ إِلى مَعْروفِها مُنْكَراتِها وَقَدْ خَبَّ آلُ الْأَمْعَزِ الْمُتَوَهِّجِ"[2].

وفي روايته مخالفة واحدة لرواية الديوان. وكان محقق ديوان الشماخ عَلَّقَ على البيت الآخِرِ قَوْلَهُ: "قَطَعْتُ: هو جواب [رُبَّ] المقدرة في البيت السابق"[3]، أخذا لا ريب فيه بما سبق من تعليق محقق الكتّاب العلامة. ولقد كان تحرير الخليل أحرى بالتأمل من كلمة سيبويه التي حَمَلَهُ عليها عَدَمُ روايته للبيت الآخر؛ فلو قد رواه لعرف أن عامل "رب" (جوابها) شيءٌ وَراءَ "قَطَعْتُ" وما في معناه، يتبين بطول تأمل سياق الكلام، اجتهدت أن أتبينه فيما سبق. ولقد تحرى الأعشى في قوله الكاشف "جاوَزْتُها بِطَليحٍ جَسْرَةٍ سُرُحٍ في مِرْفَقَيْها إِذا اسْتَعْرَضْتَها فَتَلُ"، أن يكون جملة فعلية مسندا فيها فعل ماضي مجاوزة البلدة بناقة شديدة إلى ضمير تكلمه؛ فبدا قوله الكاشف علامة بهجة البريء بنهضة العافية!

ثم قطع فصل الرحلة، واستأنف في فصل التلهي ترتيبَ توكيد إسناد ثبات الأخلاق في أثناء التقلب بين حالي البؤس والنعمة إلى ضمير تكلمه، على إسناد رؤيته بائسا إلى ضمير خطاب حبيبته " إِمّا تَرَيْنا حُفاةً لا نِعالَ لَنا إِنّا كَذَلِكَ ما نَحْفى وَنَنْتَعِلُ"، سخرية من غفلتها بالظاهر عن

---

[1] الشماخ: ٨٣- ٨٤.

[2] سيبويه: ٣/ ١٠٤ح.

[3] الشماخ: حاشية ص ٨٤.

الباطن الحصلة النسائية الأزلية الأبدية. لقد زاد "ما" على "إن" في "إمّا" مؤكدا حال ابتئاسه التي رأته عليها غير متبرئ منها، ولكنه زادها على "نَخْفى وَنَنْتَعِلُ" مرة أخرى في جواب الشرط بعد أن كان حذف فاء ربط الجواب بالشرط والأداة، مؤكدا أنه هو هو على رغم التقلب بين البؤس والنعيم، ولكنها لا ترى ما ينبغي أن ترى[1]. وتحرى في قوله الكاشف "في التَّجارِبِ طولُ اللَّهْوِ وَالْغَزَلُ"، أن يكون جملة اسمية مسندا فيها شبه جملة حرفي مقدم يحتمل حرفُه "في" طُروءَ معنى "من" التبعيضية على أصل معنى الظرفية فيها[2]، إلى مضاف إلى معرف بأل الجنسية مؤخر، فبدا قوله الكاشف نصيحة المستغني.

ثم قطع فصل التلهي، واستأنف أخيرا فصل الوعيد (الرسالة).

مَا وَرَاءَ تَفْصِيلِ جَرِيرٍ وَتَوْصِيلِه

[٢٩] وأما جرير فَتَضاعَفَ لحبيبته وتَذَلَّلَ وأدار عليها أكثر فصول التأتي، فلم يخلص لنفسه غير فصلي الرسول والذكرى اللذَين بدا في أولهما حريصا على حاضر علاقته بحبيبته وفي الآخر حريصا على ماضيها، وأما فصل الرحلة فقد كان شركة بينهما، وأما فصول البين والمكيدة والوجد والخيال فقد أخلصها لحبيبته ترى فيها وتفعل ما يبدو لها، وأما فصل الوعيد فلم يكن من بابة تحازن العشاق الذي استولى على فصول التأتي، بل من بابة الهجاء الذي استولى على فصل الرسالة، ولكن ما يأتي من دلالته على استواء التمكن من الحبيبة وصدارة الشعراء، يميز قصيدته بوقوع هذا الفصل منها في منزلةٍ بين منزلتي التأتي والرسالة.

---

[1] ابن هشام: ٢/ ١١، فقد انتبه إلى زيادة "ما" في هذا البيت مرتين.

[2] ابن هشام: ١/ ١٤٤-١٤٦.

تَفْصِيلُ مَبَانِي جَرِيرٍ وَتَوْصِيلُهَا

[٣٠] لقد استهل قصيدته في فصل البين بإسناد فعل ماضي البَيْن إلى معرفٍ بأل العهدية صفةٍ على فَعيلٍ بمعنى مُفاعِلٍ أو مُفاعَلٍ مستغنى بها عن الموصوف (الحبيبة) المفهوم "بانَ الخَلِيطُ "، فإنه "إذا كانت المفاعلة بين اثنين جاء كل واحد منهما على [فَعيل] كما جاء على [مُفاعل]"[١]، دلالة على المُمازَجَةِ السابقة بين حبيبته والدار وبينهما وبينه، ثم على مبلغ الضرر الحادث بتعطيل البين لطبائع الأحياء. وتحرى في قوله الكاشف "لا نَبْتَغي بَدَلًا بِالدّارِ دارًا وَلا الجْيرانِ جِيرَانَا"، أن يكون جملة فعلية مسندا فيها فعل مضارع إرادة بَديلَي الدار والجار المنفي إلى ضمير تكلمه، مشتملة على ظاهرة يسميها النحاة " العطف على معمولي عاملين مختلفين"، فقد كان ينبغي في التركيب أن يكون "لا نَبْتَغي بَدَلًا بِالدّارِ دارًا وَلا بالجْيرانِ جيرانا"، بحيث يكون "بالجيران" معطوفا على "بالدار"، و"جيرانا" معطوفا على "دارًا"، وكلا المعطوف عليهما عندئذ من معمولات "نَبْتَغي" المنفي؛ فلما حذف الباء من "الجيران" المجرور كان هو وحده معطوفا على معمول الباء "الدار"، و"جيرانا" على حاله؛ فكان الكلام ملتبسا ممتنعا على العموم عند طائفة من النحويين، وملتبسًا غير ممتنع على العموم عند طائفة أخرى، وغير ملتبس ولا ممتنع متى كان على النحو الواقع في عبارة جرير الآنفة عند طائفة ثالثة من النحويين، لتساوي الكلام وتوازنه وجري آخره على أوله[٢]؛ فبدا قوله الكاشف شهادة حاله الصادقة على حقيقة إيمانه بمعنى امتزاج الأرواح الثلاثة امتزاجَ الصور وراء الحقيقة الواحدة!

ثم قطع فصل البين، واستأنف في فصل الرسول بعد دعوة من لم يعبأ بتعريفه لنا إلا بصفتين معينتين "يا أَيُّها الرّاكِبُ المُزْجي مَطِيَّتَهُ" حِرْصًا على ألا يُعنِّتَه، إسناد فعل أمر التبليغ على جهة الرجاء إلى ضمير خطاب المدعوّ "بَلِّغْ تَحِيَّتَنا"، موقعًا الرجاء على تَحِيَّةٍ مضافةٍ إلى ضمير

---

[١] البغدادي: ٧/ ١٥٧.

[٢] ابن الحاجب: ١/ ١٣٤، وابن هشام: ٢/ ١٠٢.

تكلمه، تنبيها له على أنه لن يضره جوابها؛ فما على الرسول إلا البلاغ. وتحرى في قوله الكاشف "هَيْهَاتَ مِنْ مَلَجٍ بِالْغَوْرِ مُهْدَانَا"، أن يكون جملة فعلية مسندا فيها اسم فعل البُعد عن دار الحبيبة الحديثة إلى اسم مكان الإهداء (دارها القديمة التي عهدته وعهدتها)، المضاف إلى ضمير تكلمه؛ فبدا قوله الكاشف بَوْحًا من مصدَّع عاجز عن رأب صُدوعِهِ!

ثم قطع فصل الرسول، واستأنف في فصل المكيدة إسناد فعل ماضي قول الإغراء باللقاء إلى ضمير غيبة حبيبته "قالَتْ أَلِمَّ بِنا (...)"، مباعدة لها منه قليلا حتى يُثْبِت عليها علاماتِ المَكْر به. وتحرى في قوله الكاشف "ضَنَّتْ بِمَوْرِدَةٍ كانَتْ لَنا شَرَعًا تَشْفي صَدى مُسْتَهامِ الْقَلْبِ ظَمْآنَا"، أن يكون جملة فعلية مسندا فيها فعل ماضي الضن بالطريق المشترك إلى ماء الحياة، إلى ضمير غيبة حبيبته[1]؛ فبدا قوله الكاشف استنكارا شديدا لجهلها حقيقة معنى الامتزاج الذي آمن به.

ثم قطع فصل المكيدة، واستأنف في فصل الوجد إسناد اسم الاستفهام عن الهيئة إلى معرف بأل العهدية: "كَيْفَ التَّلاقي (...)"، اعتذارا عن كمده اللاحق؛ فقد امتنعت عليه في السفر ببينها وفي الحضر بمكرها. وتحرى في قوله الكاشف "لَمْ نَلْقَ بَعْدَكُمُ كَالْعِرْقِ عِرْقًا وَلا السُّلّانِ سُلّانَا"، أن يكون جملة فعلية مضارعية مسندا فيها فعل مضارعِ لُقْيا شبيه الدار المنفي بـ"لم" إلى ضمير تكلمه، مشتملة على ظاهرة "العطف على معمولي عاملين مختلفين" السابقة ودلالاتها نفسها؛ فبدا قوله الكاشف نُدْبَةً نَدَبَ بها أحد عناصر ذلك المزاج المركب الثلاثة!

ثم قطع فصل الوجد، واستأنف في فصل الخيال إسناد فعل ماضي الطيران مع خيال الحبيبة إلى معرف بأل العهدية "طارَ الْفُؤادُ مَعَ الْخَوْدِ الَّتي طَرَقَتْ في النَّوْمِ (...)"، دلالة على شدة تعلقه بها وضَيْعَةِ نصيبه منها. وتحرى في قوله الكاشف "لا دُنْيا كَدُنْيانا"، أن يكون جملة

---

[1] ابن منظور: و، ر، د- ش، ر، ع؛ فقد أشار إلى معنى الطريق إلى الماء الذي في "مَوْرِدَة"، ومعنى التساوي في الحق الذي في "شَرَع".

اسمية منسوخة بـ"لا" النافية للجنس، مسندا فيها شبه جملة حرفي تشبيهي إلى اسم نكرة؛ فبدا قوله الكاشف علامة انبعاث ذلك الكائن الواحد العجيب المُثَلَّثِ الأرواح!

ثم قطع فصل الخيال، واستأنف في فصل الرحلة إسناد فعلِ ماضي لُقْيا أيِّ شيءٍ من الحبيبة مجهولٍ مستفهمٍ عنه نَفْيًا له، إلى ضمير خطابه على التجريد تفجعا وتوجعا "ماذا لَقيتَ مِنَ الْأَظْعانِ (...)"، دلالة على سوء رأيه في الرحلة المضطر إليها. وتحرى في قوله الكاشف "قَدْ قَطَعَتْ بَيْنَ السَّلُوطَحِ وَالرَّوْحان صَوّانا"، أن يكون جملة فعلية مسندا فيها فعل ماضي قَطْعِ الأرض بين الدار التي عهدته وعهدت حبيبته وبين غيرها إلى ضمير غيبة النوق الراحلة به وبصحبه؛ فبدا قوله الكاشف بَوْحًا آخر من مصدَّع عاجز عن رأب صُدوعِهِ بعد قوله الكاشف السابق في فصل الرسول؛ فلم يزدد بالرحيل الذي لم يكن من رأيه إلا صدوعًا؛ فبوحه في السفر كبوحه في الحضر! ولقد ينبغي أن يكون ثَمَّ نعت محذوف دل عليه سياق الكلام من قبل ومن بعد -ولاسيما إذا أُحْسِنَ إِلْقاؤُه على مُتَلَقّيه[1]- تقديره "صَوّانًا لَمْ يَكُنْ يَنْبَغي أَنْ يَنْقَطِعَ" أو "صَوّانًا في قَطْعِهِ قَطْعُ رَحِمِنا الْواشِجَةِ" أو ما إليهما مما يناسب المراد المفهوم، ولاسيما أن الصَّوّان حِجارةٌ يُقْدَحُ بها أو حِجارَةٌ سُود ليست بصُلْبَةٍ[2]، ولا غناء بهذا وحده في هذا المقام.

ثم قطع فصل الرحلة، واستأنف في فصل الذكرى إسناد جملة المدح الفعلية الماضوية المقدمة إلى مضاف إلى عَلَمٍ مؤخر "يا حَبَّذا جَبَلُ الرَّيّانِ مِنْ جَبَلٍ"، شوقًا واضحًا إلى معهد الصبا الذي مُكِّنَ في حماه من حبيبته، واهتزازًا ظاهرًا للذكرى الحبيبة بأداة التنبيه "يا" التي تحتمل نداء محذوف مفهوم، عمومُ حَذْفِهِ أَنْفَعُ في الدلالة على المعنى المراد مِنْ خصوص ذِكْرِه. وتحرى في قوله الكاشف "كُنْتُ شَيْطانا"، أن يكون جملة اسمية منسوخة بـ"كان " مسندة فيها

---

[1] ابن جني: ٢/ ٣٧٢- ٣٧٣.

[2] ابن منظور: ص، و، ن.

صفة مفردة نكرة إلى ضمير تكلمه أسفا على سوء الحال وضيعة المآل، مشهورا في العرب عن الشيوخ حتى سموا الشيخ "كُنْتِيًّا"، بكثرة قوله: كُنْتُ كذا[1]!

ثم وصل غضبه، فعطف في فصل الوعيد إسناد فعل مضارعِ ادِّراءِ أيِّ شيء منه (اخْتِتالِهِ) مجهولٍ مستفهمٍ عنه استنكارا له، إلى مضاف إلى معرف بأل الجنسية "ما يَدَّري شُعَراءُ النّاسِ (...)"- على شبيهه في فصل الذكرى "مَنْ ذا الَّذي ظَلَّ يَغْلي أَنْ أَزورَكُمُ" -وإن اعترض بينهما بالدعاء- بأداة عطف محذوفة مفهومة؛ فدل على أن شعراء الناس الحائلين دون التسليم له بالصدارة هم وقريبَ حبيبته الحائل دون تمكينه من لقائها سَواءٌ لديه في الخصومة، وتسليمهم له بالصدارة وتمكينه له من حبيبته سواء لديه في القصد؛ فقصيدته وحبيبته والدار التي عهدته وعهدتها صُوَرٌ سَواءٌ تَئوبُ كما سبق إلى حقيقة واحدة! وتحرى في قوله الكاشف "قَدْ حَدَوْتُهُمُ مَثْنى وَوُحْدانا"، أن يكون جملة فعلية مسندا فيها فعل ماضي سَوْق الشعراء مجتمعين مُتَقَوِّيًا كلٌّ واحد منهم بغيره ومنفردين مُكْتَفِيًا كلٌّ واحد منهم بنفسه، إلى ضمير تكلمه؛ فبدا قوله الكاشف وصمة العار التي لن تزول عنهم تشنيعا عليهم وتسميعا بهم!

ثم قطع فصل الوعيد، واستأنف أخيرا فصل الذم (الرسالة).

اقْتِضَابُ مَفَاصِلِ الْفُصُولِ

[٣١] لقد فَصَّلَ الشاعران فصول التأتي بقطع تركيب أولِ لاحقها من تركيب آخرِ سابقها واستئناف تركيب أولِ لاحقِها بعد تركيب آخرِ سابقِها، وهو الاقْتِضابُ عند القدماء، "وَذاكَ أَنْ يَقْطَعَ الشّاعِرُ كَلامَهُ الَّذي هُوَ فيهِ، وَيَسْتَأْنِفَ كَلامًا آخَرَ غَيْرَهُ مِنْ مَديحٍ أَوْ هِجاءٍ أَوْ غَيْرِ ذلِكَ، وَلا يَكونَ لِلثّاني عَلاقَةٌ بِالْأَوَّلِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْعَرَبِ وَمَنْ يَليهِمْ مِنَ

---

[1] السابق: كون.

الْمُخَضْرَمِينَ"[1]، ولا ريب في أن اقتضاب التراكيب يعين الشاعر على تفصيل الفصول، ولكن الريب في زعم انقطاع علاقة آخر الكلامين فيه بالأول من أجل تجاور آخر تراكيب السابق وأول تراكيب اللاحق بالاستئناف وعدم تداخلها بالعطف وما أشبهه؛ فإنها لا تنقطع، بل تخفى صلتُها على المُتَعَجِّل، ثم الريب في وقوفه عند الجاهليين (العرب) والمخضرمين؛ فإنه لم يقف عندهم، بل "الِاقْتِضابُ الْوارِدُ في الشِّعْرِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصى"[2]، وهذا جرير الإسلامي الأموي قد جرى منه مجرى الأعشى الجاهلي.

وينبغي ألا يُخْرَجَ من ذلك الاقتضاب إلى التَّخَلُّص ما كان وصلا وعطفا على مثل ما فعل جرير بتركيبَي آخِرِ فصل الذكرى وأَوَّلِ فصل الوعيد من عطف هذا على ذاك؛ فإنه قد أخرج الوصل والعطف مخرج القطع والاستئناف بحذف العاطف والاعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه حتى ليكاد المتأمل يذهل عنه، ثم إن التَّخَلُّصَ عند القدماء إضافَةُ بعض ما يخص الفصل اللاحق إلى طرف الفصل السابق، "أَنْ يَأْخُذَ مُؤَلِّفُ الْكَلامِ في مَعْنًى مِنَ الْمَعاني، فَبَيْنَما هُوَ فيهِ إِذْ أَخَذَ في مَعْنًى آخَرَ غَيْرِه، وَجَعَلَ الْأَوَّلَ سَبَبًا إِلَيْهِ؛ فَيَكونَ بَعْضُهُ آخِذًا بِرِقابِ بَعْضٍ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْطَعَ كَلامَهُ وَيَسْتَأْنِفَ كَلامًا آخَرَ، بَلْ يَكونُ جَميعُ كَلامِهِ كَأَنَّما أُفْرِغَ إِفْراغًا واحِدًا، وَذلِكَ مِمّا يَدُلُّ عَلى حِذْقِ الشّاعِرِ وَقُوَّةِ تَصَرُّفِهِ"[3]. ولقد أحسن الشاعران إذ اقتضبا ولم يتخلصا؛ فخَلَّصا قصيدتيهما من إضافات تُقَطِّعُ أكثر مما تُوَصِّل؛ فلم يبد لي في كثير من عبارات التخلص المعروفة، غير كثير من علامات التكلف المنكرة!

---

[1] ابن الأثير: ٣/ ١٢١.

[2] السابق: ٣/ ١٤١.

[3] السابق: ٣/ ١٢١.

مَا وَرَاءَ الْأَقْوَالِ الْكَاشِفَةِ

[٣٢] ثم قد أَكْمَنَ الشاعران للمتلقين وراء مفاصل فصول التأتي كما سبق في الفقر [٢٥، ٢٦، ٢٨، ٣٠]، أقوالا معينة مختلفة، تَرَدَّدَتْ في أنفسهما من قبل تكوين أي فصل حتى استقرت في مواضعها، ثم انبنت عليها فصولها حتى صارت محاور نفسية دارت عليها، كَفيلة كلما تَأَمَّلوها أن تكشف لهم طَرَفًا جديدا من مَسيرَتَيْ تَفْكيرَيْهِما، أوازن بعضها ببعض فيما يأتي:

ف	الأعشى	جرير
١	إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ	لا نَبْتَغي بَدَلًا بِالدّارِ دارًا وَلا الْجيرانِ جيرانَا
٢	لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجيرانُ طَلْعَتَها	هَيْهاتَ مِنْ مَلَحٍ بِالْغَوْرِ مُهْدانَا
٣	رَأَتْ رَجُلًا أَعْشى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ الْمَنونِ وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ	ضَنَّتْ بِمَوْرِدَةٍ كانَتْ لَنا شَرَعًا تَشْفي صَدى مُسْتَهامِ الْقَلْبِ صَدْيانَا
٤	يَصْرَعُها لِلَذَّةِ الْمَرْءِ لا جافٍ وَلا تَفِلُ	لَمْ نَلْقَ بَعْدَكُمُ كَالْعِرْقِ عِرْقًا وَلا السَّلّانِ سُلّانَا
٥	كُلُّنا مُغْرَمٌ يَهْذي بِصاحِبِهِ ناءٍ وَدانٍ وَمَحْبولٌ وَمُحْتَبِلُ	لا دُنْيا كَدُنْيانَا
٦	يَسْقي دِيارًا لَها قَدْ أَصْبَحَتْ عُزُبًا زورًا تَجانَفَ عَنْها الْقَوْدُ وَالرَّسَلُ	قَدْ قَطَعَتْ بَيْنَ السَّلّوطَحِ وَالرَّوْحانِ صَوّانَا
٧	جاوَزْتُها بِطَليحٍ جَسْرَةٍ سُرُحٍ في مِرْفَقَيْها إِذا اسْتَعْرَضْتَها فَتَلُ	كُنْتُ شَيْطانَا
٨	في التَّجارِبِ طولُ اللَّهْوِ وَالْغَزَلُ	قَدْ حَدَوْتُهُمُ مَثْنى وَوُحْدانَا

ينبغي التنبيه أولا على خفة وطأة العمل بفصول التأتي على الشاعرين؛ فعلى حين انقسمت أجزاء الفصل على فقرتين في فصلي الرسالة، التأمت على فقرة واحدة في فصول التأتي، ثم على حين انكشف في فصل الرسالة مراد الأعشى بقولين كاشفين في ستة أبيات

ومراد جرير بقولين كاشفين في ثلاثة أبيات، انكشف في كل فصل من فصول التأتي مراد الأعشى بقول واحد في بيت واحد مرتين اثنتين (سادسا وسابعا)، وفيما يجوز بيتا مخروما عالجه الشاعر عندما سلكه في موضعه من فصله بإضافة الفاء إلى أوله مرة واحدة (خامسا)، وفي شطر واحد مرة واحدة (ثانيا)، وفيما يجوز شطرا مخروما عالجه الشاعر عندما سلكه في موضعه من فصله بإضافة الواو إلى أوله مرة واحدة (ثامنا)، وفي أطول من شطر وأقصر من بيت مرتين اثنتين (ثالثا ورابعا)، وفي أقصر من شطر مرة واحدة (أولا)- ومراد جرير بقول واحد في بيت واحد مرة واحدة (ثالثا)، وفي شطر واحد مرة واحدة (ثانيا)، وفيما يجوز شطرا مخروما عالجه الشاعر عندما سلكه في موضعه من فصله بإضافة الفاء إلى أوله مرة واحدة (ثامنا)، وفي أطول من شطر وأقصر من بيت ثلاث مرات (أولا ورابعا وسادسا)، وفي أقصر من شطر مرتين اثنتين (خامسا وسابعا). ولا تخلو زيادة أقوال الأعشى الموزونة بيتا وشطر بيت جميعا معا وهي خمسة[١]، على أقوال جرير الموزونة بيتا وشطر بيت جميعا معا وهي ثلاثة- من دلالة على غنائية الأعشى السابق ذكرها في الفقرة [٥]؛ فقد كان أكثر انجذابا في محاور بناء فصوله إلى الأقوال الموزونة، فأما جرير فقد كان أكثر تعويلا على روافد السياق الذي سيضع فيه تلك المحاور.

ثم ينبغي التنبيه آخرا على دوران أقل أقوال الأعشى الكاشفة عليه هو حتى إذا ما استقرت في مواضعها وانبنت عليها فصولها دار أكثرها عليه هو، والتنبيه على دوران أكثر أقوال جرير الكاشفة عليه هو بصور مختلفة حتى إذا ما استقرت في مواضعها وانبنت عليها فصولها لم يدر عليه غيرُ أقلها!

---

[١] الفارابي: ١٠٨٨، ١٠٨٩؛ فقد نبه على أن أقصر الأقوال الموزونة هو الشطر (المصراع)، وأن أطولها لا حد له، ولكنه يكون بمضاعفة ذلك الشطر (المصراع).

أما الأعشى فقد كان قوله الأول مثلا مطلقا من قيد الجهة، حتى إذا ما أضيف إلى "وَدِّعْ هُرَيْرَةَ" انصرف إلى الاستئناف عنه وصار المعرف بأل فيه "الرَّكْبَ" إلى العهدية التي تنوب فيها أل عن ضميره، فإن "الرَّكْبَ" ركبه[1]- وكان قوله السادس متجها إلى ضمير غيبة الغيث، حتى إذا ما أضيف إلى قوله: "حَتّى تَحَمَّلَ مِنْهُ الْماءَ"، انصرف إلى الحال من الماء المستفاد من الغيث المنعوت في جواب صَحْبِ الأعشى طَلَبَهُ- وكان قوله الثامن مطلقا من قيد الجهة، حتى إذا ما أضيف إلى "مِنْ كُلِّ ذلِكَ يَوْمٌ قَدْ لَهَوْتُ بِهِ"، انصرف إلى الحال من ضمير تكلمه، وصار المعرفات بأل فيه "التَّجارِبِ، اللَّهْوِ، الْغَزَلُ"، إلى العهدية التي تنوب فيها أل كذلك عن ضميره.

وأما جرير فقد كان قوله الأول مثلا متجها إليه، حتى إذا ما أضيف إلى "حَيِّ الْمَنازِلَ"، انصرف إلى الاستئناف عنه خضوعا لسطوة دار الحبيبة البائنة التي عهدته وعهدتها- وكان قوله الرابع متجها إليه، حتى إذا ما أضيف إلى "نَهْوى ثَرى الْعِرْقِ"، انصرف إلى الاستئناف عنه خضوعا كذلك لسطوة دار الحبيبة البائنة التي عهدته وعهدتها- وكان قوله الخامس متجها إليه، حتى إذا ما أضيف إلى "طارَ الْفُؤادُ مَعَ الْخَوْدِ الَّتي طَرَقَتْ في النَّوْمِ (...)"، انصرف إلى الاستئناف عنه انخداعا بوهم الوصال.

لقد استأنف الشاعران مثلًا قوليهما الكاشفين الأولين استئناف تعليل عن جملتين طلبيتين:

الجملة السابقة	أداة التعليل	القول الكاشف اللاحق
وَدِّعْ هُرَيْرَةَ	إِذْ	إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ
حَيِّ الْمَنازِلَ	إِذْ	لا نَبْتَغي بَدَلًا بِالدّارِ دارًا وَلا الْجيرانِ جيرانا

---

[1] ابن هشام: ١/ ٥٢، فقد نبه على مسألة نيابة أل عن الضمير عند الكوفيين وبعض البصريين وكثير من المتأخرين، وهي في أمثلتهم ملتبسة بالعهدية.

وكان قول الأعشى منهما مطلقا من الاتجاه إليه، وقول جرير مقيدا بالاتجاه إليه، ولكن لما كان الأعشى بادئًا بائنًا مستغنيًا بالسفر، وجرير مبدوءًا مَبينًا عنه متمسكًا بالبقاء، وجَرَتْ حال كل منهما على ما يؤثره لأقواله الكاشفة عن وَعْيٍ منه أو غَفْلَةٍ- تَقَيَّدَ مُطْلَقُ الأعشى وأُطْلِقَ مُقَيَّدُ جريرا!

ولا ريب لدي الآن في علاقة ما انتهجه كلا الشاعرين في فصول التأتي، بما انتهجه في فصل الرسالة؛ فإنه لما لان الأعشى بِوَعيده في فصل الرسالة قَسا بتَحَازُنِه في فصول التأتي، ولما قسا جرير بذَمِّه في فصل الرسالة لان بتَحَازُنه في فصول التأتي؛ عسى أن تعتدل عند متلقي كلتا قصيدتيهما جميعا كِفَّتا ميزانها؛ فتفوز بقبولهم الذي يكفل لصاحبها بُلوغَها مَبْلَغَها!

خَاتِمَةُ الْفَصْلِ الثَّالِثِ

[٣٣] لم يخل اشتغالي بمقتضى مقالة أبي عمرو بن العلاء -رضي الله عنه!- هذه النفيسة: "نَظِيرُهُ (الأعشى) فِي الْإِسْلَامِ جرير، وَنَظِيرُ النَّابِغَةِ الْأَخْطَلُ، وَنَظِيرُ زُهَيْرٍ الْفَرَزْدَقُ"[١]، من إجلال لما في موازنة الكلام العربي بعضه ببعضه من دعوة خالدة إلى بحث نحوي راسخ شامخ، لا يتناهى في أية الجهتين إلى غاية، بل يتراحب كلما سار فيه النحويون، نافيا عنهم خوفهم من نَفاد مسائل البحث وتكرارها الذي يؤرقهم، واقفا غيرهم على جَلال ما يعملون لهذه الثقافة العربية الإسلامية المُشَرَّفة المضيَّعة؛ فاخترت لهذا البحث شعر أول أزواج الشعراء المذكورين بمقالته (الأعشى، وجرير).

ثم لما وجدت كلا الشاعرين قد فَصَّلَ قصيدته إلى فصلٍ للرسالة صنعه أولا ووضعه آخرًا وفصول للتأتّي صنعها آخرا ووضعها أولا، قدمت النظر في فصلي رسالتهما؛ فانتبهت إلى اجتماعهما عليها، ثم إلى افتراقهما في مقدارها، ثم إلى اجتماعهما على إطار أجزائها، ثم إلى افتراقهما في ذكر خَصيمَيْهِما، ثم إلى اختصاص الأعشى بتقديم اسم رسالته قبل أجزائها، ثم إلى اجتماعهما على أقسام أجزائها، ثم إلى افتراقهما في أنصبة أصحابها، ثم إلى افتراقهما في تَتابُعِ أقسامها، ثم إلى افتراقهما في أزمان أجزائها، ثم إلى اجتماعهما على ما تَصَدَّرَ فيه ضمير تكلمهما من أجزائها، ثم إلى اجتماعهما على تَفْقير فَصْلَيها، ثم إلى اجتماعهما على أعداد الفقر ومقاديرها، ثم إلى افتراقهما في منازل الفقر، ثم إلى افتراقهما في تراكيب محاور الفقر. وأخرت النظر في فصول التأتي؛ فانتبهت إلى اجتماعهما على التأتي بتحازن العشاق، ثم إلى افتراقهما في

[١] ابن سلام: ١/ ٦٦.

تفصيل المعاني وتوصيلها، ثم إلى افتراقهما في تفصيل المباني وتوصيلها، ثم إلى اجتماعهما على اقتضاب مفاصل الفصول، ذلك كله على النحو التالي في الجدول:

م	مسائل الاجتماع	مسائل الافتراق
١	تفصيل القصيدة	مقدار الرسالة
٢	إحاطة الرسالة	ذكر الخصيم
٣	تقسيم أجزاء الرسالة	تقديم اسم الرسالة
٤	تصدر المتكلم	أصحاب الأقسام
٥	تفقير فصل الرسالة	تتابع الأقسام
٦	الفقر وأبياتها	أزمان الأجزاء
٧	التأتي بتحازن العشاق	منازل الفقر
٨	اقتضاب مفاصل الفصول	محاور الفقر
٩		تفصيل المعاني وتوصيلها
١٠		تفصيل المباني وتوصيلها

لقد ظَهَرَتْ بين الشاعرين مسائلُ جامعةٌ، ربما كانت وراء مقالة أبي عمرو بن العلاء، رضي الله عنه! ولكنَّ ثَمَّ مَسائلَ أخرى فارقةً ظَهَرَتْ على تلك المسائل الجامعة، ربما كانت وراء بقائهما جميعا معا في العربية شاعرين كبيرين، حتى قال يحيى بن الجون العبدي راويةُ بشّار: "نَحْنُ حاكَةُ الشِّعْرِ في الْجاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلامِ، وَنَحْنُ أَعْلَمُ النّاسِ بِهِ. أَعْشى قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ أُسْتاذُ الشُّعَراءِ في الْجاهِلِيَّةِ، وَجَريرُ بْنُ الْخَطَفى أُسْتاذُهُمْ في الْإِسْلامِ"[١]!

---

[١] الأصفهاني: ٩/ ٣٢٣٢. ومن أعجب ما اجتمع عليه الأعشى وجرير، أن تَسَمّى ابنُ بِنْتِ جرير مِسْحَلًا كاسم رِئِيِّ الأعشى (شيطانه) القائل هو فيه: "إِذا مِسْحَلٌ سَدّى لِيَ الْقَوْلَ أَنْطِقُ"- وأن دُفِنَ جرير باليمامة حيث قبر الأعشى!

الْفَصْلُ الرَّابِعُ

بَيْنَ الرَّافِعِيِّ وَشَاكِرٍ: مُوَازَنَةٌ نَصِّيَّةٌ نَحْوِيَّةٌ

مُقَدِّمَةٌ

التَّثْقِيفُ الْعَرَبِيُّ الْإِسْلامِيُّ

[١] إذا هَجَرَ المُثَقَّفون ثَقافَتَهم جَهِلوها، فضاع إيمانهم بها، وزَهِدوا فيها، واختلفوا، فمِنْ مُتَشاغِلٍ عنها بمادّيّات حضارته وكأنها لُغْزٌ يُعَنِّتُه النَّظَرُ فيه، ومِنْ مُدْبِرٍ عنها إلى غيرها من الثقافات وكأنها عارٌ يَنْبَغي أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ، ومِنْ مُقْبِلٍ عليها بالتحريف وكأنها قَرْزَمَةٌ يَنْبَغي أَنْ يُهَذِّبَها- حتى إذا ما تَيَسَّرَ لبعضهم أن يَسْتَوْعِبَها حتى تَمْلَأَ عليه أَقْطارَ نفسه، فَيُؤْمِنَ بها حتى يَصيرَ هو نَفْسُه مَظْهَرَ كُنْهِها، ويَحْرِصَ عليها حتى يَصيرَ هو نَفْسُه لِسانَ حالِها- أقبل يتأتى إلى تعليمها، ويغري المثقفين بمراجعتها.

ويبدو لي أن حَيَواتِ الثقافات الكبيرة حيواتٌ مستديرة، تتوالى فيها من قديم إلى حديث، أحوالُ الوصال والهجران، والاستيعاب والجهل، والقوة والضعف؛ فقد ابتليت الثقافة العربية الإسلامية في القرن الهجري الرابع عشر (الميلادي العشرين)، بطوائف من أولئك الجاهلين الشاكين الزاهدين، تَشاغَلوا، وأَدْبَروا، وحَرَّفوا، وتَمَكَّنوا[١]، حتى نشأ مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠-١٩٣٧م)، ثم تلميذه محمود محمد شاكر (١٩٠٩-١٩٩٧م) -رحمهما الله!- فلم يكونا إلا مُثَقَّفَيْنِ أوتيا من استيعاب الثقافة العربية الإسلامية والإيمان بها والحرص عليها، ما أقبلا يَتَأَتَّيان به إلى تعليمها والإغراء بمراجعتها[٢]، حتى استحدثا أساليب أدبية متعددة مختلفة، أثرت في المتلقين تأثيرا شديدا.

---

[١] الشكعة: ٥٠.

[٢] السابق: ٥٠، ٥١. والعجب للدكتور الشكعة الذي عاصر الرافعي وشاكرا كليهما، وعرف علاقة ما بينهما، يضع كتابه هذا في سنة ١٩٧٠م، التي ملأت الدنيا فيها مقالات شاكر الشهيرة "أباطيل وأسمار"، ويقول

أَشَدُّ الْأَسَالِيبِ التَّثْقِيفِيَّةِ تَأْثِيرًا

[٢] ولكن ثَمَّ أسلوبين مَجَازِيَّيْن، كانا أشد أساليبهما تأثيرا[١]:

١ تَكْمِلَةُ الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ: فيه يكتبان نصوصهما فيما يريدان أن يبيناه لمعاصريهما من معالم الثقافة التي استوعباها، على منهج كتاب قديم أَثِيرٍ لَدَيْهِما مَعْرُوفٍ مَشْهُورٍ لَدَى المتلقين، ثم ينسبان نصوصهما تلك إلى هذا الكتاب، مُتَقَوِّيَيْنِ بأثره الراسخ في نفوس المتلقين، مُدَّعِيَيْنِ أنه وقعت لكل منهما نسخة منه لم تقع لغيره حتى صاحب الكتاب نفسه، موقِنَيْنِ أنه لن يغفل أحد من المتلقين عن مَجَاز عملهما! أما الرافعي فنسب نصوصا في مخاصمة بعض الأدباء، إلى كتاب "كليلة ودمنة"، ثم ضمنها كتابه "تحت راية القرآن". وأما شاكر فنسب نصوصا في مخاصمة بعض الأدباء كذلك، إلى الكتاب نفسه، على أَثَرِ أستاذه، ثم ضَمَّنَهَا كتابه "أباطيل وأسمار"، ونسب نصوصا أخرى في استشراف مستقبل الوطن العربي، إلى كتاب "تاريخ الطبري"، ثم تَضَمَّنَهَا كتابُ "جمهرة مقالات محمود محمد شاكر"، الصادر بعد وفاته.

فيه: "هل يوجد بيننا الآن رافعي آخر -وقد بدأت الفرعونية والشعوبية والتطاول على القيم تطل بوجهها الكريه من جديد- لا يتهاون في عقيدته ولا يترخص في دينه ولا يتكاسل في الدفاع عن حمى لغته ولا يغضي أو يتغاضى إذا ما هوجمت علنا وعلى رؤوس الأشهاد -والشأن هذه الأيام أن يعتدى عليها- فيعلنها معركة فكرية مقدسة لإظهار سطحية وضحالة هؤلاء الذين يغمزون العربية وآدابها وهم منها في جهل مطبق وفراغ في كل شيء إلا من نفوس ملأها الحقد وأكلتها الكراهية"!

[١] السابق: ٩٦. احتفى شاكر في مقدمته لكتاب "حياة الرافعي" للأستاذ محمد سعيد العريان، بأن يَتَيَسَّرَ للأستاذ الكبير من تلامذته من يبره في تراثه، كما بر محمد سعيد العريان أستاذه الرافعي؛ فَيَسَّرَ له المِقْدارُ تلميذه الدكتور عادل سليمان جمال الذي بره في تراثه، كفاء ما أثنى على السنة الحسنة، وشارك فيها!

٢ تَكْمِلَةُ الْمَجالِسِ الْقَديمَةِ: فيه يكتب الكاتبان نصوصهما فيما يريدان أن يبيناه لمعاصريهما من معالم الثقافة التي استوعباها، على منهج مجالس أعلام حملة ثقافتهما القدماء التي يرويها الأخباريّون، ثم ينسبان نصوصهما تلك إلى هؤلاء الأعلام، مُتَقَوِّيَيْنِ بأثرهم الراسخ في نفوس المتلقين، مُدَّعِيَيْنِ أنهما سمعا وشاهدا ما لم يسمعه أو يشاهده غيرهما حتى الأخباريّون السابقون أنفسهم، موقِنَيْنِ أنه لن يغفل أحد من المتلقين عن مجاز عملهما هذا كذلك! أما الرافعي فروى نصوصا في تهذيب الأخلاق النفسية والاجتماعية، عن بعض العلماء والزهاد، ثم ضمنها كتابه "وحي القلم". وأما شاكر فروى نصوصا في تهذيب الأخلاق النفسية والاجتماعية كذلك، وفي تنبيه الوعي السياسي، عن أبي الخطاب عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغَزِل المشهور، ثم تَضَمَّنَهَا كتاب "جمهرة مقالات محمود محمد شاكر " نفسه. وعلى رغم وضع شاكر فوق عناوين نصوص هذا الأسلوب، عبارة "من مذكرات عمر بن أبي ربيعة"، يَمْنَعُ من إضافتها إلى الأسلوب الأول، ألّا وجود في الكتب القديمة، لما تشير إليه العبارة!

جَوَامِعُ الْأُسْلُوبَيْنِ وَفَوَارِقُهُمَا

[٣] وعلى رغم تجلي آيتين من اتصال الحاضر الذليل بالماضي العزيز (هَمِّ الكاتبين) في نصوص الأسلوبين: استدعاء الماضي إلى الحاضر في نصوص الأسلوب الأول، ورحيل الحاضر إلى الماضي في نصوص الأسلوب الأخير- مَيَّزَ هذين الأسلوبين الاثنين في خلال ذلك الاتصال الواحد:

١ أن الأسلوب الأول أميل إلى العِلْمِيَّة -وإن عُدَّ كتاب "كليلة ودمنة " في الكتب الفنية- من حيث يجري مجرى عمل المُحَقِّقين، والأخير أميل إلى الفَنيَّة، من حيث يجري مجرى عمل القَصّاصين؛ فكأنما حرص الكاتبان على أن يسلكا إلى المتلقين، كل سبيل!

٢ أن أحداث نصوص الأسلوب الأول مُدَّعاةٌ على الكتب المنسوبة إليها، وأحداث نصوص الأسلوب الأخير مُحَقَّقَةٌ على أصحابها، وإن شابَتْها زيادات لا تؤثر فيها.

٣ أن افتراق الأسلوبين بما سبق، أفضى إلى كثرة نصوص الكاتبين في الأسلوب الأخير عنها في الأسلوب الأول، وإن كانت نصوص شاكر على وجه العموم أقل كثيرا من نصوص أستاذه، شأنَ المُعارَضَةِ؛ فمهما أحبَّ التلميذُ المعارِضُ أستاذَه المعارَضَ، وكان مُوَفَّقًا في مُعارَضَتِه، فَسَيَظَلُّ أكبرُ إخلاصه لما يستنبطه هو نفسه، ما دام فنانًا مبدعًا!

نُصُوصُ الْأُسْلُوبِ الْأَخِيرِ

[٤] ولقد كان في جلال الغاية التي أَمَّها الكاتبان، وفي صدق معنى المدرسة الثقافية الواحدة بينهما، وفي نجاح أسلوبهما الأخير الواضح في زيادة نصوصه على نصوص الأسلوب الأول- ما يستغرق تأمل النحوي، حتى يوازن بينهما موازنة نصية نحوية؛ فيشرح من معالم الغاية والمدرسة والأسلوب، ما يتقدم بدراسته النحوية في سبيل وعي علمي جديد.

- فانطلقت من نصوص شاكر هذه القليلة، في الأسلوب الأخير:

١ "ذات النطاقين"[١]، في الشدائد التي عانتها حتى ماتت.

٢ "الحقيقة المؤمنة"[٢]، فيما ابتلي به عروة بن الزبير.

٣ "أيام حزينة"[٣]، فيما ابتلي به ابن أبي عتيق.

٤ "جريرة ميعاد"[٤]، في بعض المواقف الغزلية.

---

[١] شاكر "٢": ١/ ٤٠.

[٢] السابق: ١/ ١١١.

[٣] السابق: ١/ ٢٣٤.

[٤] السابق: ١/ ٢٥١.

٥ "صديق إبليس"[١]، في بعض المواقف الغزلية.

٦ "صديق إبليس"[٢]، في بقية ذلك.

٧ "حديث غد"[٣]، في إجلاء يهود عن بلاد العرب.

- إلى نصوص الرافعي هذه الكثيرة في الأسلوب الأخير نفسه:

١ "سمو الحب"[٤]، في الحب بين الرجل والمرأة.

٢ "قصة زواج وفلسفة مهر"[٥]، في حسن اختيار الزوج.

٣ "ذيل القصة وفلسفة المال"[٦]، في بقية ذلك.

٤ "زوجة إمام"[٧]، في مكانة المرأة.

٥ "زوجة إمام: بقية الخبر"[٨]، في بقية ذلك.

٦ "قبح جميل"[٩]، في حسن اختيار الزوجة.

٧ "رؤيا في السماء"[١٠]، في حسن علاقة الزوج بزوجته.

---

[١] السابق: ١/ ٢٦٥.

[٢] السابق: ١/ ٢٧٢.

[٣] السابق: ١/ ٣٤٧.

[٤] الرافعي "٢": ١/ ١٠٣.

[٥] السابق: ١/ ١١٣.

[٦] السابق: ١/ ١٢٤.

[٧] السابق: ١/ ١٣٣.

[٨] السابق: ١/ ١٤٣.

[٩] السابق: ١/ ١٥١.

[١٠] السابق: ١/ ٢٢١.

٨ "بنته الصغيرة"[١]، في الفوز بالأبناء.

٩ "بنته الصغيرة"[٢]، في بقية ذلك.

١٠"الانتحار"[٣]، في علاج اليأس من الدنيا.

١١"الانتحار"[٤]، في بقية ذلك.

١٢"الانتحار"[٥]، في بقية ذلك.

١٣"الانتحار"[٦]، في بقية ذلك.

١٤"الانتحار"[٧]، في بقية ذلك.

١٥"الانتحار"[٨]، في بقية ذلك.

١٦"السمكة"[٩]، في الإيثار على النفس.

١٧"الزاهدان"[١٠]، في بقية ذلك.

١٨"إبليس يعلم"[١١]، في بقية ذلك.

---

[١] السابق: ١/ ٢٢٩.

[٢] السابق: ١/ ٢٣٧.

[٣] السابق: ٢/ ٧٤.

[٤] السابق: ٢/ ٨٢.

[٥] السابق: ٢/ ٨٩.

[٦] السابق: ٢/ ٩٦.

[٧] السابق: ٢/ ١٠٢.

[٨] السابق: ٢/ ١١٠.

[٩] السابق: ٢/ ١٣٥.

[١٠] السابق: ٢/ ١٤٣.

[١١] السابق: ٢/ ١٤٩.

١٩"الدنيا والدرهم"[١]، في بقية ذلك.

٢٠"الشيطان"[٢]، في معنى الصلاح والفساد.

٢١"الأسد"[٣]، في ثبات العلماء وكراماتهم.

٢٢"أمراء للبيع"[٤]، في جلال العلماء وسطوتهم.

مَادَّةُ الْمُوَازَنَةِ

[٥] تَلَمَّسْتُ كُلَّ زَوْجَيْنِ مُتَشابِهَيْنِ مِقْدارًا وَرِسالَةً، حتى عثرت لنص شاكر الثاني "الحقيقة المؤمنة"، على نص الرافعي الحادي والعشرين "الأسد"؛ فَفَصَّلْتُهما بما اسْتَوْعَبَتْهُما، وعَنْوَنْتُ فُصولَهما، ورَقَّمْتُهما، وشَكَّلْتُهما، على النحو الآتي:

---

[١] السابق: ٢/ ١٥٤.

[٢] السابق: ٢/ ١٦٦.

[٣] السابق: ٣/ ٤٥.

[٤] السابق: ٣/ ٥٢.

"الْأَسَدُ"[١]، لِلرَّافِعِيِّ

[١: مَشْهَدُ وَفَاةِ الْبَطَلِ]

"جَلَسَ أَبو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الرّوذَباريُّ الْبَغْداديُّ في مَجْلِسِ وَعْظِه بِمِصْرَ بَعْدَ وَفاةِ شَيْخِه أَبِي الْحَسَنِ بُنانٍ الْحَمَّالِ الزّاهِدِ الْواسِطيِّ شَيْخِ الدِّيارِ الْمِصْريَّةِ، وَكانَ يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِعِبادَتِه وَزُهْدِه، وَقَدْ خَرَجَ أَكْثَرُ أَهْلِ مِصْرَ في جِنازَتِه، فَكانَ يَوْمُه يَوْمًا كَالْبُرْهانِ مِنَ الْعالَمِ الْآخَرِ لِأَهْلِ هذِه الدُّنْيا: ما بَقِيَ أَحَدٌ إِلّا اقْتَنَعَ أَنَّه في شَهَواتِ الْحَياةِ وَأَباطيلِها كَالْأَعْمى في سوءِ تَمْييزِه بَيْنَ لَوْنِ التُّرابِ وَلَوْنِ الدَّقيقِ؛ إِذْ يَنْظُرُ كُلُّ امْرِئٍ في مَصالِحِه وَمَنافِعِه مِثْلَ هذِه النَّظْرَةِ، بِاللَّمْسِ لا بِالْبَصَرِ، وَبِالتَّوَهُّمِ لا بِالتَّحْقيقِ، وَعَلى دَليلِ نَفْسِه في الشَّيْءِ لا عَلى دَليلِ الشَّيْءِ في نَفْسِه، وَبِالْإِدْراكِ مِنْ جِهَةٍ واحِدَةٍ دونَ الْإِدْراكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ؛ ثُمَّ يَأْتي الْمَوْتُ، فَيَكونُ كَالْماءِ صُبَّ عَلى الدَّقيقِ وَالتُّرابِ جَميعًا، فَلا يَرْتابُ مُبْصِرٌ وَلا أَعْمى؛ وَيَبْطُلُ ما هُوَ باطِلٌ، وَيَحِقُّ الَّذي هُوَ حَقٌّ.

[٢: التَّطَلُّعُ إِلى لِقاءِ الْبَطَلِ]

وَتَكَلَّمَ أَبو عَلِيٍّ، فَقالَ: كُنْتُ ذاتَ يَوْمٍ عِنْدَ شَيْخِنا الْجُنَيْدِ في بَغْدادَ، فَجاءَه كِتابٌ مِنْ يوسُفَ بْنِ الْحَسَنِ شَيْخِ الرَّيِّ وَالْجِبالِ في وَقْتِه، يَقولُ فيه:

لا أَذاقَكَ اللّهُ طَعْمَ نَفْسِكَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ ذُقْتَها لَمْ تَذُقْ بَعْدَها خَيْرًا أَبَدًا!

---

[١] السابق: ٣/ ٤٥- ٥١.

قالَ: فَجَعَلْتُ أُفَكِّرُ في طَعمِ النَّفسِ: ما هُوَ، وَجاءَني ما لَمْ أَرْضَه مِنَ الرَّأْيِ، حَتّى سَمِعتُ بِخَبَرِ بُنانٍ -رَحِمَه اللهُ!- مَعَ أَحْمَدَ بْنِ طولونَ أَميرِ مِصْرَ، فَهُوَ الَّذي كانَ سَبَبَ قُدومي إِلى هُنا لِأَرى الشَّيْخَ وَأَصْحَبَه وَأَنتَفِعَ بِه.

[٣: مَكانَةُ أَمْثالِ الْبَطَلِ]

وَالْبَلَدُ الَّذي لَيْسَ فيهِ شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الدّينِ الصَّحيحِ وَالنَّفْسِ الْكامِلَةِ وَالْأَخْلاقِ الْإِلٰهيَّةِ، هُوَ في الْجَهْلِ كَالْبَلَدِ الَّذي لَيْسَ فيهِ كِتابٌ مِنَ الْكُتُبِ أَلْبَتَّةَ، وَإِنْ كانَ كُلُّ أَهْلِه عُلَماءَ، وَإِنْ كانَ في كُلِّ مَحَلَّةٍ مِنْهُ مَدْرَسَةٌ، وَفي كُلِّ دارٍ مِنْ دورِه خِزانَةُ كُتُبٍ؛ فَلا تُغْني هٰذِه الْكُتُبُ عَنِ الرِّجالِ؛ فَإِنَّما هِيَ صَوابٌ أَوْ خَطَأٌ يَنْتَهي إِلى الْعَقْلِ، وَلٰكِنَّ الرَّجُلَ الْكامِلَ صَوابٌ يَنْتَهي إِلى الرّوحِ، وَهُوَ في تَأْثيرِه عَلى النّاسِ أَقْوى مِنَ الْعِلْمِ، إِذْ هُوَ تَفْسيرُ الْحَقائِقِ في الْعَمَلِ وَحَياتُها عامِلَةً مَرْئيَّةً داعِيَةً إِلى نَفْسِها. وَلَوْ أَقامَ النّاسُ عَشْرَ سِنينَ يَتَناظَرونَ في مَعاني الْفَضائِلِ وَوَسائِلِها، وَوَضَعوا في ذٰلِكَ مِئَةَ كِتابٍ، ثُمَّ رَأَوْا رَجُلًا فاضِلًا بِأَصْدَقِ مَعاني الْفَضيلَةِ، وَخالَطوهُ وَصَحِبوه- لَكانَ الرَّجُلُ وَحْدَه أَكْبَرَ فائِدَةً مِنْ تِلْكَ الْمُناظَرَةِ، وَأَجْدى عَلى النّاسِ مِنْها، وَأَدَلَّ عَلى الْفَضيلَةِ مِنْ مِئَةِ كِتابٍ وَمِنْ أَلْفِ كِتابٍ؛ وَلِهٰذا يُرْسِلُ اللهُ النَّبِيَّ مَعَ كُلِّ كِتابٍ مُنَزَّلٍ لِيُعْطِيَ الْكَلِمَةَ قُوَّةَ وُجودِها، وَيُخْرِجَ الْحالَةَ النَّفْسيَّةَ مِنَ الْمَعْنى الْمَعْقولِ، وَيُنْشِئَ الْفَضائِلَ الْإِنْسانيَّةَ عَلى طَريقَةِ النَّسْلِ مِنْ إِنْسانِها الْكَبيرِ.

وَما مَثَلُ الْكِتابِ يَتَعَلَّمُ الْمَرْءُ مِنْهُ حَقائِقَ الْأَخْلاقِ الْعالِيَةِ، إِلّا كَوَضْعِ الْإِنْسانِ يَدَه تَحْتَ إِبطِه لِيَرْفَعَ جِسْمَه عَنِ الْأَرْضِ؛ فَقَدْ أَنْشَأَ يَعْمَلُ، وَلٰكِنَّه لَنْ يَرْتَفِعَ؛ وَمِنْ ذٰلِكَ كانَ شَرُّ النّاسِ هُمُ الْعُلَماءَ وَالْمُعَلِّمينَ إِذا لَمْ تَكُنْ أَخْلاقُهُمْ دُروسًا أُخْرى تَعْمَلُ عَمَلًا آخَرَ غَيْرَ الْكَلامِ؛ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَجْلِسُ مَجْلِسَ الْمُعَلِّمِ، ثُمَّ تَكونُ حَوْلَه رَذائِلُه تُعَلِّمُ تَعْليمًا آخَرَ مِنْ حَيْثُ يَدْري وَلا يَدْري، وَيَكونُ كِتابُ اللهِ مَعَ الْإِنْسانِ الظّاهِرِ مِنْهُ، وَكِتابُ الشَّيْطانِ مَعَ الْإِنْسانِ الْخَفِيِّ فيهِ.

[٤: صِفَةُ الْبَطَلِ عِنْدَ اللِّقاءِ]

قالَ أَبو عَلِيّ: وَقَدِمْتُ إِلى مِصْرَ لِأَرى أَبا الْحَسَنِ وَآخُذَ عَنْهُ وَأُحَقِّقَ ما سَمِعْتُ مِنْ خَبَرِه مَعَ ابْنِ طولونَ؛ فَلَمّا لَقيتُه لَقيتُ رَجُلًا مِنْ تَلاميذِ شَيْخِنا الْجُنَيْدِ، يَتَلَأْلَأُ فيهِ نورُه، وَيَعْمَلُ فيهِ سِرُّه؛ وَهُما كَالشَّمْعَةِ وَالشَّمْعَةِ فِي الضَّوْءِ وَإِنْ صَغُرَتْ واحِدَةٌ وَكَبُرَتْ واحِدَةٌ؛ وَعَلامَةُ الرَّجُلِ مِنْ هؤُلاءِ أَنْ يَعْمَلَ وُجودُه فيمَنْ حَوْلَه أَكْثَرَ مِمّا يَعْمَلُ هُوَ بِنَفْسِه، كَأَنَّ بَيْنَ الْأَرْواحِ وَبَيْنَه نَسَبًا شابِكًا، فَلَه مَعْنى أُبُوَّةِ الْأَبِ في أَبْنائِه: لا يَراهُ مَنْ يَراهُ مِنْهُمْ إِلّا أَحَسَّ أَنَّه شَخْصُه الْأَكْبَرُ؛ فَهذا هُوَ الَّذي تَكونُ فيهِ التَّكْمِلَةُ الْإِنْسانِيَّةُ لِلنّاسِ، وَكَأَنَّه مَخْلوقٌ خاصَّةً لِإِثْباتِ أَنَّ غَيْرَ الْمُسْتَطاعِ مُسْتَطاعٌ.

وَمِنْ عَجيبِ حِكْمَةِ اللهِ أَنَّ الْأَمْراضَ الشَّديدَةَ تَعْمَلُ بِالْعَدْوى فيمَنْ قارَبَها أَوْ لامَسَها، وَأَنَّ الْقُوى الشَّديدَةَ تَعْمَلُ كَذلِكَ بِالْعَدْوى فيمَنِ اتَّصَلَ بِها أَوْ صاحَبَها؛ وَلِهذا يَخْلُقُ اللهُ الصّالِحينَ، وَيَجْعَلُ التَّقْوى فيهِمْ إِصابَةً كَإِصابَةِ الْمَرَضِ، تَصْرِفُ عَنْ شَهَواتِ الدُّنْيا كَما يَصْرِفُ الْمَرَضُ عَنْها، وَتَكْسِرُ النَّفْسَ كَما يَكْسِرُها ذاكَ، وَتُفْقِدُ الشَّيْءَ ما هُوَ بِه شَيْءٌ، فَتَتَحَوَّلُ قيمَتُه، فَلا يَكونُ بِما فيهِ مِنَ الْوَهْمِ، بَلْ بِما فيهِ مِنَ الْحَقِّ. وَإِذا عَدِمَ النّاسُ هذا الرَّجُلَ الَّذي يُعْديهِمْ بِقُوَّتِه الْعَجيبَةِ، فَقَلَّما يَصْلُحونَ لِلْقُوَّةِ، فَكِبارُ الصّالِحينَ وَكِبارُ الزُّعَماءِ وَكِبارُ الْقُوّادِ وَكِبارُ الشُّجْعانِ وَكِبارُ الْعُلَماءِ وَأَمْثالُهُمْ، كُلُّ هؤُلاءِ مِنْ بابٍ واحِدٍ، وَكُلُّهُمْ فِي الْحِكْمَةِ كَكِبارِ الْمَرْضى.

[٥: شُهودُ كَرامَةِ الْبَطَلِ]

قالَ أَبو عَلِيّ: وَهَمَمْتُ مَرَّةً أَنْ أَسْأَلَ الشَّيْخَ عَنْ خَبَرِه مَعَ ابْنِ طولونَ، فَقَطَعَتْني هَيْبَتُه، فَقُلْتُ أَحْتالُ بِسُؤالِه عَنْ كَلِمَةِ شَيْخِ الرَّيّ: "لا أَذاقَكَ اللهُ طَعْمَ نَفْسِكَ". وَبَيْنَما أُهَيِّئُ في نَفْسي كَلامًا أُجْري فيهِ هذِهِ الْعِبارَةَ، جاءَ رَجُلٌ، فَقالَ لِلشَّيْخِ:

لي علی فلانٍ مِئَةُ دينارٍ، وقدْ ذهبتِ الْوثيقةُ الَّتي كُتبَ فيها الدَّيْنُ، وأخْشى أنْ يُنْكِرَ إِذا هُوَ عَلِمَ بِضياعِها، فادعُ اللهَ لي ولَه أنْ يُظْفِرَني بِدَيْني وأنْ يُثَبِّتَه علی الْحَقِّ.

فقالَ الشَّيْخُ: إِنّي رجلٌ قدْ كبِرْتُ، وأنا أُحِبُّ الْحَلْوى، فاذْهبْ، فاشْترِ رِطْلاً منْها، وائْتِني بِه حتّى أدْعو لكَ!

فذهبَ الرَّجلُ، فاشْترى الْحَلْوى، ووضعَها لَه الْبائعُ في ورقةٍ، فإذا هِيَ الْوثيقةُ الضّائعةُ!

وجاءَ إلى الشَّيْخ، فأخْبَرَه، فقالَ لَه:

خُذِ الْحَلْوى، فأَطْعِمْها صِبْيانَكَ، لا أذاقنا اللهُ طَعْمَ أنفُسِنا فيما نَشْتَهي!

ثُمَّ إِنَّه الْتَفتَ إِلَيَّ، وقالَ:

لَوْ أنَّ شجرةً اشْتَهتْ غَيْرَ ما بِهِ صِحّةُ وُجودِها وكَمالُ منْفعتِها، فأُذيقَتْ طعمَ نفْسِها، لأكَلتْ نفْسَها، وذَوتْ!

قالَ أبو عَلِيّ: والْمُعْجِزاتُ الَّتي تحْدُثُ لِلأنْبياءِ، والْكَراماتُ الَّتي تكونُ لِلأتْقياءِ، وما يَخْرِقُ الْعادةَ ويخْرُجُ عنِ النَّسَقِ- كُلُّ ذلكَ كقَوْلِ الْقُدْرةِ عنِ الرَّجُلِ الشّاذِّ: هُوَ هذا. فلَمْ تبْقَ بي حاجةٌ إِلى سُؤالِ الشَّيْخِ عنْ خَبَرِه معَ ابْنِ طولونَ، وكُنْتُ كأَنّي أرى بِعيْنَيَّ رأْسي كُلَّ ما سَمِعْتُ، بيدَ أَنّي لَمْ أنْصرِفْ، حتّى لَقيتُ أبا جعْفرٍ الْقاضِيَ أحْمدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ مسْلِمِ بْنِ قُتَيْبةَ الدّينَوَرِيَّ، ذاكَ الَّذي يُحَدِّثُ بِكُتُبِ أبيه كُلِّها منْ حِفْظِه، وهِيَ واحِدٌ وعشْرونَ مُصَنَّفًا، فيها الْكَبيرُ والصَّغيرُ، فقالَ لي:

لَعَلَّكَ اشْتَفَيْتَ مِنْ خَبَرِ بُنانٍ مَعَ ابْنِ طولونَ، فَمِنْ أجْلِه -زَعَمْتَ- جِئْتَ إِلى مِصْرَ؟

قُلْتُ: إِنَّه تَواضَعَ، فلَمْ يُخْبِرْني، وهِبْتُه، فلَمْ أسْأَلْه.

قالَ: تَعالَ أُحَدِّثْكَ الْحَديثَ:

[٦: صِفَةُ خَصيمِ الْبَطَلِ]

كانَ أَحْمَدُ بْنُ طولونَ مِنْ جارِيَةٍ تُرْكِيَّةٍ، وَكانَ طولونُ أَبوهُ مَمْلوكًا حَمَلَه نوحُ بْنُ أَسدٍ عامِلُ بُخارى إِلى الْمَأْمونِ فيما كانَ مُوَظَّفًا عَلَيْهِ مِنَ الْمالِ وَالرَّقيقِ وَالْبَراذينِ وَغَيْرِ ذلِكَ، فَوُلِدَ أَحْمَدُ في مَنْصِبٍ ذِلَّةٍ تَسْتَظْهِرُ بِالطُّغْيانِ، وَكانَتْ هاتانِ طَبيعَتَيْهِ إِلى آخِرِ عُمُرِه، فَذَهَبَ بِهِمَّتِهِ مَذْهَبًا بَعيدًا، وَنَشَأَ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِه عَلى أَنْ يُتِمَّ هذا النَّقْصَ وَيَكونَ أَكْبَرَ مِنْ أَصْلِهِ؛ فَطَلَبَ الْفُروسِيَّةَ وَالْعِلْمَ وَالْحَديثَ، وَصَحِبَ الزُّهّادَ وَأَهْلَ الْوَرَعِ، وَتَمَيَّزَ عَلى الْأَتْراكِ وَطَمَحَ إِلى الْمَعالي، وَظَلَّ يَرْمي بِنَفْسِه، وَهُوَ في ذلِكَ يَكْبُرُ وَلا يَزالُ يَكْبُرُ، كَأَنَّما يُريدُ أَنْ يَنْقَطِعَ مِنْ أَصْلِهِ وَيَلْتَحِقَ بِالْأُمَراءِ، فَلَمّا الْتَحَقَ بِهِمْ ظَلَّ يَكْبُرُ لِيَلْتَحِقَ بِالْمُلوكِ، فَلَمّا بَلَغَ هؤُلاءِ كانَتْ نِيَّتُه عَلى ما يَعْلَمُ اللّٰهُ!

قالَ: وَكانَ عَقْلُه مِنْ أَثَرِ طَبيعَتَيْهِ كَالْعَقْلَيْنِ لِرَجُلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: فَلَه يَدٌ مَعَ الْمَلائِكَةِ، وَيَدُه الْأُخْرى مَعَ الشَّياطينِ:

فَهُوَ الَّذي بَنى الْمارِسْتانَ وَأَنْفَقَ عَلَيْهِ وَأَقامَ فيهِ الْأَطِبّاءَ، وَشَرَطَ إِذا[1] جيءَ بِالْعَليلِ أَنْ تُنْزَعَ ثِيابُه وَتُحْفَظَ عِنْدَ أَمينِ الْمارِسْتانِ، ثُمَّ يُلْبَسَ ثِيابًا وَيُفْرَشَ لَه وَيُغْدى عَلَيْهِ وَيُراحَ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ وَالْأَطِبّاءِ حَتّى يَبْرَأَ، وَلَمْ يَكُنْ هذا قَبْلَ إِمارَتِه.

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَظَرَ في الْمَظالِمِ مِنْ أُمَراءِ مِصْرَ.

وَهُوَ صاحِبُ يَوْمِ الصَّدَقَةِ، يُكْثِرُ مِنْ صَدَقاتِه كُلَّما كَثُرَتْ نِعْمَةُ اللّٰهِ عَلَيْهِ، وَمَراتِبُه لِذلِكَ في كُلِّ أُسْبوعٍ ثَلاثَةُ آلافِ دينارٍ سِوى مَطابِخِه الَّتي أُقيمَتْ في كُلِّ يَوْمٍ في دارِه وَغَيْرِها، يُذْبَحُ فيها الْبَقَرُ وَالْكِباشُ وَيُغْرَفُ لِلنّاسِ، وَلِكُلِّ مِسْكينٍ أَرْبَعَةُ أَرْغِفَةٍ يَكونُ في اثْنَيْنِ مِنْها فالوذَجٌ وَفي الْآخَرَيْنِ مِنَ الْقُدورِ، وَيُنادى: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ دارَ الْأَميرِ فَلْيَحْضُرْ! وَتُفْتَحُ الْأَبْوابُ،

[1] هي في النص "إِذْ"، ولا ريب -إن شاء الله- في صواب ما أثبت؛ فلا أصالة لاستعمال "إِذْ" في المستقبل.

وَيَدْخُلُ النّاسُ وَهُوَ فِي الْمَجْلِسِ يَنْظُرُ إلى الْمَساكينِ وَيَتَأَمَّلُ فَرَحَهُمْ بِما يَأْكُلونَ وَيَحْمِلونَ، فَيَسُرُّه ذلِكَ، وَيَحْمَدُ اللهَ عَلى نِعْمَتِه. وَكانَ راتِبُ مَطْبَخِه في كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ دينارٍ، وَاقْتَدى بِه ابْنُه خُمارَوَيْه، فَأَنْشَأَ بَعْدَه مَطْبَخَ الْعامَّةِ يُنْفِقُ عَلَيْه ثَلاثَةً وَعِشْرينَ أَلْفَ دينارٍ كُلَّ شَهْرٍ. وَقَدْ بَلَغَ ما أَرْسَلَه ابْنُ طولونَ إلى فُقَراءِ بَغْدادَ وَعُلَمائِها في مُدَّةِ وِلايَتِه، أَلْفَيْ أَلْفٍ وَمِئَتَيْ أَلْفِ دينارٍ.

وَكانَ كَثيرَ التِّلاوَةِ لِلْقُرْآنِ، وَقَدِ اتَّخَذَ حُجْرَةً بِقُرْبِه فِي الْقَصْرِ وَضَعَ فيها رِجالًا سَمّاهُمْ بِالْمُكَبِّرينَ، يَتَعاقَبونَ اللَّيْلَ نُوَبًا يُكَبِّرونَ، وَيُسَبِّحونَ، وَيَحْمَدونَ، وَيُهَلِّلونَ، وَيَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ تَطْريبًا، وَيُنْشِدونَ قَصائِدَ الزُّهْدِ، وَيُؤَذِّنونَ أَوْقاتَ الْأَذانِ.

وَهُوَ الَّذي فَتَحَ أَنْطاكِيَّةَ في سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتّينَ وَمِئَتَيْنِ، ثُمَّ مَضى إلى طَرْسوسَ كَأَنَّه يُريدُ فَتْحَها، فَلَمّا نابَذَه أَهْلُها وَقاتَلَهُمْ أَمَرَ أَصْحابَه أَنْ يَنْهَزِموا عَنْها، لِيَبْلُغَ ذلِكَ طاغِيَةَ الرّومِ فَيَعْلَمَ أَنَّ جُيوشَ ابْنِ طولونَ عَلى كَثْرَتِها وَشِدَّتِها لَمْ تَقُمْ لِأَهْلِ طَرْسوسَ، فَيَكونَ بِهذا كَأَنَّه قاتَلَه وَصَدَّه عَنْ بَلَدٍ مِنْ بِلادِ الْإِسْلامِ، وَيَجْعَلَ هذا الْخَبَرَ كَالْجَيْشِ في تِلْكَ النّاحِيَةِ!

وَمَعَ كُلِّ ذلِكَ فَإِنَّه كانَ رَجُلًا طائِشَ السَّيْفِ، يَجورُ وَيَعْسِفُ، وَقَدْ أُحْصِيَ مَنْ قَتَلَهُمْ صَبْرًا أَوْ ماتوا في سِجْنِه، فَكانوا ثَمانِيَةَ عَشَرَ أَلْفًا.

وَأَمَرَ بِسَجْنِ قاضيه بَكّارِ بْنِ قُتَيْبَةَ في حادِثَةٍ مَعْروفَةٍ، وَقالَ لَه:

غَرَّكَ قَوْلُ النّاسِ ما فِي الدُّنْيا مِثْلُ بَكّارٍ؟ أَنْتَ شَيْخٌ قَدْ خَرِفْتَ!

ثُمَّ حَبَسَه، وَقَيَّدَه، وَأَخَذَ مِنْه جَميعَ عَطاياهُ مُدَّةَ وِلايَتِه الْقَضاءَ، فَكانَتْ عَشَرَةَ آلافِ دينارٍ، قيلَ إِنَّها وُجِدَتْ في بَيْتِ بَكّارٍ بِخَتْمِها لَمْ يَمَسَّها زُهْدًا وَتَوَرُّعًا.

وَلَمّا ذَهَبَ شَيْخُكَ أَبو الْحَسَنِ يُعَنِّفُه وَيَأْمُرُه بِالْمَعْروفِ وَيَنْهاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، طاشَ عَقْلُه؛ فَأَمَرَ بِإِلْقائِه إلى الْأَسَدِ، وَهُوَ الْخَبَرُ الَّذي طارَ فِي الدُّنْيا حَتّى بَلَغَكَ في بَغْدادَ!

[٧: تَعْرِيضُ الْبَطَلِ لِلافْتِرَاسِ]

[٧= ١: صِفَةُ الْأَسَدِ]

قالَ: وَكُنْتُ حاضِرَ أَمْرِهِمْ ذلِكَ الْيَوْمَ، فَجِيءَ بِالْأَسَدِ مِنْ قَصْرِ ابْنِه خُمارَوَيْه. وَكانَ خُمارَوَيْه هذا مَشْغوفًا بِالصَّيْدِ، لا يَكادُ يَسْمَعُ بِسَبُعٍ في غَيْضَةٍ أَوْ بَطْنِ وادٍ إِلّا قَصَدَه ومَعَه رِجالٌ عَلَيْهِمْ لُبودٌ، فَيَدْخُلونَ إِلى الْأَسَدِ، وَيَتَناوَلونَه بِأَيْديهِمْ مِنْ غابِه عَنْوَةً وَهُوَ سَليمٌ، فَيَضَعونَه في أَقْفاصٍ مِنْ خَشَبٍ مُحْكَمَةِ الصَّنْعَةِ يَسَعُ الْواحِدُ مِنْها السَّبُعَ وَهُوَ قائِمٌ. وَكانَ الْأَسَدُ الَّذي اخْتاروهُ لِلشَّيْخِ، أَغْلَظَ ما عِنْدَهُمْ، جَسيمًا، ضارِيًا، عارِمَ الْوَحْشِيَّةِ، مُتَزَيِّلَ الْعَضَلِ، شَديدَ عَصَبِ الْخَلْقِ، هَرّاسًا، فَرّاسًا، أَهْرَتَ الشِّدْقِ، يَلوحُ شِدْقُه مِنْ سَعَتِه وَرَوْعَتِه كَفَتْحَةِ الْقَبْرِ، يُنْبِئُ أَنْ جَوْفَه مَقْبَرَةٌ، وَيَظْهَرُ وَجْهُه خارِجًا مِنْ لِبْدَتِه، يَهُمُّ أَنْ يَنْقَذِفَ عَلى مَنْ يَراه فَيَأْكُلَه!

[٧= ٢: هَجْمَةُ الْأَسَدِ]

وَأَجْلَسوا الشَّيْخَ في قاعَةٍ، وَأَشْرَفوا عَلَيْهِ يَنْظُرونَ، ثُمَّ فَتَحوا بابَ الْقَفَصِ مِنْ أَعْلاهُ، فَجَذَبوه؛ فَارْتَفَعَ، وَهَجْهَجوا بِالْأَسَدِ يَزْجُرونَه؛ فَانْطَلَقَ يَزْمُجِرُ وَيَزْأَرُ زَئيرًا تَنْشَقُّ لَه الْمَرائِرُ، وَيَتَوَهَّمُ مَنْ يَسْمَعُه أَنَّه الرَّعْدُ وَراءَه الصّاعِقَةُ! ثُمَّ اجْتَمَعَ الْوَحْشُ في نَفْسِه، وَاقْشَعَرَّ، ثُمَّ تَمَطّى كَالْمَنْجَنيقِ يَقْذِفُ الصَّخْرَةَ، فَما بَقِيَ مِنْ أَجَلِ الشَّيْخِ إِلّا طَرْفَةُ عَيْنٍ.

[٧= ٣: ذُهولُ الْأَسَدِ]

وَرَأَيْناه عَلى ذلِكَ ساكِنًا مُطْرِقًا لا يَنْظُرُ إِلى الْأَسَدِ وَلا يَحْفِلُ بِه، وَما مِنّا إِلّا مَنْ كادَ يَنْهَتِكُ حِجابُ قَلْبِه مِنَ الْفَزَعِ وَالرُّعْبِ وَالْإِشْفاقِ عَلى الرَّجُلِ./١ وَلَمْ يَرُعْنا إِلّا ذُهولُ الْأَسَدِ عَنْ وَحْشِيَّتِه:/٢ فَأَقْعى عَلى ذَنَبِه،/٣ ثُمَّ لَصِقَ بِالْأَرْضِ هُنَيْهَةً يَفْتَرِشُ ذِراعَيْه،/٤ ثُمَّ نَهَضَ نَهْضَةً أُخْرى كَأَنَّه غَيْرُ الْأَسَدِ،/٥ فَمَشى مُتَرَفِّقًا ثَقيلَ الْخَطْوِ تُسْمَعُ لِمَفاصِلِه قَعْقَعَةٌ مِنْ شِدَّتِه

وَجَسامَته،٦/ وأَقْبَلَ عَلى الشَّيْخِ،٧/ وَطَفِقَ يَحْتَكُّ بِهِ وَيلْحَظُه وَيَشَمُّه كَما يَصْنَعُ الْكَلْبُ مَعَ صاحِبِه الَّذي يأْنَسُ بِه، وكَأَنَّه يعْلِنُ أَنَّ هذِه لَيْستْ مُصاولةً بيْنَ الرَّجُلِ التَّقِيّ وَالْأَسَدِ، وَلٰكِنَّها مُبارَزَةٌ بيْنَ إِرادَةِ ابْنِ طولونَ وَإِرادَةِ اللّهِ!٨/

[٧= ٤: يَقِينُ الْبَطَلِ]

وَضَرَبَته روحُ الشَّيْخِ؛ فَلَمْ يَبْقَ بيْنَه وَبيْنَ الْآدَمِيّ عَمَلٌ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بِإِزاءِ لَحْمٍ وَدَمٍ، فَلَوْ أَكَلَ الضَّوْءَ وَالْهَواءَ وَالْحَجَرَ وَالْحَديدَ، كانَ ذلِكَ أَقْرَبَ وَأَيْسَرَ مِنْ أَنْ يأْكُلَ هذا الرَّجُلَ الْمُتَمَثِّلَ في رُوحانِيَّتِه، لا يُحِسُّ لِصورَةِ الْأَسَدِ مَعْنًى مِنْ مَعانيها الْفاتِكَةِ، وَلا يَرى فيه إِلّا حَياةً خاضِعَةً مُسَخَّرَةً لِلْقُوَّةِ الْعُظْمى الَّتي هُوَ مُؤْمِنٌ بِها وَمُتَوَكِّلٌ عَلَيْها، كَحَياةِ الدّودَةِ وَالنَّمْلَةِ وَما دونَها مِنَ الْهَوامِّ وَالذَّرِّ! وَوَرَدَ النّورُ عَلى هذا الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ يَكْشِفُ لَه عَنْ قُرْبِ الْحَقِّ -سُبْحانَه، وَتَعالى!-: فَهُوَ لَيْسَ بيْنَ يَدَيِ الْأَسَدِ وَلٰكِنَّه هُوَ وَالْأَسَدُ بيْنَ يَدَيِ اللّهِ. وَكانَ مُنْدَمِجًا في يَقينِ هذِه الْآيَةِ: [وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا]. وَرَأى الْأَسَدُ رَجُلًا هُوَ خَوْفُ اللّهِ، نَخافُ مِنْهُ، وَكَما خَرَجَ الشَّيْخُ مِنْ ذاتِه وَمَعانيها النّاقِصَةِ، خَرَجَ الْوَحْشُ مِنْ ذاتِه وَمَعانيها الْوَحْشِيَّةِ: فَلَيْسَ فِي الرَّجُلِ خَوْفٌ وَلا هَمٌّ وَلا جَزَعٌ وَلا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ، وَمِنْ ذلِكَ لَيْسَ فِي الْأَسَدِ فَتْكٌ وَلا ضَراوَةٌ وَلا جوعٌ وَلا تَعَلُّقٌ بِرَغْبَةٍ. وَنَسِيَ الشَّيْخُ نَفْسَه، فَكَأَنَّما رَآه الْأَسَدُ مَيِّتًا وَلَمْ يَجِدْ فيه (أَنا) الَّتي يأْكُلُها، وَلَوْ أَنَّ خَطْرَةً مِنْ هَمِّ الدُّنْيا خَطَرَتْ عَلى قَلْبِه في تِلْكَ السّاعَةِ أَوِ اخْتَلَجَتْ في نَفْسِه خالِجَةٌ مِنَ الشَّكِّ، لَفاحَتْ رائِحَةُ لَحْمِه في خَياشيمِ الْأَسَدِ؛ فَتَمَزَّقَ في أَنْيابِه وَمَخالِبِه.

[٧= ٥: دَهْشَةُ الشُّهودِ]

قالَ: وَانْصَرَفْنا عَنِ النَّظَرِ فِي السَّبُعِ إِلى النَّظَرِ في وَجْهِ الشَّيْخِ، فَإِذا هُوَ ساهِمٌ مُفَكِّرٌ. ثُمَّ رَفَعوه، وَجَعَلَ كُلٌّ مِنّا يَظُنُّ ظَنًّا في تَفْكيرِه:

فَمَنْ قائِلٍ: إِنَّه الخَوْفُ أَذْهَلَه عَنْ نَفْسِه!

وَقائِلٍ: إِنَّه الانْصِرافُ بِعَقْلِه إلى المَوْت.

وَثالِثٍ يَقولُ: إِنَّه سُكونُ الفِكْرَةِ لِمَنْعِ الحَرَكَةِ عَنِ الجِسْمِ؛ فَلا يَضْطَرِبُ.

وَزَعَمَ جَماعَةٌ أَنَّ هذِه حالَةٌ مِنَ الاسْتِغْراقِ يَسْحَرُ بِها الأَسَدَ!

وَأَكْثَرْنا في ذلِكَ وَتَجارَيْنا فيهِ، حَتّى سَأَلَه ابْنُ طولونَ:

ما الَّذي كانَ في قَلْبِكَ، وَفيمَ كُنْتَ تُفَكِّرُ؟

فَقالَ الشَّيْخُ: لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ بَأْسٌ، وَإِنَّما كُنْتُ أُفَكِّرُ في لُعابِ الأَسَدِ: أَهُوَ طاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ"!

"الْحَقِيقَةُ الْمُؤْمِنَةُ"[1]، لِشَاكِرٍ

[١: مُصِيبَةُ مَوْتِ شَابٍّ نَبِيلٍ]

" قالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ:... فَبادَرْتُ أَعْدو يَكادُ يَنْشَقُّ عَلَيَّ جِلْدي مِنْ شِدَّةِ الْعَدْوِ، فَقَدْ أَكَلَتْ مِنّي السِّنُّ وَتَعَرَّقَتْني أَنْيابُ الْكِبَرِ، فَما جاوَزْتُ رَوْضَةَ قَصْرِ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ[2]، حَتّى تَقَطَّعَتْ أَنْفاسي مِنَ الْجَهْدِ، وَتَلَقّاني الْآذِنُ:

ما عَدا بِكَ يا أَبا الْخَطّابِ؟

فَقُلْتُ: ائْذَنْ لي عَلى أَميرِ الْمُؤْمِنينَ، فَقَدْ نَزَلَ بِنا ما لا رَدَّ لَهُ.

وَتَبِعْتُهُ وَاللّهِ إِنَّ فَرائِصي لَتُرْعَدُ وَكَأَنّي مَحْمومٌ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهِ هَبَّةُ ريحٍ بارِدَةٍ! وَغابَ الْآذِنُ، فَما هُوَ إِلّا أَميرُ الْمُؤْمِنينَ يَسْتَقْبِلُني كَالْفَزِعِ، وَقَدْ خَرَجَ إِلَيَّ، فَقالَ:

أَيُّ شَيْءٍ هُوَ، يا ابْنَ أَبي رَبيعَةَ؟

قُلْتُ: وَاللّهِ ما أَدْري -يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ- فَما كانَ إِلّا وَمُحَمَّدُ بْنُ عُرْوَةَ تَحْتَ سَنابِكِها، فَما زالَتْ تَضْرِبُهُ بِقَوائِمِها، وَما أَدْرَكْناهُ إِلّا وَقَدْ تَهَشَّمَ وَجْهُهُ، وَتَحَطَّمَتْ أَضْلاعُهُ!

وَكَأَنَّما فارَقَتْني الرّوحُ، فَما أَشْعُرُ إِلّا وَأَميرُ الْمُؤْمِنينَ قائِمٌ عَلى رَأْسي يَنْضَحُ الْماءَ عَلى وَجْهي، وَقَدْ قُرِّبَتْ إِلَيَّ مِجْمَرَةٌ يَسْطَعُ مِنْها ريحُ الْمَنْدَلِ الرَّطْبِ، فَلَمّا أَفَقْتُ وَرَجَعَتْ إِلَيَّ روحي سَأَلَني أَميرُ الْمُؤْمِنينَ أَنْ أَقُصَّ عَلَيْهِ الْخَبَرَ.

---

[1] شاكر "٢": ١/ ١١١- ١١٧.

[2] في النص زيادات توضيحية كثيرة من عمل الدكتور عادل سليمان جمال، بين أقواس، كزيادته "(هو الوليد بن عبد الملك)"، بعد "أمير المؤمنين" هنا، لم أر لها مكانا في مادة هذه الموازنة.

[٢: صُورَةُ مَوْتِ الشَّابِّ النَّبِيلِ]

قُلْتُ: خَرَجْنا أَنا وَمُحَمَّدُ بْنُ عُرْوَةَ وَهِشامٌ أَخوهُ نُريدُ مَنْزِلَنا مِنْ قَصْرِ أَميرِ الْمُؤْمِنينَ، نَرْجو أَنْ نَتَخَفَّفَ مِنْ بَعْضِ ثِيابِنا؛ فَقَدْ أَنْهَكَنا الْحَرُّ، فَنَظَرَ مُحَمَّدٌ إِلى مِرْآةٍ مِنْ فِضَّةٍ مَجْلُوَّةٍ مُعَلَّقَةٍ في الْبَيْتِ، ثُمَّ قالَ:

أَتَذْكُرُ يا أَبا الْخَطّابِ حَجَّتَنا تِلْكَ؟

قُلْتُ: أَيَّتَهُنَّ؛ فَقَدْ أَكْثَرْتَ وَعَمُّكَ الْحَجَّ؟

فَقالَ: سُرْعانَ ما نَسِيَ الشَّيْخُ! لَقَدْ كَبِرْتَ، وَاللهِ، يا أَبا الْخَطّابِ! وَقَدْ حَدَّثَني أَبي بِالَّذي كانَ مِنْكَ، فَقَدْ كُنْتَ تُسايِرُهُ وَتُحادِثُهُ، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ سَأَلْتَهُ:

وَأَيْنَ زَيْنُ الْمَواكِبِ، يا أَبا عَبْدِ اللهِ؟

فَقالَ لَكَ: أَمامَكَ.

فَأَرَدْتَ تَرْكُضُ راحِلَتَكَ تَطْلُبُني، فَقالَ لَكَ:

يا أَبا الْخَطّابِ، أَوَلَسْنا أَكْفاءً كِرامًا لِمُحادَثَتِكَ، وَنَحْنُ أَوْلى أَنْ تُسايِرَنا!

فَقُلْتَ لَهُ: بَلى، بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي، يا أَبا عَبْدِ اللهِ! وَلٰكِنّي مُغْرًى بِهٰذا الْجَمالِ، أَتْبَعُهُ حَيْثُ كانَ!

ثُمَّ عَدَلْتَ بِراحِلَتِكَ، وَضَرَبْتَها، وَأَقْبَلْتَ إِلَيَّ، وَجَعَلَ أَبي يَتَعَجَّبُ مِنْكَ وَيَضْحَكُ، وَقَدِ اسْتَنارَ وَجْهُهُ! إِحْدى سَوْآتِكَ هِيَ، وَاللهِ، يا أَبا الْخَطّابِ!

فَضَحِكْتُ لِقَوْلِهِ، وَتَناقَلْنا الْحَديثَ، وَإِذا هُوَ ساكِنٌ ساجٍ كَأَنَّما غَشِيَتْهُ غاشِيَةُ هَمٍّ، فَقُلْتُ:

ما بِكَ؟

فَزَفَرَ -وَاللهِ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ- زَفْرَةً كَأَنَّما انْشَقَّتْ لَها كَبِدي، ثُمَّ قالَ:

أَرَأَيْتَ هذا الْجَمالَ الَّذي تَبِعْتَه -يا أَبا الْخَطّابِ- يوشِكُ أَنْ يَكونَ طَعامًا يَلْحَسُه تُرابُ الْقَبْرِ، فَما تَرى إِلّا عَظْمًا أَغْبَرَ مِنْ جُمْجُمَةٍ تَقْذِفُ الرُّعْبَ مِنْ مَحْجِرَيْها!

لَقَدْ رَوَّعَني -وَاللّهِ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ- حَتّى تَطَيَّرْتُ وَما بِيَ الطِّيَرَةُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَصْرِفَه عَنْ بَعْضِ وَهْمِه، أَنْ يَكونَ الصَّيْفُ قَدْ أَوْقَدَ عَلَيْه حَرَّه، فَخَيَّرَه، فَانْطَلَقْنا جَميعًا إِلى سَطْحِ الْبَيْتِ نَسْتَظِلُّ بِظُلَّتِه، وَنَسْتَرْوِحُ النَّسَماتِ، وَأَقْبَلْنا نَضْحَكُ وَنَعْبَثُ وَنَلْهو مِنْ بَعْضِ اللَّهْوِ، وَإِذا طائِرٌ يَحومُ يُصَفِّقُ بِجَناحَيْه، ثُمَّ رَنَّقَ فَكَسَرَهُما مِنَ الْإِعْياءِ، ثُمَّ سَقَطَ، ثُمَّ دَرَجَ، ثُمَّ اضْطَرَبَ قَدْ كادَ يَقْتُلُه الظَّمَأُ، فَجَرى إِلَيْه مُحَمَّدٌ لِيَأْخُذَه فَيَبُلَّ ظَمَأَه، فَخَفَّ الطّائِرُ، فَهَوى إِلَيْه مُحَمَّدٌ لِيُدْرِكَه، فَما نَرى -وَاللّهِ- مُحَمَّدًا: قَدِ اخْتَطَفَه أَجَلُه، فَجَذَبَه، فَهَوى بِه إِلى إِسْطَبْلِ الدَّوابِّ، فَيَقَعُ بَيْنَها، فَيُثيرُها، فَتَهيجُ، وَإِذا زَيْنُ الْمَواكِبِ تَحْتَ سَنابِكِها تَضْرِبُه، فَما أَدْرَكْناه -وَاللّهِ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ- إِلّا جُثَّةً قَدْ ذَهَبَ رَأْسُها، وَما نَرى إِلّا الدَّمَ! رَحْمَةُ اللّهِ عَلَيْه! لَقَدْ...

[٣: مُصيبَةُ فَسادِ رِجْلِ الْبَطَلِ أَبي الشّابِّ النَّبيلِ]

قالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ: إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعونَ[١]! إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعونَ! فَكَيْفَ نَحْتالُ لِهذا الْأَمْرِ، يا ابْنَ أَبي رَبيعَةَ؟

قُلْتُ: فيمَ الْحيلَةُ -يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ- وَقَدْ ذَهَبَ الْقَدَرُ بِما يُحْتالُ لَه!

فَقالَ: أَها هُنا أَنْتَ، يا عُمَرُ! نِمْتَ وَسارَ الرَّكْبُ! هذا أَبوه أَبو عَبْدِ اللّهِ شَيْخٌ كَبيرٌ يوشِكُ أَنْ يُصابَ في نَفْسِه!

قُلْتُ: يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ، هذا مُصابُه في ابْنِه، فَما مُصابُه في نَفْسِه؟ إِلّا أَنْ يَكونَ الْخَبَرُ إِذا يَبْلُغُه، وَسَأَحْتالُ لَه.

[١] بين التَّرْجيعَتَيْنِ في النص واوٌ، ولا موضع لها بين طرفي التوكيد.

قالَ أَميرُ الْمُؤْمنينَ: مَهْلًا يا عُمَرُ، لَقَدْ عَلِمْتَ أَنْ أَبا عَبْدِ اللهِ كانَ قَدِ اشْتَكى رِجْلَه، وَما زالَ يَشْتَكي، فَبَيْنا نَحْنُ السّاعَةَ جُلوسٌ، إِذ دَخَلَ عَلَيْنا أَبو الحَكَمِ الطَّبيبُ النَّصْرانيُّ، فَاسْتَأْذَنْتُ أَبا عَبْدِ اللهِ أَنْ يَدَعَ أَبا الحَكَمِ حَتّى يَرى رِجْلَه، فَما راعَنا إِلّا أَبو الحَكَمِ يَقولُ إِنَّها الْأُكْلَةُ، وَإِنَّها قَدِ ارْتَفَعَتْ تُريدُ الرُّكْبَةَ، وَإِنَّها إِذا بَلَغَتِ الرُّكْبَةَ أَفْسَدَتْ عَلَيْهِ جَسَدَهُ كُلَّهُ فَقَتَلَتْهُ، فَما بُدَّ مِنْ أَنْ تُقْطَعَ رِجْلُهُ السّاعَةَ خَشْيَةَ أَنْ تَدِبَّ الْأُكْلَةُ إِلى حَيْثُ لا يَنْفَعُ الْقَطْعُ وَلا الْبَتْرُ.

فَوَجَمْتُ وَاللهِ لِهَذا الْبَلاءِ، وَقَدِ اخْتَلَفَ بِهِ الْقَدَرُ عَلى شَيْخٍ مِثْلِ أَبي عَبْدِ اللهِ في إِدْبارٍ مِنَ الْعُمُرِ. وَأَخَذَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ بِيَدي، وَقامَ، فَدَخَلْنا مَجْلِسَ الْخِلافَةِ، وَإِذا وُجوهُ النّاسِ قَدْ جَلَسوا إِلى عُرْوَةَ أَبي عَبْدِ اللهِ يُواسونَه وَيُصَبِّرونَه وَيُذَكِّرونَه بِقَدَرِ اللهِ خَيْرِه وَشَرِّه، وَإِذا فيهِمْ سُلَيْمانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَخو أَميرِ الْمُؤْمِنينَ، وَعُمَرُ ابْنُ عَبْدِ الْعَزيزِ، وَالْقاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَعَبْدُ اللهِ ابْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ، وَقَدْ حَضَرَه وَلَدُه هِشامٌ، فَأَرَمَّ قَدِ انْتُسِفَ لَوْنُه مِنَ الْحَزَنِ عَلى أَخيهِ وَالرَّحْمَةِ لِأَبيهِ. وَأَقْبَلَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ وَأَنا مَعَه عَلى عُرْوَةَ، فَتَفَرَّقَ النّاسُ إِلى مَجالِسِهِمْ، وَإِذا عُرْوَةُ كَأَنْ لَيْسَ بِهِ شَيْءٌ، يَرِفُّ وَجْهُه كَأَنَّه فِلْقَةُ قَمَرٍ وَهُوَ يَضْحَكُ، وَيَقولُ:

لَقَدْ كَرِهْتُ -يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ- أَنْ يَقْطَعوا مِنّي عُضْوًا يَحُطُّ عَنّي بَعْضَ ذُنوبي، فَقَدْ حُدِّثْنا أَنَّ أَبا بَكْرٍ قالَ:

يا رَسولَ اللهِ كَيْفَ الصَّلاحُ بَعْدَ هذِهِ الْآيَةِ: [لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سوءًا يُجْزَ بِهِ]، فَكُلُّ سوءٍ عَمِلْناهُ جُزينا بِهِ؟

فَقالَ رَسولُ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ!-: غَفَرَ اللهُ لَكَ، يا أَبا بَكْرٍ! أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصيبُكَ اللَّأْواءُ؟

قالَ: بَلى، يا رَسولَ اللهِ.

قالَ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ!-: فَهُوَ ما تُجْزَوْنَ بِهِ، فَإِنَّ ذاكَ بِذاكَ.

لَوَدِدْتُ -يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ- أَنَّها بَقِيَتْ بِدائِها، فَهِيَ كَفّارَةٌ تَحُتُّ الذَّنْبَ.

قالَ أَميرُ المُؤْمنينَ: غَفَرَ اللهُ لكَ، غفَرَ اللهُ لَكَ! وما أَعْجَبُ لِصَبْرِكَ؛ فَأُمُّكَ أَسْماءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدّيقِ ذاتُ النِّطاقَيْنِ، وأَبوكَ حَوارِيُّ رَسولِ اللهِ -صَلّى اللهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ!- وَابْنُ عَمَّتِه الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوّامِ، فَرَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وأَرْضاكَ، يا أَبا عَبْدِ اللهِ!

[٤: قَطْعُ رِجْلِ الْبَطَلِ]

[٤= ١: صِفَةُ الطَّبِيبِ]

فَما كُنّا نَقومُ حَتّى أَقْبَلَ أَبو الْحَكَمِ. وَهُوَ شَيْخٌ نَصْرانِيٌّ طَويلٌ فارِعٌ مَشْبوحُ الْعِظامِ، قَدْ تَخَدَّدَ لَحْمُه، أَحْمَرُ أَزْهَرُ أَصْلَعُ الرَّأْسِ إِلّا شَعَراتٍ بيضًا قَدْ بَقِيَتْ لَه، كَثُّ اللِّحْيَةِ طَويلُها، لَوْ ضَرَبَتْها الرِّيحُ لَطارَتْ بِه.

[٤= ٢: يَقينُ الْبَطَلِ]

وَدَخَلَ أَبو الْحَكَمِ وَراءَ لِحْيَتِه وَهِيَ تَسْعى بَيْنَ يَدَيْهِ، حَتّى وَقَفَ عَلى عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، فَقالَ:

لا بُدَّ مِمّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ -يا أَبا عَبْدِ اللهِ- وَإِنّي -وَاللهِ- لَأَرْحَمُكَ، وَأَخْشى أَنْ يَبْلُغَ مِنْكَ الْجَهْدُ، فَما أَرى لَكَ إِلّا أَنْ نَسْقيكَ الْخَمْرَ حَتّى لا تَجِدَ بِها أَلَمَ الْقَطْعِ.

قالَ عُرْوَةُ: أَبْعَدَكَ اللهُ مِنْ شَيْخٍ! وَبِئْسَ -وَاللهِ- ما رَأَيْتَ! إِنّا -وَاللهِ- ما نُحِبُّ أَنْ يَرانا اللهُ بِحَيْثُ نَسْتَعينُ بِحَرامِه عَلى ما نَرْجو مِنْ عافِيَتِه!

قالَ أَبو الْحَكَمِ: فَنَسْقيكَ الْمُرْقِدَ، يا أَبا عَبْدِ اللهِ؟

قالَ عُرْوَةُ: ما أُحِبُّ أَنْ أُسْلَبَ عُضْوًا مِنْ أَعْضائي وَأَنا لا أَجِدُ أَلَمَ ذلِكَ فَأَحْتَسِبَه عِنْدَ اللهِ.

قالَ أَبو الْحَكَمِ: وَقاكَ اللهُ، يا أَبا عَبْدِ اللهِ! لَقَدْ أَلَنْتَ مِنّا قُلوبًا كانَتْ قاسِيَةً.

ثُمَّ الْتَفَتَ أَبو الْحَكَمِ إِلى رِجالٍ سودٍ غِلاظٍ شِدادٍ قَدْ وَقَفوا ناحِيَةً، فَقالَ:

أَقْبِلوا!

فَأَقْبَلوا، فَأَخَذَتْهُمْ عَيْنُ عُرْوَةَ، فَأَنْكَرَهُمْ، فَقالَ:

ما هؤُلاءِ؟

فَقالَ أَبو الْحَكَمِ: يُمْسِكونَكَ، فَإِنَّ الْأَلَمَ رُبَّما عَزَبَ مَعَهُ الصَّبْرُ.

قالَ عُرْوَةُ: أَما تُقْلِعُ -أَيُّها الشَّيْخُ- عَنْ باطِلِكَ! انْصَرِفوا، يَرْحَمُكُمُ اللّهُ! وَإِنّي لَأَرْجو أَنْ أَكْفيكُمْ ذلِكَ مِنْ نَفْسي. وَلا -وَاللّهِ- ما يَسَعُني أَنَّ هذا الْحائِطَ وَقاني أَذاها، فَاحْتَمِلْ عَنّي أَلَمَها. أَقْبِلْ يا -أَبا الْحَكَمِ- وَخُذْ فيما جِئْتَ لَهُ. [رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِيًا يُنادي لِلْإيمانِ أَنْ آمِنوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنوبَنا وَكَفِّرْ عَنّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْميعادَ].

[٤ = ٣: مَجْلِسُ الْقَطْعِ]

فَرَأَيْتُ أَبا الْحَكَمِ وَقَدْ بَرَقَ وَجْهُهُ وَتَوَقَّدَ كَأَنَّما أَسْلَمَ بَعْدَ كُفْرٍ، ثُمَّ نَشَرَ دُرْجًا كانَ في يَدِهِ، وَأَخْرَجَ مِنْشارًا دَقيقًا طَويلًا صَقيلًا يَضْحَكُ فيهِ الشُّعاعُ، وَوَضَعَ الطَّسْتَ، وَمَدَّ أَبو عَبْدِ اللّهِ رِجْلَهُ عَلى الطَّسْتِ وَهُوَ يَقولُ:

بِاسْمِ اللّهِ، وَالْحَمْدُ لِلّهِ، وَسُبْحانَ اللّهِ، وَاللّهُ أَكْبَرُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلّا بِاللّهِ، [رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا]. تَقَدَّمْ -يا أَبا الْحَكَمِ- فَقَدِ احْتَسَبْتُها لِلّهِ.

فَما بَقِيَ -وَاللّهِ- أَحَدٌ في الْمَجْلِسِ إِلّا اسْتَدارَ، وَدَفَنَ وَجْهَهُ في كَفَّيْهِ، وَبَكى الْقَوْمُ؛ فَعَلا نَشيجُهُمْ، وَإِنَّ عُرْوَةَ لَساكِنٌ قارٌّ يَنْظُرُ إِلى ما يُرادُ بِهِ، وَكَأَنَّما مَلَكٌ قَدْ جاءَ إِلى الْأَرْضِ يَسْتَقْبِلُ آلامَها بِروحٍ مِنَ السَّماءِ.

[٤= ٤: عَمَلُ الْقَطْعِ]

وَوَضَعَ أَبو الْحَكَمِ مِنْشارَه في اللَّحْمِ إِلى الْعَظْمِ وَإِنَّ عُرْوَةَ لَصائِمٌ يَوْمَه ذاكَ،/١ فَمَا تَضَوَّرَ وَجْهُه،/٢ وَلا تَقَبَّضَ وَالْمِنْشارُ يَأْكُلُ في عَظْمِه الْحَيِّ،/٣ وَما يَزيدُ عَلى أَنْ يُهَلِّلَ وَيُكَبِّرَ وَيُسَبِّحَ اللّهَ، وَكَأَنَّ الدّارَ -وَاللّهِ-/٥ قَدْ أَضاءَ جَوُّها كَأَنَّه شُعاعٌ يَنْسَكِبُ مِنْ تَهْليلِه وَتَكْبيرِه./٤ وَدَخَلَ رِجالٌ يَحْمِلونَ مَغارِفَ مِنْ حَديدٍ يَفورُ مِنْها ريحُ الزَّيْتِ وَقَدْ غَلى فيها عَلى النّارِ،/٦ وَدَنَوْا،/٧ فَمَا هُوَ إِلّا أَنْ فَرَغَ أَبو الْحَكَمِ وَقَدْ فارَ الدَّمُ مِنْها وَتَفَجَّرَ مِثْلَ الْيَنْبوعِ، فَأَخَذَها أَبو الْحَكَمِ يَغْمِسُها في الزَّيْتِ، فَيَسْمَعُ نَشيشَها فيهِ حَتّى حَسَمَ الدَّمَ،/٨ وَإِذا عُرْوَةُ قَدْ غُشِيَ عَلَيْه،/٩ وَإِذا وَجْهُه قَدْ صَفِرَ مِنَ الدَّمِ، وَقَدْ نَجِدَ، فَنَضَحَ وَجْهُه بِالْعَرَقِ، وَلكِنَّه بَقِيَ مُشْرِقًا نَيِّرًا يَرِفُّ كَأَنَّه عَرارَةٌ تَحْتَ النَّدى./١٠

[٤= ٥: دَهْشَةُ الطَّبيبِ]

قالَ أَبو الْحَكَمِ:

ما رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ! إِنَّه رَجُلٌ، وَإِنَّها الْحَقيقَةُ الْمُؤْمِنَةُ، وَإِنَّ إيمانَه لَيَحوطُه، وَيُثَبِّتُه، وَيُسَكِّنُه، وَيَنْفُضُ عَنْهُ الْجَزَعَ!

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى عُرْوَةَ يَقولُ:

جَزاكَ اللّهُ خَيْرًا، يا أَبا عَبْدِ اللّهِ! لَأَنْتَ -وَاللّهِ- تِمْثالُ الصَّبْرِ في إِهابِ رَجُلٍ.

[٥: انْتِباهُ الْبَطَلِ إِلَى رِجْلِهِ الْمَقْطوعَةِ]

وَما لَبِثْنا، حَتّى إِذا أَفاقَ أَبو عَبْدِ اللّهِ جَلَسَ يَقولُ:

لا إِلهَ إِلّا اللّهُ، وَالْحَمْدُ لِلّهِ!

وَيَمسَحُ عَنْ وَجْهِهِ النَّوْمَ وَالْعَرَقَ بِكَفَّيْهِ، وَيَنْظُرُ، فَيَرى قَدَمَه في يَدِ رَجُلٍ يَهُمُّ أَنْ يَخْرُجَ بِها، فَيُناديه:

عَلى رِسْلِكَ، أَيُّها الرَّجُلُ! أَرِني ما تَحْمِلُ!

فَيَأْخُذُ قَدَمَه في يَدِه، فَيَرنو إِلَيْها وَقَدْ سَكَنَ وَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ، ثُمَّ يُقَلِّبُها في يَدَيْه، ثُمَّ يَقولُ لَها:

أَما وَالَّذي حَمَلَني عَلَيْكِ، لَقَدْ عَلِمْتُ أَنّي ما مَشَيْتُ بِكِ إِلى حَرامٍ وَلا مَعْصِيَةٍ. اللّهُمَّ، هذِه نِعمَةٌ أَنْعَمْتَ بِها عَلَيَّ، ثُمَّ سَلَبْتَنيها، أَحْتَسِبُها عِنْدَكَ راضِيًا مُطْمَئِنًّا، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفورُ الرَّحيمُ. خُذْها، أَيُّها الرَّجُلُ!

ثُمَّ أَضاءَ وَجْهُه بِالْإيمانِ وَالصَّبْرِ عَنْ مِثْلِ الدُّرَّةِ في شُعاعِ الشَّمْسِ. قالَ أَميرُ الْمُؤْمنينَ:

غَفَرَ اللّهُ لَكَ، يا أَبا عَبْدِ اللّهِ! وَإِنَّ في النّاسِ لَمَنْ هُوَ أَعْظَمُ بَلاءً مِنْكَ. يا عُمَرُ، نادِ الرَّجُلَ مِنْ أَخْوالي!

فَيُقْبِلُ عُمَرُ وَمَعَه رَجُلٌ ضَريرٌ مَحْطومُ الْوَجْهِ لا تُرى إِلّا دَمامَتُه، فَيَقولُ لَه أَميرُ الْمُؤْمنينَ:

حَدِّثْ أَبا عَبْدِ اللّهِ بِخَبَرِكَ، يا أَبا صَعْصَعَةَ.

[٦: تَخْفيفُ مُصيبَةِ الْبَطَلِ بِرِجْلِهِ]

فَيَلْتَفِتُ الرَّجُلُ إِلى عُرْوَةَ، وَيُقْبِلُ عَلَيْه، فَيَقولُ:

ابْنَ الزُّبَيْرِ، قَدْ -وَاللّهِ- لَقيتُ الْبَلاءَ، يا فَقيهَ الْمَدينَةِ وَابْنَ حَوارِيِّ رَسولِ اللّهِ، صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ! وَإِنّي -وَاللّهِ- مُحَدِّثُكَ عَنّي بِخَبَري، عَسى أَنْ يَرْفَعَ عَنْكَ: فَقَدْ بِتُّ لَيْلَةً في بَطْنِ وادٍ، وَلا أَعْلَمُ عَبْسِيًّا في الْأَرْضِ يَزيدُ مالُه عَلى مالي، فَطَرَقَنا سَيْلٌ جارِفٌ كَأَنَّه الطّوفانُ، يَتَقاذَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَوْجًا كَالْجِبالِ، فَذَهَبَ بِما كانَ لي مِنْ أَهْلٍ وَمالٍ وَوَلَدٍ، إِلّا صَبِيًّا مَوْلودًا وَبَعيرًا نِضْوًا ضَعيفًا. فَنَدَّ الْبَعيرُ يَوْمًا وَالصَّبِيُّ مَعي، فَوَضَعْتُه، وَاتَّبَعْتُ الْبَعيرَ أَطْلُبُه، فَما جاوَزْتُ ابْني قَليلًا

إِلّا ورأْس الذِّئْبِ في بطْنِه، قَدْ بعجها بِأَنيابه العُصْلِ، فاسْتلَّ أَحْشاءَه، وإِنَّ الصَّغير لَيَصْرُخُ، ويرْكُض بِرِجْلَيْهِ الْأَرْض؛ فكِدْتُ -واللّهِ- أَسوخُ في الْأَرْضِ مِمّا رأَيْتُ، ولكِنّي ذَكَرْتُ اللّهَ، واسْتعنْته، واحْتسبْتُ الصَّغيرَ، فتَرَكْته لِقَدرِ اللّهِ، واتَّبعْتُ الْبعيرَ، فهممْتُ آخُذُ بِذَنبِه وقَدْ أَدْرَكْته، فرمحني رمْحةً حطَم بِها وجْهي وأَذْهبَ عيْني، فأَصْبحْتُ لا ذا مالٍ ولا ذا ولَدٍ ولا ذا بصرٍ. وإِنّي أَحْمَدُ اللّهَ إِلَيْكَ، يا أَبا عبْدِ اللّهِ، فاصْبِرْ على ما أَصابكَ؛ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عزْمِ الْأُمورِ!

قالَ عُرْوةُ: لَقَدْ أَفْضلَ اللّهُ عليْكَ، يا أَبا صعْصعةَ، وإِنّي لَأَرْجو لكَ الْجنَّةَ.

قالَ عُمرُ بْنُ أَبي ربيعةَ: وأَلاحَ إِلَيَّ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ أَنْ أَقْبِلْ، فدنَوْتُ إِلَيْهِ، فأَسرَّ إِلَيَّ: إِنْ أَردتَّ الْحيلَةَ فقَدْ أَمْكَنَتْكَ، فاذْهبْ إِلى أَبي عبْدِ اللّهِ، فانْعَ إِلَيْهِ ولَده زيْنَ الْمواكِبِ.

قُلْتُ: هوَ -واللّهِ- الرَّأْيُ، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ.

[٧: إِطْلاعُ الْبَطَلِ عَلَى مُصيبَةِ مَوْتِ ابْنِهِ]

ثُمَّ مضيْتُ إِلى عُرْوةَ وقَدْ غلَبتْني عيْناي بِالْبُكاءِ، فلَمّا قاربْته قُلْتُ:

عزاءَكَ، يا أَبا عبْدِ اللّهِ!

فقالَ عُرْوةُ: فيمَ تُعزّيني، يا أَبا الْخطّابِ؟ إِنْ كُنْتَ تُعزّيني بِرِجْلي فقَدِ احْتسبْتُها لِلّهِ.

قُلْتُ: رضِيَ اللّهُ عنْكَ، بِأَبي أَنْتَ وأُمّي، بلْ أُعزّيكَ بِزيْنِ الْمواكِبِ.

فدُهِش، وتلَفَّت، ولَمْ يرَ إِلّا هِشامًا ولَده، فرأَيْتُ في وجْهِهِ الْمعْرِفةَ، ثُمَّ هدأَ، فقالَ:

ما لَه، يا أَبا الْخطّابِ؟

فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، وَتَحَلَّقَ النّاسُ حَوالَيْنا، وَتَكَنَّفونا، وَأَخَذْتُ أُحَدِّثُه بِشَأْنِه، وَوَاللّهِ ما يَزيدُ عَلى أَنْ يَقولَ: لا حَوْلَ وَلا قوَّةَ إِلّا بِاللّهِ، وَإِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ راجِعونَ! فَلَمّا فَرَغْتُ مِنْ خَبَري ما زادَ عَلى أَنْ قالَ:

وَكُنْتُ إِذَا الْأَيّامُ أَحْدَثْنَ هالِكًا أَقولُ شَوًى مَا لَمْ يُصِبْنَ حَميمي

ثُمَّ رَفَعَ وَجْهَه إِلى السَّماءِ وَقَدْ تَنَدَّتْ عَيْناهُ، ثُمَّ قالَ:

اللّهُمَّ، إِنَّه كانَ لي أَطْرافٌ أَرْبَعَةٌ، فَأَخَذْتَ واحِدًا، وَأَبْقَيْتَ لي ثَلاثَةً؛ فَلَكَ الْحَمْدُ فيما أَخَذْتَ وَأَبْقَيْتَ -اللّهُمَّ- أَخَذْتَ عُضْوًا، وَتَرَكْتَ أَعْضاءً، وَأَخَذْتَ ابْنًا، وَتَرَكْتَ أَبْناءً. وَايْمُ اللّهِ لَئِنْ كُنْتَ أَخَذْتَ لَقَدْ أَبْقَيْتَ، وَلَئِنِ ابْتَلَيْتَ لَطالَما عافَيْتَ؛ سُبْحانَكَ -رَبَّنا- إِلَيْكَ الْمَصيرُ! قوموا إِلى جِهازِ أَخيكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللّهُ، وَانْظُروا، لا تَكونُ عَلَيْهِ نائِحَةٌ وَلا مُعْوِلَةٌ؛ فَإِنَّ رَسولَ اللّهِ -صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ!- نَهى عَنِ النِّياحَةِ، وَمُروهُنَّ بِالصَّبْرِ لِلصَّدْمَةِ؛ فَإِنَّ رَسولَ اللّهِ -صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ!- أَتى عَلى امْرَأَةٍ تَبْكي صَبِيًّا لَها، فَقالَ لَها:

اتَّقي اللّهَ، وَاصْبِري!

فَقالَتْ: وَما تُبالي بِمُصيبَتي!

فَلَمّا ذَهَبَ قيلَ لَها:

إِنَّه رَسولُ اللّهِ، صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ!

فَأَخَذَها مِثْلُ الْمَوْتِ؛ فَأَتَتْ بابَه، فَلَمْ تَجِدْ عَلى بابِه بَوّابينَ، فَقالَتْ:

يا رَسولَ اللّهِ، لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقالَ -صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ، وَسَلَّمَ!-:

إِنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ أَوَّلِ الصَّدْمَةِ.

وَجَزاكَ اللّهُ خَيْرًا عَنّي وَعَنْ وَلَدي، يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ! [فَلِلّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمينَ وَلَه الْكِبْرِياءُ في السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزيزُ الْحَكيمِ]".

[٦] نص الرافعي إحدى وتسعون وثمانمئة وألف (١٨٩١) كلمة كتابية[١]، ونص شاكر ثمانون وثمانمئة وألف (١٨٨٠)، يكادان يتطابقان، ففَرْقُ ما بَيْنَ مِقْدارَيْهِما مِنَ الضَّآلة بحيث لا مُعْتَبَرَ له.

يبدو نصُّ الرافعي "مَوْعِظَةً" منسوبة إلى أبي علي الروذباري الذي لم يتردد له علينا ذكر حتى نعرفه، ويبدو نصُّ شاكر "رِسالَةً" منسوبة إلى أبي الخطاب عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغزِل الشهير الذي صار اسمه رمزا فنيا شعريا، وفي الأمرين القصد نفسه:

أراد الرافعي أن ينبه المتلقين على أن من رجال الثقافة العربية الإسلامية الكبار مَغاميرَ كالمشاهير، بل أكثر، ليفتشوا عنهم، ويعرضوا نفوسهم على أقوالهم وأفعالهم وإقراراتهم وعلومهم ومعارفهم وخبراتهم، وينصتوا لهم، حتى إذا ما كشفوا لهم من أسرارها ما استغلق عليهم وعلى مشاهير من قصدوهم، رجعوا إليهم، وتعلقوا بهم، وتعجبوا كيف يخرج ذلك كله عمن أهملوا معرفتهم، وأيقنوا أن قد جهلوا في غير مَجْهَلٍ، وشكوا في غير مَشَكٍّ، وزهدوا في غير مَزْهَدٍ!

كان الرافعي حريصا على معنى المدرسة الثقافية الواحدة؛ فقد أجلس التلميذ مجلس أستاذه، ثم رَوّاه عنه برًّا بذكراه، وكأنما يحذر المتلقين إذا أهملوا ذلك المعنى، أن ينقطع فيهم ما بين التلامذة والأساتذة (الحاضر والماضي)، حتى يقول بعضهم تيها وعقوقا وجهلا ونكرانا: نحن جيل لا أساتذة لنا!

---

[١] الكلمة الكتابية كل عنصر كتابي من عناصر تركيب الفقرة الكتابي، محوط من جانبيه بمسافتي بياض، يعده الحاسوب كلمة واحدة، مفردا لغويا كان في نفسه أو مركبا، ولا بأس بهذا المنطلق هنا ما دام مُعَمَّمًا، بل فائدة واضحة.

واعتنى الرافعي بمعنى العلم كثيرا، ولاسيما تلقيه كِفاحًا تَطْبيقًا، فجعل راويته التلميذ البار، يحار في علم مسألة عويصة، فيرحل في طلب علمها. وألح على ضرورة ملازمة الأستاذ العالم العامل، الذي يدل عمله بعلمه على صدق إيمانه به.

وأراد شاكر أن ينبه المتلقين على أن من صِفاتِ رجال ثقافتنا العربية الإسلامية الكبار، مَغاميرَ كالمشاهير، بل أرسخ، ليفتشوا عنها، ويعرضوا عليها تَصَوُّراتهم السابقة، وينصتوا لها، حتى إذا ما كشفت لهم من أسرار أصحابها ما استخفى عليهم، رجعوا إليهم، وتعلقوا بهم، وتعجبوا كيف جمعوا في نفوسهم ذلك كله الذي أهملوا معرفته، وأيقنوا أن قد جهلوا في غير مَجْهَلٍ، وشكوا في غير مَشَكٍّ، وزهدوا في غير مَزْهَدٍ!

يظل متلقو نص شاكر كلما اختلفت أحداثه وأشخاصه ومواقفه، يعودون إلى راويته المنفرد بعلمها، الشاعر المنقطع عندهم للغزل الصريح، ليحكموا عليها حكمهم عليه، فربما قال بعضهم: إذا كان لمثل هذا الشاعر المنقطع للغزل الصريح، هذا الإحساس العالي بالثقافة العربية الإسلامية، فكيف بغيره من العلماء المنقطعين للبحث، والزهاد المنقطعين للعبادة، وغيرهم!

كان شاكر حريصا على معنى انتماء الفنان الثقافي، فقد أَشْعَرَ الشاعرَ العربي المسلم الكبير، المنقطع للغزل الصريح، بمشاعر عالية من الإيمان والإحسان، وكأنما يحذر فناني المتلقين، أن يتلمسوا أول طريق الفن العربي الإسلامي، عند أول طريق الكفر والفسوق والعصيان[١]!

---

[١] أحبُّ أن أنبه على أن الكاتبين شاعران تركا الشعر للنثر. ومن علم شاكر أنه كان يعرف مكانته من الشعر، مثلما كان يعرف مكانة الشعر منه، فقد كشفت لنا "جمهرة مقالاته"، أنه كان يرى بمصر ثلاثة شعراء كبارا يستحقون التقدير، ذكر اسمي اثنين منهما "علي محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل"، وكتم ذكر الثالث، فعرفت أنه يريد نفسه. وربما كان شاكر أشعر الثلاثة عند بعض الأدباء! ولقد عاش شاكر حياته -ولاسيما في زمان

و معنى الانتماء الثقافي الذي حرص عليه شاكر، كمعنى المدرسة الثقافية الثقافية الواحدة الذي حرص عليه الرافعي، فإن كان معنى شاكر أشمل وأعمق وأعلى من معنى الرافعي، فإن معنى الرافعي من سبل بلوغ معنى شاكر.

شبابه الصعب- شاعرا عربيا مسلما متمسكا بثقافته، مَكْروبًا بما انتهجه بعض الشعراء من منهج الكفر والفسوق والعصيان، وكأنه منهج الشعر!

فُصُولُ الْأَحْدَاثِ

حُضُورُ الْأَعْلَامِ

[٧] أدار الرافعي أحداث نصه على ثمانية عشر علما من أعلام العقيدة والسلطان والزهد والعز والعلم والذل:

	أعلام الرافعي	معانيها	حالاتها الإعرابية			المجموع	
			الرفع	النصب	الجر		
١	اللّٰه	العقيدة	٧	٢	٧	١٦ (٢٥٪)	
٢	أحمد بن طولون	السلطان	٤	١	٦	١١	١٦ (٢٥٪)
	خمارويه بن أحمد		٢		١	٣	
	المأمون				١	١	
	نوح بن أسد		١			١	
٣	أحمد بن محمد	الزهد	٥			٥	١٥ (٢٤٪)
	بنان		١	١	٣	٥	
	بكار بن قتيبة				٢	٢	
	الجنيد				٢	٢	
	يوسف بن الحسن				١	١	
٤	مصر	العز			٥	٥	١٤ (٢٢٪)
	بغداد				٣	٣	
	الري والجبال				٢	٢	
	طرسوس				٢	٢	

	أنطاكية			١		١	
	بخارى				١	١	
٥	أحمد بن عبد الله	العلم		١		١ (٢٪)	
٦	طولون	الذل	١			١ (٢٪)	
المجموع			٢١	٦	٣٦	٦٣	

وأدار شاكر أحداث نصه على سبعة عشر علما من أعلام العقيدة والزهد والسلطان والحرية والغزل والفتوة والعدل والهمة والعز:

	أعلام شاكر	معانيها	حالاتها الإعرابية			المجموع	
			الرفع	النصب	الجر		
١	الله	العقيدة	٣٠	٤	٣٦	٧٠	٨١ (٤٢٪)
	رسول الله		٢	٥		٧	
	أبو بكر			٢		٢	
	أسماء بنت أبي بكر		١			١	
	الزبير بن العوام		١			١	
٢	عروة بن الزبير	الزهد	١٠	١٥	١٠	٣٥	٣٧ (١٩٪)
	أبو صعصعة			٢		٢	
٣	أمير المؤمنين	السلطان	١١	١١	٣	٢٥	٢٦ (١٣٪)
	سليمان بن عبد الملك		١			١	
٤	أبو الحكم	الحرية	١٢	٤		١٦ (٨٪)	
٥	عمر بن أبي ربيعة	الغزل	٤	١٠		١٤ (٧٪)	
٦	محمد بن عروة	الفتوة	٧	٢	١	١٠	١٤ (٧٪)
	هشام بن عروة		٢	١		٣	

	عبد اللّٰه بن عبد اللّٰه		١			١
٧	عمر بن عبد العزيز	العدل	٣			٣ (٢.٪)
٨	القاسم بن محمد	الهمة	١			١ (١.٪)
٩	المدينة	العز			١	١ (١.٪)
المجموع			**٨٦**	**٥٦**	**٥١**	**١٩٣**

وإذا كان تعريفُ بعض النحويين للعَلَمِ بأنه "ما وُضِعَ لِشَيْءٍ بِعَيْنِه غَيْرَ مُتَناوِلٍ غَيْرَه بِوَضْعٍ واحِدٍ"[١]، واضحَ العلاقة بمعنى "العَلامَة" المعجمي الوارد فيه- فمكانة العلم في نصي الرافعي وشاكر، أعلق بمعنييه هذين المعجميَّيْن[٢]:

١ "شيء يُنْصَب في الفَلَوات تهتدي به الضالَّة".

٢ "الراية التي تجتمع إليها الجُنْد".

فلم يرد الرافعي وشاكر حين أدارا على تلك الأعلام أحداث نصيهما، إلا أن ينصبا منارات على طرق المتلقين المسافرين، ورايات أمام جيوش المتلقين المجاهدين، ينتبهون بها، ويقيسون أنفسهم إليها، حتى يعيشوا هذه الحياة الواحدة، كِرامًا عِزازًا.

إننا إذا تأملنا بنيان الثقافة العربية الإسلامية -ومثلها سائر الثقافات- وجدنا العَقيدَة قلبه -فهي التي تحرك الإنسان العربي المسلم إلى علومه ومعارفه وخبراته وأفعاله وأقواله وإقراراته- ثم وجدنا السُّلْطان مظهر تلك العَقيدَة؛ فكل عقيدة لا سلطان لها على معتقديها وهم من الأوهام، حتى شاعت في الثقافة العربية الإسلامية عبارة "إِنَّ اللّٰهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطانِ ما لا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ"، ثم وجدنا الزُّهْد منهج الثقافة العربية الإسلامية في الجمع بين العَقيدَة والسُّلْطان، حتى شاعت عبارة السؤال والجواب "قيلَ: مَنِ الْمُلوكُ؟ قالَ: الزُّهّادُ".

---

[١] الرضي "٢": ٢/ ١٣١- ١٣٢.

[٢] ابن منظور: ع، ل، م.

ولقد اجتمع كاتبانا على ضرورة تثقيف المتلقين؛ فتحريا استعمال أعلام العقيدة والسلطان والزهد، تحرِّيًا واحدا؛ فكانت عند كل منهما ٧٥٪! وهو تطابق عجيب، لا يكون إلا عن مدرسة واحدة، فيها الأستاذ والتلميذ!

ولكن في خلال ذلك كانت أعلام العقيدة عند الرافعي ٢٥٪، وأعلام السلطان ٢٥٪، وأعلام الزهد ٢٤٪- على حين صارت أعلام العقيدة عند شاكر ٤٢٪، وأعلام السلطان ١٣٪، وأعلام الزهد ١٩٪؛ فعلى حين تطابقت عند الرافعي أولا منزلتَا أعلامِ العقيدة والسلطان، فَتَلَتْهما قريبا منزلةُ أعلام الزهد- ظهرت عند شاكر أولا منزلةُ أعلام العقيدة، ثم تلتها بعيدًا منزلةُ أعلام الزهد، فتلتها منزلةُ أعلام السلطان.

ربما كانت في ذلك دلالة على تطور رأي التلميذ قليلا بعد اختبار رأي الأستاذ في مدرسة الحياة التي أمامه؛ فلقد كانت مجموعة مقالات الرافعي "وحي القلم"، في العقد التالي لسقوط الخلافة، وفيه بقي الناس متعلقين برجوعها، حتى عقدوا الآمال على من لا يستحق، من مثل كمال أتاتورك؛ فربما كان ذلك وراء تطابق منزلتي العقيدة والسلطان عند الرافعي، حتى إذا ما جاء شاكر بعد ذلك، وانكشف خداع أتاتورك الذي لم ينج منه كثير من العلماء الكبار، حتى الشيخ محمد وكيل الأزهر، أبو شاكر- لم يستثِرْه ما استثار أستاذه، وارتاح إلى تصحيح العقيدة، وإلى منهج الجمع بين العقيدة والسلطان من قَبْلِ تولي السلطة.

وكذلك كانت أعلام العقيدة عند الرافعي، اسما واحدا، وأعلام السلطان أربعة أسماء، وأعلام الزهد خمسة أسماء- على حين صارت أعلام العقيدة عند شاكر خمسة أسماء، وأعلام السلطان اسمين اثنين، وأعلام الزهد اسمين اثنين.

ربما كان أحدُ الأسماء أكثرَ استعمالا أو أغلب، ولكن لا ريب في أن إكثار الأسماء من سياسة الدعوة والحرص على المعنى؛ فلذا كانت أعلام العقيدة عند شاكر أكثر من أعلام

غيرها؛ فربما احتاج الناس إلى قرآنٍ يمشي على الأرض فكان رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- وكان صحابته -رضي الله عنهم!- على حين لم ينتبه الرافعي لذلك المعنى السياسي الدعوي.

ولكن في خلال ذلك غلبت أفكار الزهد (العفة والجلد والصبر) على رسالتي النصين، بعد ما طار في أرجائهما نَفَسٌ كريم من أخلاق الزاهدين العالية، فكان الرافعي أحفى في الأعلام بذلك من شاكر؛ إذ أدار أحداث نصه على خمسة من أعلام الزهاد، ولم يدرها شاكر إلا على علمين اثنين فقط.

صَوْتَا الْكَاتِبَيْنِ

[٨] إذا كان نص الرافعي موعظة قصصية نسبها إلى أبي علي، ونص شاكر رسالة قصصية نسبها إلى أبي الخطاب، وقمتُ في مقام المطلع على موعظة الواعظ ورسالة المرسل كلتيهما- رأيتُ نص شاكر أكثر ملاءمة لطبيعة الرسالة من ملاءمة نص الرافعي لطبيعة الموعظة.

لقد كان شاكر كأنه وقع على كتاب "مذكرات عمر بن أبي ربيعة " حقا؛ فأسرع ينقل منه دون أن يضيف إليه إلا عبارة "قال عمر بن أبي ربيعة " التي صَدَّرَ بها الرسالة- على حين خلط الرافعي طبيعة نصه بطبيعة نص شاكر؛ فتكلم هو من دون أن يشبه عمر بن أبي ربيعة اشتراكًا ولا استماعًا، حتى استولى على الفصلين الأول والثالث كليهما وعلى نصف الفصل الرابع، فإذا أراد أن يُنْطِقَ الواعظ عاد بجملة "قال أبو علي"، وإذا استطال كلام الواعظ نفسه زاد فعل القول الماضي "قال" على مثل ما نجد في مجلسيّات الأصفهاني بـ"الأغاني" مثلا؛ فبـ"قال" هذا، كان القدماء ينبهون المتلقين على استمرار كلام الراوي.

لقد كتب الرافعي نصوص هذا الأسلوب التي منها نصنا، في عقده السادس الأخير (١٩٣٠- ١٩٣٧م)[١]، وكان في شيخوخته، وكتب شاكر نصوص الأسلوب نفسه التي منها نصنا، في عقده الرابع (١٩٣٩- ١٩٤٩)[٢]، وكان في شبابه؛ فكأنما أراد شاكر أن يكفكف من شأو نفسه، ويُخْرِجَها من البَيْنِ؛ فقد ظهر الرافعي بصوته العالي، مظهر مُعَلِّم المتلقين الذي يشرح لهم رأيه هو ومذهبه، وكأنه صوت الحقيقة المطلقة، قد حضرَتْ تَشهد!

ثم لا ريب في ملاءمة شاكر لتيار الواقعية الغالب على عصره آنذاك، بتحري إخراج القصة من الحياة كما تكون فيها، ثم على طريقة المذكرات التي لا ينقضي عجبي من قبول شاكر أن يستعملها في تتويج أعماله، وليست مما رأيناه يحبه، ولو عُرِضَتْ عليه في أواخر عمره لجعلها من رَقاعات المتأخرين!

تَفْصِيلُ الْفُصُولِ

[٩] أفرد الكاتبان عدد فصول النصين (سبعة فصول)، وكأنما حَرَصا على منهج التَّدْوير الجدير بشدة التأثير؛ فهما تَشَعَّبت أفكار رسالة النص، وتَفَصَّلَتْ بها الفصول، تَلاقَتْ في فصل يغلق دائرتها ويحكم رسالتها، يختلف المتلقون في تعيينه، ولكن يغلب أن يكون الأخير.

اتفق الكاتبان على أن يَتَأَتَّيا إلى المتلقين، بمفهوم الموت في الثقافة العربية الإسلامية؛ فمنذ أوصى سيدنا أبو بكر، سيدنا خالد بن الوليد -رضي الله عنهما!- حين بعثه إلى المرتدين، وصيته الجليلة الخالدة: "احْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ توهَبْ لَكَ الْحَيَاةُ"، فَعَمِلَ بها، حتى قال في موته مقالته الجليلة الخالدة: "لَقَدْ لَقيتُ كَذا وَكَذا زَحْفًا، وَما في جَسَدي مَوْضعُ شِبْرٍ إِلّا وَفيه ضَرْبَةٌ أَوْ طَعْنَةٌ أَوْ رَمْيَةٌ، وَها أَنَا ذا أَموتُ حَتْفَ أَنْفي كَما يَموتُ الْعيرُ؛ فَلا نامَتْ أَعْيُنُ

---

[١] يستفاد ذلك من مقدمة الأستاذ محمد سعيد العريان، لـ"وحي القلم".

[٢] يستفاد ذلك من تأريخ الدكتور عادل سليمان جمال، للمقالات التي جمعها.

الْجُبَناءِ"- جرى مجراه القائد العربي المسلم، حتى كان يفتح عقول الملوك قبل فتح بلادهم، بمقالته الجليلة الخالدة: "جِئْتُكُمْ بِجُنْدٍ يُحِبّونَ الْمَوْتَ كَما تُحِبّونَ أَنْتُمُ الْحَياةَ"!

لقد تَلَبَّسَتِ الكاتبين حالُ القائد العربي المسلم، نَفْسُها، فأقبلا يحيطان نصيهما بدائرة من الموت محكمة:

أما الرافعي فقد عَرَّضَ بَطَلَه للافتراس في الفصل الأخير، ولم يُفْتَرَسْ، ولكنه أفاض في مقام موته في الفصل الأول؛ فجعل الفصل الأول نتيجة الفصل الأخير؛ فلو لم يفهم البطل حقيقة حياته ما فهم الناس حقيقة موته، ولبقي متلقو النص ينتظرون أن تؤديهم القصة إلى موته! ولقد اتفقت بين الفصلين الأول والأخير، عبارتا الكاتب عن دهشة الناس من حياة البطل ومن وفاته جميعا.

إننا إذا تأملنا قوله من الفصل الأخير: "جَعَلَ كُلٌّ مِنّا يَظُنُّ ظَنًّا في تَفْكيرِه: فَمِنْ قائِلٍ (...) وَقائِلٍ (...) وَثالِث يَقولُ (...) وَزَعَمَ جَماعَةٌ (...)"، وقوله من الفصل الأول: "كانَ يَوْمُه (...): ما بَقِيَ أَحَدٌ إِلّا اقْتَنَعَ أَنَّه في شَهَواتِ الْحَياةِ وَأَباطيلِها كَالْأَعْمى في سوءِ تَمْييزِه بَيْنَ لَوْنِ التُّرابِ وَلَوْنِ الدَّقيقِ"- رأينا الشهود فيهما يفكرون في كل وجه إلا الحقيقة. وربما كان من ملاءمة كل عبارة لفصلها، أن تكون عبارة الفصل الأول، من تفصيل إجمال ما قبلها، وعبارة الفصل الأخير، من إجمال تفصيل ما بعدها؛ فقد كان فصل القصة الأخير مبتدأ حياة البطل الحقيقية، وفصلها الأول منتهاها!

وأما شاكر فقد بدأ نصه بمصيبة موت ابن البطل، ثم لم يطلعه عليها إلا في الفصل الأخير؛ فكان مثل الرافعي في جعل الأول للمتلقين خاتمة الأخير. ولقد اتفقت كذلك بين الفصلين الأول والأخير، عبارتا الكاتب عن أثر مصيبة الموت؛ فإذا تأملنا قوله عن عمر بن أبي ربيعة، في الفصل الأخير: "قَدْ غَلَبَتْني عَيْناي بِالْبُكاءِ"، وقوله عنه في الفصل الأول: "كَأَنَّما فارَقَتْني الرّوحُ"- رأيناه في الفصلين وهو من الشهود، مفعولا به، مغلوبا على أمره: تغلبه عيناه

أخيرا، وتغلبه روحه أولا! وربما كان من ملاءمة كل عبارة لفصلها، أن يكون فاعل عبارة الفصل الأول باطنيا "الروح"، وفاعل عبارة الفصل الأخير ظاهريا "عيناي"؛ فقد كانت الوطأة في الفصل الأول على عمر بن أبي ربيعة الراوية نفسه، وفي الفصل الأخير على غيره!

تَرْتِيبُ الْفُصُولِ

[١٠] ومن باب الحرص على منهج التدوير السابق، أن جعل الرافعي في فصل "تعريض البطل للافتراس"، أفدح الأحداث (الحَدَثان)، وأشدها تأثيرا في المتلقين، ثم جعله سابعا خاتمة الفصول وأكبرها، وصعد إليه بها قليلا قليلا:

الفصل الأول	١٢٤	كلمة كتابية	
الفصل الثاني	٧٦	كلمة كتابية	٣٠٦
الفصل الثالث	٢٣٠	كلمة كتابية	
الفصل الرابع	١٩٤	كلمة كتابية	٤٤٢
الفصل الخامس	٢٤٨	كلمة كتابية	
الفصل السادس	٤٩٨	كلمة كتابية	
الفصل السابع	٥٢١	كلمة كتابية	

فإن بدت أطوالها مضطربة، ففي كون ثالثها بمنزلة التعليق على ثانيها، ورابعها بمنزلة المقدمة لخامسها، ما يوضح تصاعدها.

وجعل شاكر في فصل "قطع رجل البطل"، أفدح الأحداث (الحَدَثان) كذلك، وأشدها تأثيرا في المتلقين، ثم جعله رابعا واسطة الفصول السبعة وأكبرها، من قبله ثلاثة ومن بعده ثلاثة، وصعد إليه بما قبله، ثم صعد مرة أخرى بما بعده إلى حدث آخر على جهة مضاعفة المصائب:

الفصل الأول	١٤٩	كلمة كتابية

الفصل الثاني	٣٠٤	كلمة كتابية
الفصل الثالث	٣٩٦	كلمة كتابية
الفصل الرابع	٤٠٨	كلمة كتابية
الفصل الخامس	١٤٨	كلمة كتابية
الفصل السادس	٢٠٩	كلمة كتابية
الفصل السابع	٢٦٦	كلمة كتابية

من دون أن يكون الفصل الأخير (فصل الحدث الزائد)، أطول من الفصل الرابع (فصل الحَدَثان)، على رغم ما فيه من مضاعفة المصائب؛ فإن مصيبة الموت أزلية أبدية. ثم إن المتلقين كانوا قد عرفوا مصيبة الموت في الفصل الرابع (فصل الحَدَثان)؛ فكان فيه المرادُ كلُّه، ولكن الكاتب تحرك على طبيعته؛ فصعد إلى مجتمع المصائب عند البطل، مثلما صعد له عند المتلقين.

نَسْجُ النَّصَّيْنِ

[١١] كان فصل الرافعي الأول نظرة خارجية كلية، ربط فيها المنتهى بالمبتدأ، لم يجد من شخوص قصته من ينظر هذه النظرة، فنظرها لهم، قائلا: "جَلَسَ أَبو عَلِيّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الرّوذَبارِيُّ الْبَغْداديُّ في مَجْلِسِ وَعْظِه بِمِصْرَ بَعْدَ وَفاةِ شَيْخِه أَبي الْحَسَنِ بُنانٍ الْحَمّالِ الزّاهِدِ الْواسِطِيّ شَيْخِ الدّيارِ الْمِصْرِيَّةِ". ثم كان فصل شاكر الأول كلمة داخلية مجملة، أنطق بها أحد شخوص قصته، قائلا: "... فَبادَرْتُ أَعْدو يَكادُ يَنْشَقُّ عَلَيَّ جِلْدِي مِنْ شِدَّةِ الْعَدْوِ".

جملة أول فصل الرافعي الأول، فعلية ماضوية هادئة مطمئنة، مُفَصَّل نَسَبُ فاعلها تَفْصيلَ كُتُبِ الأنساب، محتاج قارئها إلى تمهل كثير، نبه بها المتلقي على معنى المدرسة السابق ذكره. وجملة أول فصل شاكر الأول، محذوفة في جمل كثيرة سَتُشْرَحُ في الفصل الثاني، مَدْلولُ

عليها بفاء عطف الجملة الثانية الفعلية الماضوية الثائرة القلقة، ألقى بحذفها المتلقي في مجرى الأحداث.

وإن في هذا وذاك، لعلامة أولية مهمة، على مَنْهَجَيْ نَسْجِ النَّصَّيْنِ:

١ الاِسْتِبْطانُ الْمِثاليُّ الصّوفيُّ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الكامنة في العناصر القصصية، يتحرك حركة عمودية من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، دَوالَيْك.

٢ الاِسْتِبْطانُ الْواقِعيُّ الْفَنّيُّ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الظاهرة على العناصر القصصية، يتحرك حركة أفقية من وراء إلى أمام، ومن أمام إلى وراء، دَوالَيْك.

فعل حين يَسْلُكُ الرافعي المنهج الأول؛ فيطوِّل الجمل، ويثقِّلها، ويقلِّلها، ويشغلها بِتَحْليلِ الأشخاص والأحداث- يَسْلُكُ شاكر المنهج الأخير؛ فيقصِّر الجمل، ويخفِّفها، ويكثِّرها، ويشغلها بتحريك الأشخاص والأحداث.

تَوْصِيلُ الْفُصُولِ

[١٢] إذا تأملنا مفاصل الفصول، حيث يخيط كل من الكاتبين أطرافها، فيضم أول اللاحق إلى آخر السابق، وجدنا ما يأتي:

١ جملة أول فصل الرافعي الثاني معطوفة على جملة أول نصه، كَرَّر فيها اسم فاعلها بعد ما طال ما بين الموضعين من كلام الكاتب الطارئ بينهما: "جَلَسَ أَبو عَلِيٍّ (...) وَتَكَلَّمَ أَبو عَلِيٍّ (...)". وجملة أول فصل شاكر الثاني معطوفة على جملة آخر فصله الأول: "سَأَلَنِي (...) قُلْتُ (...)"؛ فعلى حين عبر شاكر عن ثورة عمر بترتيب جملة قوله على جملة سؤاله من دون أن يتيح للفاء بينهما مكانا -إذ ليس أقدر على تحريك الأحداث

من حذف العاطف، وليس أكثر حذفا بين الجمل من فاء العطف بين جمل الأقوال[1]- عبر الرافعي عن هدوء راويته أبي علي بعطف جملة تكلُّمه على جملة جُلوسه بالواو دون ترتيب وكأن تكلمه كصمته، تمهيدا للمعنى الذي سينطقه به في الفصل الرابع، قائلا: "عَلامَةُ الرَّجُلِ مِنْ هؤُلاءِ أَنْ يَعْمَلَ وُجودُه فيمَنْ حَوْلَه أَكْثَرَ مِمّا يَعْمَلُ هُوَ بِنَفْسِه".

٢ وجملة أول فصل الرافعي الثالث اسمية اعتراضية مقترنة بواو: "وَالْبَلَدُ الَّذي لَيْسَ فيهِ (...) هُوَ في الْجَهْلِ كَالْبَلَدِ الَّذي لَيْسَ فيهِ (...)". وجملة أول فصل شاكر الثالث فعلية ماضوية معطوفة على جملة أول فصله الثاني: "فَقُلْتُ (...) قالَ أَميرُ الْمُؤْمِنينَ (...)"؛ فعلى حين يستمر تعبير شاكر عن ثورة الأحداث، باستثقال فاء الترتيب والتعقيب نفسها- يعترض الرافعي بكلامه كلامَ راويته أبي علي، إِمْعانًا في غَلْغَلَتِه فيه، تَوَسُّعًا في التَّحْليل.

٣ وجملة أول فصل الرافعي الرابع فعلية ماضوية زائدة: "قالَ أَبو عَلِيٍّ (...)". وجملة أول فصل شاكر الرابع اسمية منسوخة بـ"كاد": "فَما كِدْنا نَقومُ (...)"؛ فعلى حين يستعمل الرافعي زيادة رواة المجالس القديمة التي يصلون بها كلام المتحدث بعضه ببعضه على رغم الاستطراد، وكأن كلامه من كلام أبي علي- يرتب شاكر أول الفصل على آخر سابقه ترتيبا سريعا، ولا يملك أن يحذف العاطف لعدم الدلالة عليه، كما كان يحذفه لدلالة كثرة الاستعمال عليه؛ فليست الجملتان المتعاطفتان هنا قوليَّتَيْن، كما كانتا هناك.

٤ وجملة أول فصل الرافعي الخامس هي الفعلية الماضوية الزائدة نفسها: "قالَ أَبو عَلِيٍّ (...)".وجملة أول فصل شاكر الخامس فعلية ماضوية: "وَما لَبِثْنا (...)"؛ فعلى حين يستعمل الرافعي زيادة رواة المجالس القديمة نفسها، ولكن في أصل موضعها؛ إذ يصل

---

[1] ابن مالك: ١١٧.

كلام أبي علي بعضه ببعضه على رغم استطراده- يرتب شاكر أول الفصل على آخر سابقه من دون الفاء ولا "ثم"؛ إذ هو مطمئن إلى فهم معنى الترتيب من منطق الأحداث، ثم هو لم يشأ أن يحدد زمان ما بين غَشْيَةِ البطل وإفاقته، وإن أوحى بالتركيب إلى أن حوار ما بين أبي الحكم وأمير المؤمنين، قد أَمَرَّ الوقتَ من دون أن يَتَبَيَّنَ له تَحْديدًا.

٥ وجملة أول فصل الرافعي السادس اسمية منسوخة بـ"كان ": "كانَ أَحْمَدُ بْنُ طولونَ مِنْ جارِيَةٍ تُرْكِيَّةٍ"، ابتدائية في أول تَفْصيل مفعول جملة آخر الفصل الخامس، الْمُجْمَلِ: "قالَ: تَعالَ، أُحَدِّثْكَ الْحَديثَ: كانَ أَحْمَدُ (...)". وجملة أول فصل شاكر السادس فعلية مضارعية: " فَيَلْتَفِتُ الرَّجُلُ إِلى عُرْوَةَ"، معطوفة على جملة آخر الفصل الخامس: "فيقول له (...) فيلتفت (...)"؛ فعلى حين يُفَصِّلُ الرافعي المفعول به، ويطوِّل الجملة تطويلا تحليليا، يؤرخ به تطور خصيم البطل النفسي- يقصِّر شاكر الجملة، ويغير الأشخاص، ويحرك الأحداث.

٦ وجملة أول فصل الرافعي السابع، فعلية ماضوية زائدة بين أجزاء اعتراض كبير، بعضه في آخر الفصل السادس، وبعضه في أول الفصل السابع: "فَأَمَرَ (...) - (...) قالَ (...) - فَجِيءَ (...)". وجملة أول فصل شاكر السابع فعلية ماضوية معطوفة بالفاء على جملة آخر فصله السادس الفعلية الماضوية: "قُلْتُ: (...) ثُمَّ مَضَيْتُ (...)"؛ فعلى حين يغلغل الرافعي الفصل الأخير في الذي قبله، يحركه شاكر حركة جديدة واضحة، ويحدد ترتيبه.

لا ريب في أن غَلْغَلَةَ الفصل في الفصل تَوْسيعًا لِإطارِ السابق لِيَشْمَلَ اللاحق- أَثَرٌ واضح من آثار انتهاج الرافعي منهج الاستبطان المثالي الصوفي. ثم لا ريب في أن تَحْديدَ حدود

الفصول وإسراع الأحداث، أثر واضح كذلك من آثار انتهاج شاكر منهج الاستبطان الواقعي الفني.

رَبْطُ الْأَقْوالِ

[١٣] إذا تَتَبَّعْنا عند الرافعي أواخر جمل ما قبل أفعال القول وأوائل جمل ما بعدها، وجدنا هذه العبارات:

١ "جاءَه كِتابُ (...) قالَ: فَجَعَلْتُ (...)".

التي عَطَفَ فيها جُملةَ "جَعَلْتُ (...)" بالفاء، على جملة "جاءَه (...)"، وكلتاهما من كلام أبي علي الراوي الكبير.

٢ "هُوَ الَّذي كانَ (...) قالَ أَبو عَلِيٍّ: وَقَدِمْتُ (...)".

التي عطف فيها جملة "قَدِمْتُ (...)" بالواو، على جملة "هُوَ الَّذي كانَ (...)"، وكلتاهما من كلام أبي علي الراوي الكبير.

٣ "لَمّا لَقيتُه لَقيتُ رَجُلًا (...) قالَ أَبو عَلِيٍّ: وَهَمَمْتُ (...)".

التي عطف فيها جملة "هَمَمْتُ (...) " بالواو، على جملة "لَمّا لَقيتُه لَقيتُ رَجُلًا (...)"، وكلتاهما من كلام أبي علي الراوي الكبير.

٤ "قالَ: لَوْ (...) قالَ أَبو عَلِيٍّ: وَالْمُعْجِزاتُ (...)".

التي استأنف فيها جملة "الْمُعْجِزاتُ (...)" بالواو، عن جملة "قالَ: لَوْ (...)"، وأولاهما من كلام البطل، والأخيرة من كلام أبي علي الراوي الكبير.

٥ "لَمّا بَلَغَ هؤُلاءِ كانَتْ نِيَّتُه (...) قالَ: وَكانَ عَقْلُه (...)".

التي عطف فيها جملة "كانَ عَقْلُه (...)" بالواو، على جملة "(...) كانَتْ نِيَّتُه (...)"، وكلتاهما من كلام الدينوري الراوي الصغير.

٦ "أَمَرَ (...) -قالَ: وَكُنْتُ (...)- فَجِيءَ (...)".

التي عطف فيها جملة "جيءَ (...) " بالفاء، على جملة " أَمَرَ (...)"، واعترض بينهما بجملة "كنت (...)" المقترنة بالواو، وكلتاهما من كلام الدينوري الراوي الصغير.

٧ "لَوْ أَنَّ خَطْرَةً (...) قالَ: وَانصَرَفْنا (...)".

التي عطف فيها جملة " انْصَرَفْنا (...) " بالواو، على جملة لو أن خطرة (...)"، وكلتاهما من كلام الدينوري الراوي الصغير.

- وإذا تأملنا أشباهها عند شاكر كذلك، وجدنا هذه العبارات:

١ "قالَ عُمَرُ بْنُ أَبي رَبيعَةَ: (...) فَبادَرْتُ (...)".

التي عَطَفَ فيها جُمْلَةَ "بادَرْتُ (...)"، على جملة محذوفة، وكلتاهما من كلام عمر نفسه الراوي الوحيد.

٢ "قالَ: بَلى (...) قالَ (...): فَهُوَ (...)".

التي استأنف فيها جملة "هُوَ (...)" بالفاء، عن جملة "بَلَى" الباقيةِ منها أداةُ الجواب، وأولاهما من كلام سيدنا أبي بكر -رضي الله عنه!- والأخيرة من كلام رسول الله، صلى الله عليه، وسلم!

٣ "قالَ عُرْوَةُ: (...) إِنّا (...) قالَ أَبو الْحَكَمِ: فَنَسْقيكَ (...)".

التي اسْتَأْنَفَ فيها جملة "نَسْقيكَ (...) " بالفاء، عن جملة "إِنّا"، ومصدراهما واضحان.

٤ "قالَ عُرْوَةُ: (...) قالَ عُمَرُ بْنُ أَبي رَبيعَةَ: وَأَلاحَ (...)".

التي عطف فيها جملة "أَلاحَ (...)" بالواو، على جملة "قالَ عُرْوَةُ: (...)، وكلتاهما من كلام عمر نفسه الراوي الوحيد.

٥ "قالَ لَها: اتَّقي اللّهَ وَاصْبِري! فَقالَتْ: وَما تُبالي (...)".

التي استأنف فيها جملة "ما تُبالي (...)" بالواو، عن جملة "اصْبِري"، وأولاهما من كلام رسول الله -صلى الله عليه، وسلم!- والأخيرة من كلام المرأة الباكية.

إن الاستئناف عن الجملة مثل العطف عليها، وجه من ربط أخيرتهما بالأولى في نسيج النص الواحد، مهما يكن اختلاف المجاورة التي في الاستئناف والمداخلة التي في العطف[1].

ثم إن من طبيعة الحوار الحي، أن تتوالى الجمل فيه بما يلائمها من وجوه الربط وأدواته المختلفة (العطف وأدواته، والاستئناف وأدواته،...)، وسواء أَتَوالَتْ تلك الجمل من طرف واحد من أطراف الحوار، أم من أكثر من طرف؛ فمن ثَمَّ كان حِرْصُ الكاتِبَيْنِ على تلك الأدوات، وَجْهًا مِنْ نَفْخِ روح الحياة الطبيعية في نصيهما، على حين يتناساها كثير من كتّاب اللغة العربية إذا أقبلوا يسجلون ذلك الحوار الحي، وكأن كل طرف من أطرافه يُكَلِّمُ نفسه!

ثم إن لمنهج كلٍّ من الكاتبين في نسج نصه، لأثرا؛ فعلى حين وقع العطف على ما تَقَدَّمَ، والاستئناف عنه، في كلام طرف رافعيٍّ واحد في أكثر العبارات السابقة، لاشتغال الرافعي بتحليل الأشخاص والأحداث كما سبق- وقع العطف على ما تَقَدَّمَ، والاستئناف عنه في كلام أكثر من طرف شاكريٍّ في أكثر العبارات السابقة، لاشتغال شاكر بتحريك الأشخاص والأحداث، كما سبق.

عَطْفُ الْمُتَشَابِهَاتِ

[١٤] إذا تَتَبَّعْنا عند الرافعي تراكيب العطف، وجدنا هذه العبارات:

١ "خالَطوهُ، وَصَحِبوهُ".

٢ "قارَبَها، أَوْ لامَسَها".

---

[1] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٢٤٣؛ فقد شرح القانون المتصرف في وجوه عطف الجمل واستئنافها.

٣ "اتَّصَلَ بِها، أَوْ صاحَبَها".

٤ "قَتَلَهُمْ صَبْرًا، أَوْ ماتوا في سِجْنِه".

التي عطف فيها جملًا فعلية ماضوية بالواو و"أو"، على مثلها.

٥ "يَخْرِقُ الْعادَةَ، وَيَخْرُجُ عَنِ النَّسَقِ".

٦ "يَجورُ، وَيَعْسِفُ".

٧ "يُزَمْجِرُ، وَيَزْأَرُ".

٨ "لا يَنْظُرُ إِلى الْأَسَدِ، وَلا يَحْفِلُ بِه".

التي عطف فيها جملًا فعلية مضارعية بالواو، على مثلها.

٩ "بِعِبادَتِه، وَزُهْدِه".

١٠ "في شَهَواتِ الْحَياةِ، وَأَباطيلِها".

١١ "مَصالِحِه، وَمَنافِعِه".

١٢ "صِحَّةُ وُجودِها، وَكَمالُ مَنْفَعَتِها".

التي عطف فيها مركبات إضافية بالواو، على مثلها.

١٣ "الزُّهّادِ، وَأَهْلِ الْوَرَعِ".

١٤ "غَيْضَةٍ، أَوْ بَطْنِ وادٍ".

اللتين عطف فيهما مركبين إضافيين بالواو و" أو"، على مفردين.

١٥ "كَالشَّمْعَةِ وَالشَّمْعَةِ".

١٦ "زُهْدًا، وتَوَرُّعًا".

١٧ "الْفَزَعِ، وَالرُّعْبِ، وَالْإِشْفاقِ".

١٨ "أَقْرَبَ، وَأَيْسَرَ".

١٩ "الْهَوامِّ، وَالذَّرِّ".

التي عطف فيها المفردات بالواو، على أمثالها، حتى عطف المفرد على نفسه في ظاهر عبارته الأولى!

- وإذا تَتَبَّعْناها كذلك عند شاكر، وجدنا هذه العبارات:

١ "أَكَلَتْ مِنّي السِّنُّ وتعَرَقَّتْني أَنْيابُ الْكِبَرِ".

٢ "بَرَقَ وَجْهُه وتَوَقَّدَ".

٣ "ما تَضَوَّرَ وَجْهُه ولا تَقَبَّضَ".

٤ "فارَ الدَّمُ مِنْها وتَفَجَّرَ".

٥ "تَحَلَّقَ النّاسُ حَوالَيْنا وتَكَنَّفونا".

٦ "قَدِ اخْتَطَفَه أَجَلُه فَجَذَبَه فَهَوى بِه".

٧ "وَقاني أَذاها فَاحْتَمَلَ عَنّي أَلَمَها".

٨ "قَدْ نَجِدَ فَنَضَحَ وَجْهُه بِالْعَرَقِ".

التي عطف فيها جملًا فعلية ماضوية بالواو والفاء، على مثلها.

٩ "نَعْبَثُ وَنَلْهو".

١٠ "يُواسونَه وَيُصَبِّرونَه".

١١ "يُثَبِّتُه ويُسَكِّنُه وَيَنْفُضُ عَنْه الْجَزَعَ".

التي عطف فيها جملا فعلية مضارعية بالواو، على مثلها.

١٢ "لا يَنْفَعُ الْقَطْعُ وَلا الْبَتْرُ".

١٣ "لا تَكونُ عَلَيْهِ نائِحَةٌ وَلا مُعْوِلَةٌ".

اللتين عطف فيهما مفردين بالواو، على مثليهما.

لن يستغني الصراع القصصي عن عطف الأحداث والأعيان والصفات، كل منها بعضه على بعض، على وجوه العطف المختلفة. ولقد جرى شاكر مجرى الرافعي، في عطف

متشابهات الأحداث والأعيان والصفات، التي لا يَعْلَمُ فَرْقَ ما بيْنَها كَثيرٌ مِنَ الْمُتَلَقّينَ، تَنْبيهًا على الفروق اللغوية التفكيرية، تَحْقيقًا للثقافة العربية الإسلامية في نفسها، ثم تَمْييزًا لها من غيرها من الثقافات.

ويزيد عطف المتشابهات سطوعا، مُوازَنَتُها أي أن تتفق أوزان المتشابهات -إن كانت مفردات- أو عناصرها -إن كانت مركبات- وسواء أكانت مسجوعة أم لا؛ فمن ثم كانت الموازنة ظاهرة بديعية أخص من السجع[1]، مثلما في عبارات الرافعي السابقات (٢، ١١، ١٨)، و في مثل عبارتي شاكر السابقتين (١١، ١٢)[2]- فإن المتشابهات إذا توازنت أغرت المتلقي بالإسراع إلى الحكم عليها بالاتحاد (أن المتعاطفين شيء واحد)، حتى إذا ما تأملها فاجأته باختلافها؛ فَكانَتْ أشد تأثيرًا فيه.

ولقد احتفى بذلك الرافعي أكثر من شاكر، حتى استعمله في خمسة أنواع من التراكيب، وَضَّحْتُها بما سبق من تَمْييز وتَعْليق، ولم يستعمله شاكر إلا في ثلاثة فقط. ثم على حين اجتمع الرافعي وشاكر على استعمال الواو، افترقا في "أو" والفاء؛ فاستعمل الرافعي "أو"، واستعمل شاكر الفاء، وجرى كل منهما على ما يلائم منهجه؛ فاستفاد الرافعي مما في "أو" من إبهام في تحليل تلك المتشابهات، واستفاد شاكر مما في الفاء من ترتيب وتعقيب[3]، في تحريك تلك المتشابهات على حالها، فأما إبهامها فيزيدها تَشابُهًا، وأما إسراع تحريكها فلا يتيح للمتلقي أن يتأملها!

---

[1] العلوي: ٣/ ٣٨، وإن لم يستوعب أنواع الموازنة التي أجملتها كلها، ونبه على ذلك.

[2] قد أحصيت من الموازنة للرافعي تسعا وعشرين عبارة، ولشاكر عشرين، من مثل ما نبهت عليه، وهي لا تنحصر بين المعطوف والمعطوف عليه، بل تكون بين المنعوت والنعت، والمشبه والمشبه به على وجوه مختلفة من التركيب، وبين الجمل المتجاورة غير المتعاطفة.

[3] ابن مالك: ٣/ ٣٥١، ٣٥٧.

من ذلك مثلا عبارة الرافعي الرابعة؛ فلقد أراد أن يحلل طبيعة البطش في أحمد بن طولون؛ فاستفاد من الفرق اللطيف بين قتله خصومه صبرا (قَصْدِه سَجْنَهم حتى يهلكوا)، وموت خصومه في سجنه (إِهْمالِه لهم فيه حتى يهلكوا)، ومن عطف جملتيهما بـ"أو" الإبهامية-

وعبارة شاكر السادسة؛ فلقد أراد أن يصور حرص الموت على الشاب النبيل؛ فاستفاد من الفرق اللطيف بين اختطاف الشيء (أخذه سريعا)، وجذبه (مده)، والهُوِيِّ به (إسقاطه)، ومن عطف جملها بالفاء الترتيبية التعقيبية.

وعبارة الرافعي الخامسة عشرة، دليل زيادة حفاوته بعطف المتشابهات؛ فقد حذف من كلا المعطوفين صفتيهما: (الكبيرة)، و(الصغيرة) المفهومتين مما بعد[1]، وترك المتلقي يعجب لارتكابه هذا الحذف الذي أفضى إلى عطف كلمة على مثلها أي إلى إِفْرادِ ما يَنْبَغي تَثْنِيَتُه، حَفاوَةً منه بعطف المتشابهات كما سبق، وإمعانا في الموازنة.

تَرْكِيبُ الْمُفَاجَأَةِ

[١٥] إذا تَتَبَّعْنا عند الرافعي "إذا" الفجائية، عثرنا على هاتين العبارتين:

١ "فَإِذا هِيَ الْوَثيقَةُ الضّائِعَةُ".

٢ "فَإِذا هُوَ ساهِمٌ مُفَكِّرٌ".

اللتين اقترنت فيهما "إذا" بالفاء، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها ضمير غيبة.

- وإذا تَتَبَّعْناها كذلك عند شاكر، وجدنا هذه العبارات:

١ "وإِذا هُوَ ساكِنٌ ساجٍ".

التي اقترنت فيها "إذا" بالواو، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها ضمير غيبة.

---

[1] ابن جني: ٢/ ٣٧٠- ٣٧١، وهو عنده من شجاعة العربية.

٢ "وإِذا طائِرٌ يَحومُ".

التي اقترنت فيها "إذا" بالواو، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها نكرة.

٣ "وإِذا زَيْنُ الْمَواكِبِ تَحْتَ سَنابِكِها".

٤ "وإِذا فيهِمْ سُلَيْمانُ".

٥ "وإِذا عُرْوَةُ كَأَنْ لَيْسَ بِهِ شَيْءٌ".

٦ "وإِذا عُرْوَةُ قَدْ غُشِيَ عَلَيْهِ".

التي اقترنت فيها "إذا" بالواو، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها علم.

٧ "وإِذا وُجوهُ النّاسِ قَدْ جَلَسوا إِلى عُرْوَةَ".

٨ "وإِذا وَجْهُهُ قَدْ صَفِرَ مِنَ الدَّمِ".

اللتين اقترنت فيهما "إذا" بالواو، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها مضاف إلى معرفة.

إن المفاجأة أسلوب مهم من أساليب تنمية صراع الأشخاص الذي لا تستغني عنه قصة، غير بعيد من أسلوب التعقيب السابق ذكره؛ ومن ثم مال إليه شاكر المولع بتحريك الأشخاص والأحداث، أكثر من الرافعي المولع بتحليلهما، حتى استعمله في أربعة أنواع من التراكيب وَضَّحْتُها بما سبق من تَمْييز وتَعْليق، ولم يستعمله الرافعي إلا في نوع واحد فقط.

وأعجب ما في العبارات السابقة، اقتران "إذا" بالفاء في عبارتي الرافعي كلتيهما على قلتهما، واقترانها بالواو في عبارات شاكر الثماني كلها! ولكن إذا تأملنا سياق كل عبارة، وجدنا الواو هي المستعملة فيما قبل عبارتي الرافعي كلتيهما، والفاء هي المستعملة فيما قبل عبارات شاكر الأربع (٣، ٥، ٦، ٧)، وقبل الجملتين المقترنتين بـ"إذا" الفجائية نفسها، اللتين قبل عبارتيه (٤، ٨)؛ فمن ثم يكون كل من الكاتبين قد جَهَّزَ التركيب من قبل مجيء "إذا"؛ حتى تطمئن في مكانها، إحساسًا خاصًّا واحدًا، اجتمع عليه الأستاذ والتلميذ.

الْإِجْمَالُ ثُمَّ التَّفْصِيلُ

[١٦] إذا تتبعنا عند الرافعي، أطراف الجمل المتوالية، وجدنا هذه العبارات:

١ "كانَ يَوْمُه كَالْبُرْهانِ (...): ما بَقِيَ أَحَدٌ إِلّا (...)".

٢ "جَعَلْتُ أُفَكِّرُ في طَعْمِ النَّفْسِ: ما هُوَ".

٣ "لَه مَعْنى أُبُوَّةِ الْأَبِ في أَبْنائِه: لا يَراهُ مَنْ يَراه مِنْهُمْ (...)".

٤ "تَعالَ أُحَدِّثْكَ الْحَديثَ: كانَ أَحْمَدُ (...)".

٥ "كُنْتُ أُفَكِّرُ في لُعابِ الْأَسَدِ: أَهُوَ طاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ".

التي قدم فيها جُمَلًا إِجْمالِيَّةً، ثم أَبْدَلَ منها جُمَلًا تَفْصيلِيَّةً.

٦ "كانَ عَقْلُه مِنْ أَثَرِ طَبيعَتِهِ (...): فَلَه يَدٌ مَعَ الْمَلائِكَةِ (...)".

٧ "لَمْ يَرُعْنا إِلّا ذُهولُ الْأَسَدِ عَنْ وَحْشِيَّتِه: فَأَقْعى عَلى ذَنَبِه (...)".

٨ "يَكْشِفُ لَه عَنْ قُرْبِ الْحَقِّ (...): فَهُوَ لَيْسَ بَيْنَ يَدَيِ الْأَسَدِ (...)".

٩ "كَما خَرَجَ الشَّيْخُ (...) خَرَجَ الْوَحْشُ (...): فَلَيْسَ في الرَّجُلِ (...)".

١٠"جَعَلَ كُلٌّ مِنّا يَظُنُّ (...): فَمِنْ قائِلٍ (...)".

التي قدم فيها جملا إجمالية، ثم عَطَفَ عليها جملا تفصيلية.

- وإذا تَتَبَّعْناها كذلك عند شاكر، وجدنا هذه العبارات:

١ "ما نَرى -وَاللّهِ- مُحَمَّدًا: قَدِ اخْتَطَفَه أَجَلُه (...)".

التي قدم فيها جُمْلَةً إِجْمالِيَّةً، ثم أَبْدَلَ منها جُمْلَةً تَفْصيلِيَّةً.

٢ "إِنّي -وَاللّهِ- مُحَدِّثُكَ عَنّي بِخَبَري (..): فَقَدْ بِتُّ (...)".

التي قدم فيها جُمْلَةً إِجْمالِيَّةً، ثم عَطَفَ عليها جُمْلَةً تَفْصيلِيَّةً.

في الإجمال إغماض، ثم في التفصيل إيضاح، ولكن لا سبيل إلى اكتشاف الإجمال وإغماضه إلا بعد الفراغ من التفصيل وإيضاحه؛ فإن المتلقي لا يستطيع أن يميز ذلك حتى

يأتيه هذا، وعندئذ يحتاج إلى أن يعود مرة أخرى إلى الإجمال الذي لم ينتبه إلى أنه إجمال، ليحسن فهمه وربطه بتفصيله بعد أن انتبه إلى أنه تفصيل[1]!

وإن عطف التفصيل بالفاء على الإجمال[2]، لأشد ثقلا على المتلقي من إبداله منه؛ فإنه يَظُنُّ في الجملة المقترنة بالفاء كُلَّ ظَنٍّ، حتى يَتَبَيَّنَ أنها تفصيلُ ذلك الإجمال، فأما الإبدال فأقرب وجوه التفصيل؛ فمن ثم يظهر وجه ميل الرافعي إلى الإجمال والتفصيل المناسبين لمنهجه أكثر من شاكر، وإن انقسمت العبارتان الواقعتان لشاكر منه، على وجهي الإبدال والعطف، كما انقسمت عبارات أستاذه.

---

[1] العلوي: ٢/ ٤٠٧؛ فقد ذكر "الإجمال والتفصيل" و"اللف والنشر"، ذكرا واحدا، من بعد أن جعل "اللف والنشر"، هو الصنف السادس من صنوف "الفصاحة اللفظية"، التي جعلها النمط الأول من البديع- ثم جعل "الإجمال والتفصيل= اللف والنشر"، "يُطْلَقُ اتِّكالًا عَلَى قَرِيحَةِ السّامِعِ في رَدِّ كُلِّ شَيْءٍ إلى ما يَلِيقُ بِهِ". وإنما "اللف والنشر" على ما شرح العلوي ومَثَّلَ، وَجْهٌ من "الإجمال والتفصيل".

[2] ابن مالك: ٣/ ٣٥١؛ فقد نبه على اختصاص الفاء بعطف المفصل على المجمل.

فَصْلُ الْحَدَثانِ

جَوامِعُ الذِّرْوَتيْنِ

[١٧] هذا فصل الحدث الذي تتأزم به سائر الأحداث، بل الذي من أجله كان كثير منها؛ فهو الحدث الأكبر الحقّ (الحَدَثان)، الذي لم يستعظم معه أي من الكاتبين المحقِّقَيْن، أن يَخْتَرِعا فَيَزيدا ما يُمَهِّدُ له، ويُجَلِّيه. مثل ذلك مثل فصل المُداواة بالكَيِّ إِذا تَخَيَّلْنا لَها فَصْلًا مَعيشيًّا، تكون فيه أحداث من التَّمْهيد والتَّجْلية، كاستفحال المرض، وظهور ضرورة الكي، والسفر إلى الطبيب، ومثول المريض أمامه، وتجهيز المياسم، وإحمائها، وحضور المساعدين، واضطراب الأصحاب في أثناء الكي، ودهان الموضع بعقب الكي، وصعوبة حركة المريض بعقبه- ولكن أهم ما فيه من أحداث هو الكي نفسه، الذي يجتمع فيه على المريض، المَرَضُ والطَّبيبُ والمَياسِمُ والمُساعِدونَ!

في هذا الفصل يُعَرِّضُ الرافعيُّ البَطَلَ للافتراس فلا يُفْتَرَسُ، ويُعَرِّضُه شاكِرٌ لقطع رجله فتُقْطَعُ؛ فلم يكن تعريض البطل لقطع رجله من دون أن تقطع، بكفء لتعريضه للافتراس -وإن لم يفترس- فقد تَمَثَّلَ بالأسد المفترِس مِثالُ الموت، وَشَتّانَ التَّعَرُّضُ لِفَقْدِ النَّفْسِ وَالتَّعَرُّضُ لِفَقْدِ رِجْلٍ! ثم إن مكانة البطل التاريخية التي حملت كلا الكاتبين على الكتابة عنه والتَّوَسُّلِ به إلى تَثْقيفِ المُتَلَقّين، موكولة في كثير من شأنها، إلى بقائه على رغم الحَدَثان مِثالًا حَيًّا يُكْبِرُه الناس ويؤوبون إلى أقواله وأفعاله وأحواله.

تَفْقِيرُ الْفِقَرِ

[١٨] كما أفرد الكاتبان عدد فصول النصين (سبعة فصول)، واجتمعا عليه، أفردا عدد فقر فصلي الحدثان (خمس فقر)، واجتمعا عليه، حِرْصًا على منهج التَّدْوير نفسه، الجدير بشدة التأثير، فهما تَشَعَّبت معاني فِكْرَةِ الفَصْل، وتَفَقَّرَتْ بها الفقر، تَلاقَتْ في فقرة تغلق دائرتها وتحكم رسالتها.

ولقد كانت فقرةُ "يقين البطل"، أطولُ فقر فصل الحدثان عند الكاتبين جميعا، هي الفقرةَ التي أغلقا بها للمتلقي دائرة الخصوصية التي تتيسر للمتثقف المتحقق بهذه الثقافة العربية الإسلامية، فبمعرفة حدود الوجود وغايته وقدرة الموجد ومراده، يتكون مثل هذا اليقين الذي يكمل للمتلقي مواقف أمثال هؤلاء الأبطال وإن لم تبلغه كُمالاتها.

صِفَةُ الطَّبِيبِ كَصِفَةِ الْأَسَدِ

[١٩] أخرج شاكر فقرته الأولى (صفة الطبيب)، مخرج فقرة الرافعي الأولى (صفة الأسد)، فكان الطبيب لديه بمنزلة الأسد لدى الرافعي. إن مقتضى الحال إذا لزم التشبيه، أن تكون "الأُكْلَةَ" هي التي تُشَبَّهُ بالأسد، لا الطبيب! ولكن لما كان الطبيب هو الذي عرفها وذكرها وعالجها بما يشبه الافتراس، نَزَّله شاكر منزلة الأسد. ثم هنا لطيفة فنية، فلقد حرك الرافعي الأسد إلى أعمال ومشاعر لم يستطع شاكر أن يحرك إلى مثلها "الأكلة"، وكان على أَثَرِ أستاذه عَفْوًا أو قَصْدًا، فاستفاد من وجود الطبيب!

ولقد تأنق كل منهما في وصف موصوفه، فأكثر من صفاته، وألبس بعضها ببعض على طريقة "عطف المتشابهات" السابقة نفسها -وكلا النعوت والمعطوفات توابع- ثم جعلها في عقب خبرٍ جملةٍ اسمية: أما الرافعي فَنَسَخَها بـ"كان"، ثم أورد الأوصاف أخبارًا أخرى، مُعَدَّدَةً مُفَرَّقَةً. وأما شاكر فَجَرَّدَها من النواسخ، ثم أورد الأوصاف نعوتًا للخبر، مُعَدَّدة مُفَرَّقة:

	الرافعي	شاكر
	"كانَ الْأَسَدُ الَّذي اخْتاروهُ لِلشَّيْخِ أَغْلَظَ ما عِنْدَهُمْ	"هُوَ شَيْخٌ
١	جَسيمًا	نَصْرانِيٌّ
٢	ضارِيًا	طَوِيلٌ
٣	عارِمَ الْوَحْشِيَّةِ	فارِعٌ
٤	مُتَزَيِّلَ الْعَضَلِ	مَشْبوحُ الْعِظامِ
٥	شَديدَ عَصَبِ الْخَلْقِ	قَدْ تَخَدَّدَ لَحْمُهُ
٦	هَرّاسًا	أَحْمَرُ
٧	فَرّاسًا	أَزْهَرُ
٨	أَهْرَتَ الشِّدْقِ	أَصْلَعُ الرَّأْسِ إِلّا شَعَراتٍ بيضًا قَدْ بَقِيَتْ لَهُ
٩	يَلوحُ شِدْقُهُ مِنْ سَعَتِهِ وَرَوْعَتِهِ كَفَتْحَةِ الْقَبْرِ يُنْبِئُ أَنَّ جَوْفَهُ مَقْبَرَةٌ	كَثُّ اللِّحْيَةِ
١٠	وَيَظْهَرُ وَجْهُهُ خارِجًا مِنْ لِبْدَتِهِ يَهُمُّ أَنْ يَنْقَذِفَ عَلى مَنْ يَراهُ فَيَأْكُلَهُ".	طَويلُها
١١	×	لَوْ ضَرَبَتْها الرِّيحُ لَطارَتْ بِهِ".

وعلى رغم مُضيّ أحداث القصتين كلتيهما، وكون قصة شاكر المُتَوَفّى رجالُها في أواخر القرن الهجري الأول، أبعد في القِدَم من قصة الرافعي المُتَوَفّى رجالُها في أواخر القرن الهجري الثالث- أَخْرَجَنا الرافعيُّ من إطار نصه منذ دخل إليه، على منهجه في المثالية وكأنما خشي أن نُدَنِّسَه، وأَحاطَنا شاكرٌ بإطار نصه منذ دخل إليه على منهجه في الواقعية وكأنما خشي ألا نَتَأَثَّره، فلم يكن غريبا ألا ينسخ شاكر جملته بـ"كان"، مثلما نسخها الرافعي.

ثم على حين جعل الرافعي أوصاف الأسد أخبارا طبيعتها النحوية التجاور لا التداخل، بيانا لوجه من قسوة مختاريه، إذ مَيَّزوا الأسود بعضها من بعض قليلا قليلا دون عجلة، بالصفة من صفاتها بعد الصفة، حتى اختاروه بحيث تجمع فيه الصفات كلها، فإذا ما هاجم البطلَ، كان مِنْ صِفاتِه في قَطيعٍ أُسودٍ تُهاجِمه- جعل شاكر أوصاف الطبيب نعوتا طبيعتها النحوية التداخل لا التجاور، بيانا لغرابة شأن هذا الطبيب الذي قَرَّبَه أمراء المسلمين في ذلك الزمان العزيز، ومكَّنوه على رغم نصرانيته، كيف كان أزهر (نيِّرًا) على رغم شيخوخته، و أصلع على رغم كثاثة لحيته، حتى إذا ما أَقْبَلَ، أَقْبَلَ مِزاجٌ غَريبٌ، فكأنه عَيْنٌ مُريبَةٌ.

الْيَقِينُ الْيَقِينُ

[٢٠] ولقد جرى شاكر في فقرته الثانية (يقين البطل)، مجرى الرافعي في سَمِيَّتِها الرابعة (يقين البطل)، فأنبت في بطله اليقين بكلام الحق -سبحانه، وتعالى!- كما أنبته الرافعي:

فأما الرافعي فقد أنطق الراوي بقوله في البطل: "كانَ مُنْدَمِجًا في يَقينِ هذه الْآيَةِ: [وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا]"، الذي يعبر عن فهم الراوي لحال البطل من اليقين، فهو يتكلم عنه، ولم يستطع أن يُنْطِقَ البَطَلَ نَفْسَه.

وأما شاكر فقد كان في مقام يتيح له أن يُنْطِقَ البَطَلَ بما يريد من أفكار التَّثْقيفِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلامِيِّ، فجعله يقول: [رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِيًا يُنادي لِلْإيمانِ أَنْ آمِنوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنوبَنا وَكَفِّرْ عَنّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْميعادَ].

كلتا العبارتين من كلام الحق -سبحانه، وتعالى!- ولكن ثم فرقًا بين البطل الشاكري المجتمع الناس حوله وفيهم الطبيب النصراني المعلَّقة به آمال الحاضرين على رغم قسوة عمله، والبطل الرافعي المفرد الصامت، الذي ذهب الناس في تخيُّل سرِّه المذاهب.

إن العبارة القرآنية عند شاكر شعار إسلامي، يُثَبِّتُ به البطل نفسَه والمسلمين، ويدعو غيره من غير المسلمين إلى الإسلام الذي بنى في البطل مثل هذا اليقين، وليس أدل من قول شاكر بعدئذ على لسان عمر بن أبي ربيعة: " رَأَيْتُ أَبا الْحَكَمِ وقَدْ بَرَقَ وَجْهُهُ وتَوَقَّدَ كَأَنَّما أَسْلَمَ بَعْدَ كُفْرٍ"!

مَجْلِسُ الْقَطْعِ كَهَجْمَةِ الْأَسَدِ

[٢١] ثم أخرج شاكر فقرته الثالثة (مجلس القطع)، مخرج فقرة الرافعي الثانية (هجمة الأسد)، في وَشْك معمعة الحدثان، وتأنق في وصفها بقوله في الطبيب: "نَشَرَ دُرْجًا كانَ في يَدِه، وَأَخْرَجَ مِنْشارًا دَقيقًا طَويلًا صَقيلًا يَضْحَكُ فيهِ الشُّعاعُ، وَوَضَعَ الطَّسْتَ".

كما تأنق الرافعي في وصفها بقوله في الأسد: "انْطَلَقَ يُزَمْجِرُ وَيَزْأَرُ زَئيرًا تَنْشَقُّ لَه الْمَرائِرُ، وَيَتَوَهَّمُ مَنْ يَسْمَعُه أَنَّه الرَّعْدُ وَراءَه الصّاعِقَةُ! ثُمَّ اجْتَمَعَ الْوَحْشُ في نَفْسِه، وَاقْشَعَرَّ، ثُمَّ تَمَطّى كَالْمَنْجَنيقِ يَقْذِفُ الصَّخْرَةَ".

وكما كادت صفات الأسد والطبيب تتطابق في الفقرتين الأولين، كادت حركات هجمتيهما تتطابق هنا؛ فقد جعلها شاكر ثلاث حركات:

١ "نَشَرَ...".

٢ "وَأَخْرَجَ...".

٣ "وَوَضَعَ...".

وجعلها الرافعي أربعا بمنزلة ثلاث:

١ "انْطَلَقَ...".

٢ "ثُمَّ اجْتَمَعَ...".

٣ "وَاقْشَعَرَّ...".

٤ "ثُمَّ تَمَطّى...".

ولكن إذا أضفنا الاقشعرار إلى الاجتماع لأنه من لوازمه -وإلا لم يكن الاجتماع من باب الهجوم- كانت حركتا الأسد الثانية والثالثة حركة واحدة، وكانت الحركات كلها عند الرافعي ثلاثا مثلما هي عند شاكر، ولاسيما أن الجمل الرافعية كلها، متعاطفة بـ"ثم"، إلا الثالثة والثانية المتعاطفتين بالواو لتكونا بتلك المنزلة الواحدة السابق ذكرها.

جُمل الكاتبين فعلية ماضوية، وعلى حين تعاطفت بـ"ثم" عند الرافعي، تعاطفت بالواو عند شاكر؛ إذ لا ترتيب في الشاكرية مثل الذي في الرافعية؛ فربما عمل الطبيب بعضها مع بعض أو قبل بعض، فأما الأسد فيجري على ترتيب حركاته فطرة الله التي فطره عليها، من دون أن يخرم منها حرفا، أو تكون له فيها يد!

وقد مكنت الرافعي فطرة الأسود الثابتة على حركات واحدة وترتيب واحد -مهما كانت الأسود، ومهما كان التكرار!- من أن يستوعبهما ويتأنق في وصفهما، إلى ذلك الحد الذي لم يتيسر لشاكر!

عَمَلُ الْقَطْعِ كَذُهُولِ الْأَسَدِ

[٢٢] ثم أخرج شاكر فقرته الرابعة (عمل القطع)، مخرج فقرة الرافعي الثالثة (ذهول الأسد)، في ذروة معمعة الحدثان، حيث يتصاول كِفاحًا الخصيمُ الباطش والبطلُ المبطوش به. ولكن على حين قدم الرافعي الجملة الأولى في البطل: "وَرَأَيْناهُ عَلى ذلِكَ (...) الرَّجُلِ"، ثم أخر الجملة الثانية في الخصيم: "وَلَمْ يَرُعْنا إِلّا ذُهولُ الْأَسَدِ عَنْ وَحْشِيَّتِه"، جاعلا الست الباقيات (٣-٨) تفصيلا لإجمال تلك الجملة الثانية: "أَقْعى (...) وَإِرادَةِ اللّهِ"- قدم شاكر الجملة الأولى في الخصيم: "وَضَعَ أَبو الْحَكَمِ (...) يَوْمَه ذاكَ"، ثم الجمل الأربع التاليات (٢-٥) في البطل: "ما تَضَوَّرَ وَجْهُه (...) مِنْ تَهْليلِه وَتَكْبيرِه"، ثم الجمل الثلاث التاليات (٦-٨) في

الخصيم: "دَخَلَ رِجالٌ (...) حَتّى حَسَمَ الدَّمَ"، ثم أخر الجملتين الباقيتين (٩-١٠)، في البطل: "إِذا عُرْوَةُ (...) تَحْتَ النَّدى".

إنه لما أخر الرافعي فقرة (يقين البطل) عن فقرة (ذهول الأسد)، اضطر إلى تقديم جملة أولى من جمل (ذهول الأسد) في بطله، ولولا هذا ما ذكر بطله؛ فقد ألغى المصاولة المنتظرة بين الأسد وبينه، وجعلها بين إرادة ابن طولون وإرادة الحق -سبحانه، وتعالى!- على رغم امتناع الكفاءة، دلالة على جهل ابن طولون؛ فمن ثم لم نجد في فقرته ما وجدناه في فقرة شاكر بين جمل الخصيم الباطش (أبي الحكم ومنشاره ورجاله) وجمل البطل (عروة)، من تداخل.

لقد كانت ذروة المعمعة عند الرافعي، من عمل الأسد وحده، دلالة على انقطاع ما بينه وبين البطل، فأما عند شاكر فلقد كانت ذروة المعمعة في توالي أعمال القطع من الطبيب ومساعديه، وتوالي أعمال الصبر من عروة.

دَهْشَةُ الطَّبِيبِ كَدَهْشَةِ الشُّهُودِ

[٢٣] ثم أخرج شاكر فقرته الخامسة (دهشة الطبيب)، مخرج فقرة الرافعي الخامسة (دهشة الشهود)، بحيث تكون بمنزلة الهالة تحيط بالبطل من كل جهة، وتبهر من حوله، وتزيد من الأثر الذي يريده.

ولكن أطرف ما اختلف فيه الكاتبان، أن يخرج الرافعي الدهشة من الشهود، ولا يتجاوزهم إلى الخصيم الذي صار الآن ابن طولون نفسه، إلا بعد ما يدل على أنهم أكثروا من دهشتهم حتى اضطر الخصيم إلى إظهار اندهاشه- على حين يخرج شاكر الدهشة من الخصيم صريحة واضحة: "ما رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، يا أَميرَ الْمُؤْمنينَ! إِنَّه رَجُلٌ، وَإِنَّها الْحَقيقَةُ الْمُؤْمِنَةُ، وَإِنَّ إيمانَه لَيَحوطُه، وَيُثَبِّتُه، وَيُسَكِّنُه، وَيَنْفُضُ عَنْهُ الْجَزَعَ"!

ينبغي ألا نغفل عن أن شاكرا نثر ابتلاءات بطله على أرجاء القصة، فصحبتها دهشات متعددة مختلفة لم يحتج إلى الزيادة عليها، ولكنه لما وصل إلى آخر فقر فصل الحدثان، تحرى أن يجعل فضل البطل من شهادة خصيمه الذي لا يدين بدينه. ثم إن لكون فصل الحدثان آخر فصول قصة الرافعي، أثرا في تكثيفه دهشة الشهود، بعبارة من كلام البطل: "لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ بَأْسٌ، وَإِنَّمَا كُنْتُ أُفَكِّرُ في لُعابِ الْأَسَدِ: أَهُوَ طاهِرٌ أَمْ نَجِسٌ". إنها عبارة شديدة السخرية من الخصيم، تظل عالقة بأسماع المتلقين، لتملأ الدنيا فيما بعد!

عبارة الرافعي جملتان اسميتان منسوختان بأداتين فعليتين (مضارعية محولة إلى الماضوية وماضوية صريحة)، ثانيةُ الجملتين الاسميتين فيها أسلوب الإجمال والتفصيل الواضح عند الرافعي كما سبق. وعبارة شاكر خمس جمل: فعلية ماضوية، وفعلية مضارعية موجزة، وثلاث اسميات، خبرُ ثالثتها جملة فعلية مضارعية، معطوف عليها ثلاث مثلها، لا يخفى ما بين الأربع كلها من تفصيل وترتيب وتأنق.

لقد تحرى الرافعي في عبارة بطله التي كَثَّفَ فيها فكرة الفقرة، أن تدل بقصرها على سخرية البطل الشديدة من خصيمه، التي لا تخلو من كمد عليه، فأما شاكر فقد كان في بحبوحة من المشاعر التي يريد أن ينقلها للمتلقي ولاسيما غير المسلم؛ فهو يزيد ويرتب ويتأنق!

تَرتِيبُ الْفِقَرِ

[٢٤] كما اتفقت بين الكاتبين فقر هذا الفصل، اتفقت مواضعها، حتى لَنَسْتَطيعُ أن نميز منها قسمين واضحين:

١ فقر التمهيد لمعمعة الحدثان: كانت عند الرافعي اثنتين (صفة الأسد، وهجمة الأسد)، وكانت عند شاكر ثلاثًا (صفة الطبيب، ويقين البطل، ومجلس القطع).

٢ فقر معمعة الحدثان: كانت عند الرافعي ثلاثًا (ذهول الأسد، ويقين البطل، ودهشة الشهود)، وكانت عند شاكر اثنتين (عمل القطع، ودهشة الشهود).

لا يخفى أَنه لولا موضع فقرة (يقين البطل)، لتطابقت الفقر في مواضعها كما تطابقت في أنفسها. ولا ريب في أن شرح ذلك اليقين بعد سطوع أثره على ما فعل الرافعي، أقوى وضوحا وأنجع أثرا، مثلما يعمل الرجل العمل الصالح، ثم يدل الناس فيما بعد على إيمانه الذي حفزه إليه؛ عسى أن يأتسوا به، على مثل ما قص الحق -سبحانه، وتعالى!- من خبر سيدنا يوسف -عليه السلام!- وصاحبي السجن؛ إذ لم يدعهما إلى دينه إلا بعدما وُفِّقَ إلى تأويل رُؤْيَيَيْهِما.

ولكن أين خصيم البطل عند شاكر (الطبيب النصراني)، من خصيمه عند الرافعي (الحيوان الأعجم)! لقد هجم الحيوان الأعجم على البطل لا يلوي على شيء، ولا يماري، ولا يباري، فأما الطبيب النصراني فدعا البطل إلى الخَمْر مرة وإلى المُرْقِد ثانية وإلى المُمْسِكِين ثالثة؛ فاحتاج الكاتب إلى أن يبادر إلى تبيان يقين البطل؛ ففي أعمال اليقين المتوالية، علاج أعمال الخصومة متوالية.

خَاتِمَةُ الْفَصْلِ الرَّابِعِ

[٢٥] إن حياة ثقافتنا العربية الإسلامية، مستديرة مثل حَيَواتِ غيرها من الثقافات الكبيرة، تتوالى فيها من قديم إلى حديث، أحوالُ الوصال والهجران، والاستيعاب والجهل، والقوة والضعف.

وإن مصطفى صادق الرافعي وتلميذه محمود محمد شاكر، مدرسة واحدة من استيعاب الثقافة العربية الإسلامية والإيمان بها والحرص عليها، ثم التأتي إلى تعليمها والإغراء بمراجعتها- استحدثت أساليب أدبية متعددة مختلفة، أثرت في المتلقين تأثيرا شديدا.

وإن في جلال الغاية التي أَمَّها الكاتبان، وفي صدق معنى المدرسة الثقافية الواحدة بينهما، وفي نجاح أحد أساليبها- ما يستغرق تأمل النحوي، حتى يوازن بينهما موازنة نصية نحوية؛ فيشرح من معالم الغاية والمدرسة والأسلوب، ما يتقدم بدراسته النحوية في سبيل وعي علمي جديد.

ولقد تأملت نصوص الرافعي وشاكر من ذلك الأسلوب الناجح، طويلا، حتى عثرت لأحد نصوص شاكر القليلة على نص يلائمه مقدارا ورسالة، من نصوص الرافعي الكثيرة. ثم تأملت هذين النصين طويلا، حتى ظهرت لي بينهما الأربع عشرة مسألة، الآتية:

جَوامِعُ النَّصَّيْنِ، وحُضورُ الْأَعْلامِ، وصَوْتا الْكاتِبَيْنِ، وتَفْصيلُ الْفُصولِ، وتَرْتيبُها، ونَسْجُ النَّصَّيْنِ، وتَوصيلُ الْفُصولِ، ورَبْطُ الْأَقْوالِ، وعَطْفُ الْمُتَشابِهاتِ، وتَرْكيبُ الْمُفاجَأَةِ، والْإِجْمالُ ثُمَّ التَّفْصيلُ، وجَوامِعُ الذِّرْوَتَيْنِ، وتَفْقيرُ الْفِقَرِ، وتَرتيبُها.

خَصَصْتُ النَّظَرَ في كُلِّ مَسْأَلَةٍ منها بمبحث، حتى أَكَّدَ لي ما ذكرته بين الرافعي وشاكر، من معنى المدرسة الثقافية الواحدة (المذهب الثقافي الواحد)، ولكنه دلني كذلك على منهجين تنازعاهما بدقائق لوازمهما:

١ الاِسْتِبْطانُ الْمِثاليُّ الصّوفيُّ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الكامنة في العناصر القصصية، يتحرك حركة عمودية من أعلاها إلى أسفلها، ومن أسفلها إلى أعلاها، دَوالَيْك.

٢ الاِسْتِبْطانُ الْواقِعيُّ الْفَنّيُّ: منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الظاهرة على العناصر القصصية، يتحرك حركة أفقية من ورائها إلى أمامها، ومن أمامها إلى ورائها، دَوالَيْك.

انتهج هذا الأخيرَ شاكرٌ، بعد ما انتهج ذلك الأولَ أستاذُه، من دون أن يأتي اختلاف المنهجين الاثنين بينهما، على معنى المدرسة الثقافية الواحدة.

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

تَطَوُّرُ تَفْكِيرِ الْجُرْجَانِيِّ النَّحْوِيِّ

مِنَ الْمُقْتَصِدِ إِلَى الدَّلَائِلِ

مُقَدِّمَةٌ

سِياسَةُ الزّاهِدينَ في عِلْمِ النَّحْوِ

[١] جرى الشيخ الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي المتوفى سنة ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ، في كتابه "دلائل الإعجاز"- على التأَتّي لتفصيل كل مسألة، بتقديم كلمة فلسفية ذَوْقيَّةٍ عامة، تقف المتلقي على حقيقة ما يُشْرِفُ عليه ومن يُشْرِفُ به عليه، كليهما؛ عسى أن يستعدَّ لهما! ثم لما فرغ من الكتاب فَراغًا أَوَّليًّا، تَأَتّى له بمثل ما تَأَتّى لمسائله؛ فكان خبيرًا ما يقول ومتى يقول.

ولما كانت مسائل الكتاب بين علمي الشعر والنحو، تَأَتّى له ببيان مكانتهما، ثم استطرد إلى المنافحة عنهما؛ فقد وجد الجهل استولى على طائفة من الناس، تَوَهَّمَتْ علم الشعر علم معاني مفردات، وعلم النحو علم علامات إعراب، حتى "ساءَ اعْتِقادُها في الشِّعْرِ (...)، وَفي عِلْمِ الْإِعْرابِ (...)؛ فَجَعَلَتْ تُظْهِرُ الزُّهْدَ في كُلِّ واحِدٍ مِنَ النَّوْعَيْنِ، وَتَطْرَحُ كُلًّا مِنَ الصِّنْفَيْنِ، وَتَرَى التَّشاغُلَ عَنْهُما أَوْلى مِنَ الِاشْتِغالِ بِهِما، وَالْإِعْراضَ عَنْ تَدَبُّرِهِما أَصْوَبَ مِنَ الْإِقْبالِ عَلى تَعَلُّمِهِما"[١]!

ولقد اسْتَشْنَعَ ما تَدَهْوَروا إلى اعتقاده، ورآه في معنى الصد عن كتاب اللّٰه وعن معرفة معانيه؛ فتَجَرَّدَ لتفنيد أصوله وفروعه وحججه وأمثلته، فخَيَّلَ لنا أنهم يُدافِعونَ عن أنفسهم بقولهم في علم النحو: "إِنّا لَمْ نَأْبَ صِحَّةَ هذَا الْعِلْمِ، وَلَمْ نُنْكِرْ مَكانَ الْحاجَةِ إِلَيْهِ في مَعْرِفَةِ كِتابِ اللّهِ -تَعالى!- وَإِنَّما أَنْكَرْنا أَشْياءَ كَثَّرْتُموهُ بِها، وَفُضولَ قَوْلٍ تَكَلَّفْتُموها، وَمَسائِلَ عَويصَةً تَجَشَّمْتُمُ الْفِكْرَ

---

[١] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٧- ٨.

فيها، ثُمَّ لَمْ تَحْصُلوا عَلى شَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تغْرِبوا عَلَى السّامِعينَ، وَتُعايوا بِها الْحاضِرينَ"[1]!- لِيُقَدِّرَ لنا أن تلك "الأشياء المُكَثَّرة"، و"الفضول المُتَكَلَّفة"، و"المسائل العَويصَة"، المذكورة في مُدافعَتِهم- لن تكون إلا الظواهر النحوية الآتية:

١ مسائل التصريف التي يضعها النحويون للرِّياضة، ولضَرْبٍ من تمكين المقاييس في النفوس.

٢ الكلام على أغراض واضع اللغة وحكمة أوضاعها وتقرير المقاييس التي اطردت عليها، وذكر العلل التي اقتضت أن تجرى على ما أُجْرِيَتْ عليه.

٣ خصائص التراكيب، وجوامعها، وفوارقها، ودلالاتها.

فيوافقهم على إهمال الظاهرة الأولى، والزَّهادة فيها[2]! ويعذرهم في إهمال الظاهرة الثانية كذلك، ويسامحهم على الزَّهادة فيها، وإن كره لهم الإعراض عن خباياها الحِكْمِيَّة وعلومها الجَمَّة[3]! أما الظاهرة الثالثة فيخيرهم في إهمالها والزَّهادة فيها، بين أن يَسْتَحِقّوا وحدَهم صِفَةَ التَّرَدّي في مَهاوي الجهل، وأن يرجعوا إلى الحق، ويُسَلّموا الفضل لأهله[4]!

كَثْرَةُ النَّعْيِ عَلَى النَّحْوِيّينَ

[٢] ثم يذهب يُبَوِّبُ أبواب الظاهرة الثالثة (خصائص التراكيب، وجوامعها، وفوارقها، ودلالاتها)، وحدها- ويملأ كتابه بالنعي جَلِيًّا وخَفِيًّا، على النحويين الذين ظلموها بما

---

[1] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٢٩.

[2] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٢٩. وليست مسائل التمرين الصرفية هذه (مسائل التصريف)، من علم النحو، ولا داعي هنا إلى تَوْسيع مفهومه، وكانت أولى بالذكر منها، مَسائلُ تَمْرينٍ نحويةٍ، اشتغل هو بها في "المقتصد"!

[3] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٣٠.

[4] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٣٢.

اكتفوا به فيها: "لَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ يَظُنَّ الظّانُّ أَنه لَيْسَ فِي انْضِمامِ [ما] إِلى [إِنَّ]، فائِدَةٌ أَكْثَرُ مِنْ أَنَّها تُبْطِلُ عَمَلَها، حَتّى تَرَى النَّحْوِيّينَ لا يَزيدونَ في أَكْثَرِ كَلامِهِمْ عَلى أَنَّها كافَّةٌ"[1]- يَفْتَقِدُ عندهم ما يراه، ويَنْفِرُ به مما رأوه!

عجبا! كيف استبدل بأولئك الزاهدين هكذا سريعا، هؤلاء النحويين، هدفًا يرميه أول كل مسألة أو في أثنائها، من بعد أن نزل لأولئك الزاهدين، عن الظاهرتين الأوليين! أَلَيْسَ نحويا من هؤلاء النحويين أنفسهم! بل قد حظي دون كثير منهم، بلقب "النحوي" في اسمه! ألم يشرح إيضاح أبي علي الفارسي، وهو متن تعليمي صغير- ثلاثة شروح، أولها "الإيجاز" - ربما كان في أوراق- وأوسطها "المغني"، في ثلاثين مجلدا، وآخرها "المقتصد"، في ثلاثة مجلدات، المختصر من شرح المغني السابق نفسه[2]!

ذاك بلا ريب، سِرٌّ من تطور تفكير الجرجاني النحوي، يتقدم بسَبْرِه البحثُ عن خبايا الماضي، إلى ما يضيء المستقبل!

ضَرُورَةُ الْمُوازَنَةِ بيْنَ الْمُقْتَصِدِ وَالدَّلائِلِ

[٣] إن "المقتصد"، هو وحده الشرح الباقي من شروح الإيضاح الثلاثة التعليمية التي تتناول المسائل النحوية الاصطلاحية؛ فهو وحده مَظِنَّة تفكيره النحوي الحقيقي، عند من يرون النحو هو سياق حَلّ تلك المسائل التعليمية الاصطلاحية: "على هذا يكون الحديث عن عبد القاهر نحويا بالضرورة، هو الحديث عن كتابه هذا"[3]. وإن "دلائل الإعجاز"، هو وحده

---

[1] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٣٥٤. وثَمَّ مواضع كثيرة جلية وخفية، لم أحصها، منها: ١٦٣، ١٧٧، ١٨٧، ٢٠٠، ٢٣١، ٢٧٨، ٣٠١، ٣٢٨، ٥٣٣، ...

[2] السبكي: ٥/ ١٥٠.

[3] الجرجاني، ١٩٨٢م: ١/ ٣٣، ٣٦، من مقدمة المحقق الذي لم يكمل طباعة أصل الكتاب!

آخر كتب عبد القاهر كلها: "خلاصة ناجحة لآرائه بعد رحلة علمية شاقة"[1]، فهو وحده مَظِنَّة تفكيره النحوي الحقيقي، عند من يرون النحو هو نظام عقد الكلام الذي لا يستغني عن تأمله من يشتغل بتأمل الكلام.

وإن الموازنةَ بين كتابي المقتصد المؤلَّف في أوائل خَمسينيّات القرن الهجري الخامس[2]، والدلائل المؤلف في أوائل سَبْعينيّاته[3]- لَمِرْآةٌ صادِقَةٌ، تعكس معالم تطور تفكير الجرجاني النحوي. ولا اعْتِراضَ على ما تعكسه هذه المرآة، بِعَدَمِ تَوارُدِ كتابين: أحدهما (الدلائل) كتابٌ مُسْتَقْبِلِيٌّ باهر أصلا، والآخر (المقتصد) كتابٌ قَدامِيٌّ راكد[4]؛ إذ لا توارد أظهر من إعادة الجرجاني النظر بالدلائل، في بعض ما نظر فيه بالمقتصد. ثم هل أشنع اعتراضًا من إِصْغار قدرة العقل على مجاوزة طوره القديم إلى آخر حديث، وإِنْكار سنة الحق -سبحانه، وتعالى!- في خلقه، أن تتوالى أطواره ضعفا وقوة[5]!

---

[1] الجرجاني، ١٩٨٢م: ١/ ٢٨.

[2] ولكنه مختصر من " المغني " ذي الثلاثين مجلدا، المؤلف قبله بزمان طويل.

[3] الجرجاني، ١٩٨٢م: ١/ ٢٢، ٢٨.

[4] لم يعد خافيا فرق ما بين "قَدامِيٍّ" صفة الاشتغال بالماضي والعمل له، و"مستقبلي" صفة الاشتغال بالمستقبل والعمل له. ولا يحتاج وصف المقتصد بالقدامية إلى أكثر من ذِكر أنه شرح متن سابق- ولا وصف الدلائل بالمستقبلية إلى أكثر من ذِكر أنه تأسيس علم لم يكن من قبل!

[5] على قريب من هذا، دار الخلاف بين نَحْوِيِّي كلية دار العلوم بجامعة القاهرة -في تسمية مؤتمرهم الثالث؛ فقد سماه "الْعَرَبِيَّةُ بَيْنَ نَحْوِ الْجُمْلَةِ وَنَحْوِ النَّصِّ"، من لم يعترف بـ"نحو الجملة " و"نحو النص"، طَوْرَيْنِ مترابطين من أطوار علم النحو- وسماه من اعترف بذلك "الْعَرَبِيَّةُ مِنْ نَحْوِ الْجُمْلَةِ إِلى نَحْوِ النَّصِّ"، اسم بحث الدكتور سعد مصلوح بكتاب جامعة الكويت التذكاري، لسنة ١٤١٠هـ (١٩٩٠م)-: "عبد السلام هارون: معلما ومؤلفا ومحققا".

مَادَّةُ الْمُوَازَنَةِ مِنَ الْمُقْتَصِدِ وَالدَّلَائِلِ

[٤] لِتِلْكَ الموازنة فَتَّشْتُ المقتصد عن كل نص يجري من التفكير النحوي مجرى نصوص الدلائل، حتى عثرت على واحد وخمسين نصا. ثم وازنت بين هذه الواحد والخمسين في اتحاد أبواب التفكير، حتى اصطفيت منها بضعة عشر نصا، جَمَعَ بينها بابُ التقديم والتأخير على نَحْوٍ ما. ثم فتشت باب التقديم والتأخير من الدلائل، عن كل نص يُوارِدُ أيًّا من هذه البضعة عشر، بِعَدَدِ كَلِمِه الكتابية[١]، ودَقائِقِ أَفْكارِه- لِيَجْرِيَ بينهما البحثُ عنهما، حتى عثرتُ لِثلاثةٍ على ثلاثةٍ، أُورِدُها فيما يأتي، اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ، مُقَدَّمًا في كل اثنينِ منها، نَصُّ المقتصد الأسبقُ وُجودًا، على نَصِّ الدلائل[٢]:

---

[١] " الكَلِمَة الكِتَابِيَّة"، هي المحفوفة من قبلها ومن بعدها ببياض، المعدودة بذلك في الحاسوب، كلمة واحدة، مهما كان اعتبارها في التحليل اللغوي!

[٢] صَبَبْتُ كل نص صَبَّ الفقرة الواحدة، تنبيهًا على وحدة مسألته، ثم قَسَّمْتُه على جُمَلَه النحوية، مِنْ حيث كُلٌّ منها مُرَكَّبٌ من عنصرين مؤسسين مُرْتَبِطَيْنِ بعلاقة إسناد، ربما انضافت إليهما أحدهما أو كليهما، عناصرُ أخرى مُكَمِّلة (مُتَعَلِّقات)، وربما انضافت إلى تلك العناصر كلِّها أو بعضِها عناصرُ أخرى مُلَوِّنَةٌ (أَدَوات)- ثم رقَّمْتُ الجمل بمُقتضى ترتيبِ تَرابُطها.

نَصُّ الْمُقْتَصِدِ الأَوَّلُ

"مِنْ هذَا الْقِسْمِ نَوْعٌ يَدْخُلُ على الاِسْمِ وَالفِعلِ، إلّا أَنَّه بِالْفِعْلِ أَوْلى مِنْهُ بِالاِسْمِ؛١/ فَإِذا أَمْكَنَ حَمْلُه عَلَى الْفِعْلِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُحْمَلَ على الاِسْمِ إلّا على قُبْحٍ،٢/ وَذلك نَحْوُ حُروفِ الاِسْتِفْهامِ كَهَلْ وَالْهَمْزَةِ؛٣/ تقولُ: هَلْ زَيْدٌ خارِجٌ؟ وَهَلْ خَرَجَ زَيْدٌ؟ وَأَزَيْدٌ خارِجٌ؟ وَأَخَرَجَ عَمْرٌو؟٤/ فَإِذا قُلْتَ: زَيْدٌ ضَرَبْتَه، ثُمَّ أَدْخَلْتَ عَلَيْهِ هَمْزَةَ الاِسْتِفْهامِ، فَقُلْتَ: أَزَيْدٌ ضَرَبْتَه؟ وَجَبَ أَنْ تُضْمِرَ فِعْلًا، فَتَنْصِبَ[1] زَيْدًا عَلى قَوْلِ مَنْ قالَ: زَيْدًا ضَرَبْتَه، عَلى تَقْديرِ ضَرَبْتَ زَيْدًا ضَرَبْتَه، فَتَقولَ: أَزَيْدًا ضَرَبْتَه؟ فَتَنْصِبَ زَيْدًا، لِتَكونَ الْهَمْزَةُ قَدْ وَلِيَت الْفِعْلَ الْمُضْمَرَ؛٥/ وذاكَ أَنَّ الاِسْتِفْهامَ واقِعٌ عَلَى الْفِعْلِ فِي التَّقْديرِ وَالْمَعْنى؛٦/ أَلا تَرى أَنَّكَ إذا قُلْتَ: أَضَرَبْتَ زَيْدًا؟ لَمْ تَكُنْ مُسْتَفْهِمًا عَنْ زَيْدٍ، وَإِنَّما تَسْتَفْهِمُ عَنْ ضَرْبِه!٧/ فَإِذا كانَ الاِسْتِفْهامُ مُشْتَمِلًا عَلَى الفِعلِ كانَ الْقِياسُ أَنْ يَلِيَ حُروفَه وَلا يَلِيَها الاِسْمُ مَعَ وُجودِ الْفِعْلِ؛٨/ تَقولُ: أَزَيْدًا ضَرَبْتَه؟٩/ فَتَنْصِبُ،١٠/ وَلا يَجِبُ أَنْ تَقولَ: أَزَيْدٌ ضَرَبْتَه؟ فَتَرْفَعَ بِالاِبْتِداءِ، لِأَنَّكَ قادِرٌ عَلى أَنْ تُضْمِرَ الْفِعْلَ، فَتَقَولَ: أَزَيْدًا ضَرَبْتَه؟ فَتولِيَ الْهَمْزَةَ الْفِعْلَ.١١/ وَيَجوزُ أَنْ تَقولَ: أَزَيْدٌ أَخوكَ؟ وَتَبْتَدِئَ بِالاِسْمِ بَعْدَها، لِأَنَّكَ لا تَقْدِرُ هُنا عَلَى الْفِعْلِ،١٢/ وَهكَذا حُكْمُ هَلْ؛١٣/ تَقولُ: هَلْ زَيْدٌ أَخوكَ؟١٤/ فَتَرْفَعُ بَعْدَهُ الْجُمْلَةَ مِنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ،١٥/ وَإِذا قُلْتَ: هَلْ زَيْدًا ضَرَبْتَه؟ لَمْ يَجُزْ أَنْ تَرْفَعَ زَيْدًا بِالاِبْتِداءِ، فَتَقولَ: هَلْ زَيْدٌ ضَرَبْتَه؟١٦/ بَلْ يَجِبُ النَّصْبُ عَلى إِضْمارِ الْفِعْلِ، لِيَلِيَ حَرْفَ الاِسْتِفهامِ وَالْفِعلَ[2] الَّذي اشْتَمَلَ هُوَ عَلَيْهِ.١٧/ وَالْفَرْقُ بيْنَ هَلْ وَالْهَمْزَةِ أَنَّه يَجوزُ أَنْ تَقولَ: أَزَيْدٌ ضَرَبْتَه؟ عَلى قُبْحٍ، فَتَبْتَدِئَ الاِسْمَ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْفِعْلِ، وَلا يَجوزُ ذلكَ في

---

[1] المطبوع "فَيَنْصِبَ" بالياء، والصواب -إن شاء اللهُ!- ما أثبتُّ.

[2] المطبوع "وَالْفِعْلِ" بالجر، والصواب -إن شاء اللهُ!- ما أثبتُّ.

هَلْ،/١٨ وَإِنَّما جازَ الاِبْتِداءُ فِي الْهَمْزَةِ، لِأَنَّها أُمُّ الْبابِ وَأَكْثَرُ حُروفِه تَصَرُّفًا؛/١٩ فَيَجوزُ فيها مِنَ الاِتِّساعِ[1]، ما لا يَجوزُ في غَيْرِها؛/٢٠ وَلِهذا لَمْ يَجُزْ أَنْ تَقولَ: كَيْفَ زَيْدٌ ضَرَبْتَه؟ فَتَبْتَدِئَ الاِسْمَ بَعْدَ كَيْفَ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْفِعْلِ؛/٢١ وَذاكَ أَنَّ كَيْفَ وَإِنْ كانَ اسْمًا فَإِنَّه مِثْلُ هذا في إِفادَةِ الاِسْتِفْهامِ؛/٢٢ فَيَجِبُ أَلّا يَلِيَه الاِسْمُ ما وُجِدَ الْفِعْلُ فِي الْكَلامِ./٢٣ فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ زَيْدٌ خَرَجَ؟/٢٤ كانَ التَّقْديرُ في زَيْدٍ أَنَّه مَرْفوعٌ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ (-كَأَنَّكَ قُلْتَ: هَلْ خَرَجَ زَيْدٌ خَرَجَ؟)٢٦ كَما كانَ مَنْصوبًا بِمُضْمَرٍ في قَوْلِكَ: هَلْ زَيْدًا ضَرَبْتَه؟/٢٥ وَيَكونُ الْفِعْلُ الْمُظْهَرُ الْواقِعُ بَعْدَه وَهُوَ خَرَجَ، تَفْسيرًا لِذلِكَ الْمُضْمَرِ، كَما كانَ ضَرَبْتَه كَذلِكَ/٢٧"[2].

---

[1] المطبوع "الاِمْتِناعِ"، والصواب -إن شاء اللهُ!- ما أثبتُّ. ولقد تكاثرت عليَّ أخطاء هذه الطبعة من "المُقتصد"، واختلفت، حتى افتقر تحقيقها إلى تحقيق! ولو نبّهتُ على كل ما انْتبهْتُ إليه لاشتغلتُ عن غايتي!

[2] الجرجاني، ١٩٨٢م: ١/ ٨٧- ٨٨.

"مِنْ أَبْيَنِ شَيْءٍ فِي ذَلِكَ الاسْتِفْهَامُ بِالْهَمْزَةِ؛/١ فَإِنَّ مَوْضِعَ الْكَلَامِ عَلَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: أَفَعَلْتَ؟ فَبَدَأْتَ بِالْفِعْلِ، كَانَ الشَّكُّ فِي الْفِعْلِ نَفْسِهِ، وَكَانَ غَرَضُكَ مِنِ اسْتِفْهَامِكَ أَنْ تَعْلَمَ وُجُودَهُ- وَإِذَا قُلْتَ: أَأَنْتَ فَعَلْتَ؟ فَبَدَأْتَ بِالاسْمِ، كَانَ الشَّكُّ فِي الْفَاعِلِ مَنْ هُوَ، وَكَانَ التَّرَدُّدُ فِيهِ./٢ وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّكَ تَقُولُ: أَبَنَيْتَ الدَّارَ الَّتِي كُنْتَ عَلَى أَنْ تَبْنِيَهَا؟ أَقُلْتَ الشِّعْرَ الَّذِي كَانَ فِي نَفْسِكَ أَنْ تَقُولَهُ؟ أَفَرَغْتَ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي كُنْتَ تَكْتُبُهُ؟ تَبْدَأُ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ بِالْفِعْلِ، لِأَنَّ السُّؤَالَ عَنِ الْفِعْلِ نَفْسِهِ وَالشَّكَّ فِيهِ، لِأَنَّكَ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ مُتَرَدِّدٌ فِي وُجُودِ الْفِعْلِ وَانْتِفَائِهِ، مُجَوِّزٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ كَانَ، وَأَنْ يَكُونَ لَمْ يَكُنْ- وَتَقُولُ: أَأَنْتَ بَنَيْتَ هَذِهِ الدَّارَ؟ أَأَنْتَ قُلْتَ هَذَا الشِّعْرَ؟ أَأَنْتَ كَتَبْتَ هَذَا الْكِتَابَ؟ فَتَبْدَأُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِالاسْمِ؛ ذَاكَ لِأَنَّكَ لَمْ تَشُكَّ فِي الْفِعْلِ أَنَّهُ كَانَ (-كَيْفَ وَقَدْ أَشَرْتَ إِلَى الدَّارِ مَبْنِيَّةً، وَالشِّعْرِ مَقُولًا، وَالْكِتَابِ مَكْتُوبًا!-) ٤ وَإِنَّمَا شَكَكْتَ فِي الْفَاعِلِ مَنْ هُوَ./٣ فَهَذَا مِنَ الْفَرْقِ لَا يَدْفَعُهُ دَافِعٌ، وَلَا يَشُكُّ فِيهِ شَاكٌّ،/٥ وَلَا يَخْفَى فَسَادُ أَحَدِهِمَا فِي مَوْضِعِ الْآخَرِ؛/٦ فَلَوْ قُلْتَ: أَأَنْتَ بَنَيْتَ الدَّارَ الَّتِي كُنْتَ عَلَى أَنْ تَبْنِيَهَا؟ أَأَنْتَ قُلْتَ الشِّعْرَ الَّذِي كَانَ فِي نَفْسِكَ أَنْ تَقُولَهُ؟ أَأَنْتَ فَرَغْتَ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي كُنْتَ تَكْتُبُهُ؟-/٧ خَرَجْتَ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ!/٨ وَكَذَلِكَ (-لَوْ قُلْتَ: أَبَنَيْتَ هَذِهِ الدَّارَ؟ أَقُلْتَ هَذَا الشِّعْرَ؟ أَكَتَبْتَ هَذَا الْكِتَابَ؟-) ١٠ قُلْتَ مَا لَيْسَ بِقَوْلٍ؛/٩ ذَاكَ لِفَسَادِ أَنْ تَقُولَ فِي الشَّيْءِ الْمُشَاهَدِ الَّذِي هُوَ نُصْبَ عَيْنَيْكَ: أَمَوْجُودٌ أَمْ لَا!/١١ وَمِمَّا يُعْلَمُ بِهِ ضَرُورَةً أَنَّهُ لَا تَكُونُ الْبِدَايَةُ[1] بِالْفِعْلِ كَالْبِدَايَةِ بِالاسْمِ، أَنَّكَ تَقُولُ: أَقُلْتَ شِعْرًا قَطُّ؟ أَرَأَيْتَ الْيَوْمَ إِنْسَانًا؟- فَيَكُونُ كَلَامًا

[1] راجع ابن منظور: ب، د، ء؛ ففي "بِدايَة" تسهيل الهمزة، على صنيع لهجي قديم، فأما الصنيع اللغوي ف"بِداءَة"!

مُسْتَقيمًا، وَلَوْ قُلْتَ: أَأَنْتَ قُلْتَ شِعْرًا قَطُّ؟ أَأَنت رأَيْتَ إِنْسانًا؟- أَحلْتَ؛/١٢ وَذاكَ أَنَّه لا مَعْنى لِلسُّؤالِ عَنِ الْفاعِلِ مَنْ هُوَ، في مِثْلِ هذا، لِأَنَّ ذلكَ إِنَّما يُتَصَوَّرُ إِذا كانَتِ الْإِشارَةُ إِلى فِعْلٍ مَخْصوصٍ، نَحْوُ أَنْ تَقولَ: مَنْ قالَ هذَا الشِّعْرَ؟ وَمَنْ بَنَى هذِهِ الدّارَ؟ وَمَنْ أَتاكَ الْيَوْمَ؟ وَمَنْ أَذِنَ لَكَ فِي الَّذي فَعَلْتَ؟ وَما أَشْبَهَ ذلِكَ مِمّا يُمْكِنُ أَنْ يُنَصَّ فيهِ عَلى مُعَيَّنٍ./١٣ فَأَمّا قيلُ الشِّعْرِ عَلَى الْجُمْلَةِ، وَرُؤْيَةُ إِنْسانٍ عَلَى الْإِطْلاقِ- فَمُحالٌ ذلِكَ فيهِ، لِأَنَّه لَيْسَ مِمّا يَخْتَصُّ بِهذا دونَ ذاكَ، حَتّى يُسْأَلَ عَنْ عَيْنِ فاعِلِه./١٤ وَلَوْ كانَ تَقْديمُ الِاسْمِ لا يوجِبُ ما ذَكَرْنا مِنْ أَنْ يَكونَ السُّؤالُ عَنِ الْفاعِلِ مَنْ هُوَ/١٥، وَكانَ يَصِحُّ أَنْ يَكونَ سُؤالًا عَنِ الْفِعْلِ أَكانَ أَمْ لَمْ يَكُنْ-/١٦ لَكانَ يَنْبَغي أَنْ يَسْتَقيمَ ذلِكَ/١٧"[1].

---

[1] الجرجاني، ١٩٨٤م: ١١١- ١١٣.

نَصُّ الْمُقْتَصِدِ الثَّانِي

"الضَّرْبُ الثَّالِثُ (-وَهُوَ أَنْ يكونا نَكِرَتَيْنِ-)٢ كَقَوْلِكَ: رَجُلٌ مِنْ قَبيلَةِ كَذا عالِمٌ./١ وَالْإِخْبارُ بِالنَّكِرَةِ عَنِ النَّكِرَةِ غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ فِي الْأَصْلِ؛/٣ إِذْ إِسْنادُ الْمَجْهولِ لا نَصيبَ لَهُ فِي الْإِفادَةِ؛/٤ فَإِنَّما تَأْتِّي[1] النَّكِرَتانِ إِذا وُجِدَ تَخَصُّصٌ، كَما فَعَلْتَ في تَخْصيصِكَ رَجُلًا بِقَوْلِكَ: مِنْ قَبيلَةِ كَذا، وَنَحْوُ أَنْ تَقولَ: رَجُلٌ مِنْ آلِ فُلانٍ فارِسٌ، فَتَصِفُه بِكَوْنِه مِنْ تِلْكَ الْقَبيلَةِ-/٥ وَتَحْصُلُ الْفائِدَةُ لِأَنَّ الْمُخاطَبَ قَدْ يَجْهَلُ ذلِكَ./٦ وَلَوْ قُلْتَ: رَجُلٌ ذاهِبٌ،/٧ لَمْ يَجُزْ لِأَنَّ كُلَّ واحِدٍ يَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيا لا تَخْلو مِنْ ذاهِبٍ ما،/٨ فَإِنْ قُلْتَ: رَجُلٌ ذاهِبٌ مِنْ داري، أَوْ ذَهَبَ مِنْ داري/٩ جازَ لِأَنَّ ذلِكَ لا يَعْرِفُه كُلُّ أَحَدٍ./١٠ وَقالوا فِي الْمَثَلِ: شَرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ،/١١ فَابْتَدَؤوا بِالنَّكِرَةِ، لِأَنَّه يَتَضَمَّنُ مَعْنَى النَّفْيِ، كَقَوْلِكَ: ما أَهَرَّ ذا نابٍ إِلّا شَرٌّ/١٢"[2].

---

[1] المطبوع "تَأْتِي" مِثْل تَضْرِب، والصواب -إن شاء الله!- ما أثبتُّ.

[2] الجرجاني، ١٩٨٢م: ١/ ٣٠٨.

نَصُّ الدَّلَائِلِ الثَّانِي

"قَوْلُهُمْ: شَرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ، إنَّما قُدِّمَ فيهِ شَرٌّ لِأَنَّ المُرادَ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الَّذي أَهَرَّ ذَا النّابِ هُوَ مِنْ جِنْسِ الشَّرِّ لا جِنْسِ الخَيْرِ، فَجَرى مَجْرى أَنْ تَقولَ: رَجُلٌ جاءَني، تُريدُ أَنَّه رَجُلٌ لَا امْرَأَةٌ./١ وَقَوْلُ العُلَماءِ: إِنَّه إِنَّما يَصْلُحُ لِأَنَّه بِمَعْنى ما أَهَرَّ ذا نابٍ إِلّا شَرٌّ، بَيانٌ لِذلِكَ؛/٢ أَلا تَرى أَنَّكَ لا تَقولُ: ما أَتاني إِلّا رَجُلٌ، إِلّا حَيْثُ يَتَوَهَّمُ السّامِعُ أَنَّه قَدْ أَتَتْكَ امْرَأَةٌ؛/٣ ذاكَ لِأَنَّ الخَبَرَ يَنْقُضُ النَّفْيَ، يَكونُ حَيْثُ يُرادُ أَنْ يُقْصَرَ الفِعْلُ عَلى شَيْءٍ، وَيُنْفى عَمّا عَداهُ./٤ فَإِذا قُلْتَ: ما جاءَني إِلّا زَيْدٌ، كانَ المَعْنى أَنَّكَ قَدْ قَصَرْتَ المَجيءَ عَلى زَيْدٍ، وَنَفَيْتَه عَنْ كُلِّ مَنْ عَداهُ./٥ وَإِنَّما يُتَصَوَّرُ قَصْرُ الفِعْلِ عَلى مَعْلومٍ،/٦ وَمَتى لَمْ يُرَدْ بِالنَّكِرَةِ الجِنْسُ،/٧ لَمْ يَقِفْ مِنْهَا السّامِعُ عَلى مَعْلومٍ، حَتّى تَزْعُمَ أَنّي أَقْصُرُ لَهُ الفِعْلَ عَلَيْهِ، وَأُخْبِرُه أَنَّه كانَ مِنْهُ دونَ غَيْرِه/٨"[1].

[1] الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٤٣- ١٤٤.

نَصُّ الْمُقْتَصِدِ الثَّالِثُ

"اعْلَمْ أَنَّ الْفاعِلَ إذا كانَ لَه مِنَ الاتّصالِ بِالْفِعْلِ ما وَصَفْنا، لَمْ يَكُنْ شُبْهَةٌ في أَنَّ مَرْتَبَتَه أَنْ يَقَعَ بَعْدَه، نَحْوُ ضَرَبَ عَبْدُ اللهِ زَيْدًا./١ وَيَجوزُ تَقْديمُ الْمَفْعولِ عَلَى الْفاعِلِ، نَحْوُ ضَرَبَ زَيْدًا عَبْدُ اللهِ،/٢ وَلَيْسَ بِالْأَصْلِ./٣ وَإِنَّما يكونُ التَّقْديمُ وَالتَّأْخيرُ على قَدْرِ الْعِنايَةِ وَالِاهْتِمامِ؛/٤ وَذلِكَ أَنَّكَ تَقولُ: أَعْطَى الْأَميرَ زَيْدٌ، فَتُقَدِّمُ الْأَميرَ (-وَإِنْ كانَ مَفْعولًا،/٦ وَكانَ زَيْدٌ فاعِلًا-)٧ لِأَجْلِ أَنَّ الْعِنايَةَ بِالْأَميرِ آكَدُ./٥ وَلَوْ قُلْتَ: أَعْطَى زَيْدٌ الْأَميرَ،/٨ كانَ حَسَنًا جَميلًا./٩ فَإِنْ قُلْتَ: أَعْطَى زَيْدًا الْأَميرُ،/١٠ فَقَدَّمْتَ الْمَفْعولَ الَّذي أَصْلُهُ التَّأْخيرُ، مَعَ أَنَّه غَيْرُ مُعْتَنًى بِشَأْنِه،/١١ وَأَخَّرْتَ الْأَميرَ الَّذي اسْتَحَقَّ التَّقْديمَ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا الْعِنايَةُ، وَالْآخَرُ أَنَّه فاعِلٌ-/١٢ لَمْ يَحْسُنْ، لِأَجْلِ أَنَّكَ تُقَدِّمُ الْمَفْعولَ مِنْ غَيْرِ اهْتِمامٍ يوجِبُ ذلِكَ./١٣ وَعلى ذا يورَدُ قَوْلُه[1] (-تَعالى!-)١٥: "إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ"، لِأَنَّ الْعُلَماءَ فاعِلٌ، وَقَدْ قُدِّمَ عَلَيْهِ اسْمُ اللهِ،/١٤ تعالى!/١٦ وَذاكَ أَنَّ اللهَ[2] (-عَزَّ،/١٨ وَجَلَّ!-)١٩ عَلَّمَنا بِهذَا التَّرْتيبِ الْأَدَبَ، كَما عَلَّمَنا كَيْفَ نَحْمَدُه في قَوْلِه: "الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمينَ"، وَكَيْفَ نَدْعوهُ بِقَوْلِه: "وَلِلّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعوهُ بِها"،/١٧ سُبْحانَه،/٢٠ وَتَعالى عَمّا يَقولُ الظّالِمونَ عُلُوًّا كَبيرًا!/٢١ وَقالَ صاحِبُ الْكِتابِ فيما ذَكَرْنا مِنَ التَّقْديمِ وَالتَّأْخيرِ: [كَأَنَّهُمْ[3] يُقَدِّمونَ الَّذي بَيانُه أَهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِشَأْنِهِ[4] أَعْنى، وَإِنْ كانا جَميعًا يُهِمّانِهِمْ وَيَعْنِيانِهِمْ]. يُريدُ أَنَّهُمْ -وَإِنْ كانوا يَقْصِدونَ ذِكْرَ

---

[1] المطبوع "يورِدُ قَوْلَه" بالبناء للمعلوم، والصواب -إن شاء الله!- ما أثبتُّ.

[2] المطبوع "وَإذا كانَ اللهُ" بتركيب الشرط، والصواب -إن شاء الله!- ما أثبتُّ.

[3] سقطت من الكتابين هنا "إِنَّما"، وهي واقعة بطبعة هارون من الكتاب.

[4] هكذا، والذي بطبعة هارون من الكتاب -وسيأتي بالدلائل- "بِبَيانِه".

كُلِّ واحِدٍ مِنَ الْمَفْعولِ وَالْفاعِلِ في قَوْلِكَ: ضَرَبَ الْأَميرَ زَيْدٌ- فَإِنَّهُمْ يُقَدِّمونَ الَّذي هُوَ أَجْزَلُ حَظًّا مِنَ الْعِنايَةِ وَالِاهْتِمامِ، مَفْعولًا كانَ، أَوْ فاعِلًا/٢٢"[١].

[١] الجرجاني، ١٩٨٢م: ١/ ٣٣٠- ٣٣١.

نَصُّ الدَّلَائِلِ الثَّالِثُ

"اعْلَمْ أَنّا لَمْ نَجِدْهُمُ اعْتَمَدوا فيهِ شَيْئًا يَجْري مَجْرَى الْأَصْلِ، غَيْرَ الْعِنايَةِ وَالاهْتِمامِ؛/١ قالَ صاحِبُ الْكِتابِ وَهُوَ يَذْكُرُ الْفاعِلَ وَالْمَفْعولَ: [كَأَنَّهُمْ[1] يُقَدِّمونَ الَّذي بَيانُه أَهَمُّ لَهُمْ، وَهُمْ بِبَيانِه أَعْنى، وَإِنْ كانا جَميعًا يُهِمّانِهِمْ وَيَعْنِيانِهِمْ]،/٢ وَلَمْ يَذْكُرْ مِثالًا./٣ وَقالَ النَّحْوِيّونَ: إِنَّ مَعْنى ذلِكَ أَنَّه قَدْ يَكونُ مِنْ أَغْراضِ النّاسِ في فِعْلٍ ما أَنْ يَقَعَ بِإِنْسانٍ بِعَيْنِه، وَلا يُبالونَ مَنْ أَوْقَعَه، كَمِثْلِ ما يُعْلَمُ مِنْ حالِهِمْ في حالِ الْخارِجِيِّ يَخْرُجُ فَيَعيثُ وَيُفْسِدُ وَيَكْثُرُ بِهِ الْأَذى، أَنَّهُمْ يُريدونَ قَتْلَه، وَلا يُبالونَ مَنْ كانَ الْقَتْلُ مِنْهُ، وَلا يَعْنيهِمْ مِنْهُ شَيْءٌ، فَإِذا قُتِلَ، وَأَرادَ مُريدُ الْإِخْبارَ بِذلِكَ، فَإِنَّه يُقَدِّمُ ذِكْرَ الْخارِجِيِّ، فَيَقولُ: قَتَلَ الْخارِجِيَّ زَيْدٌ، وَلا يَقولُ: قَتَلَ زَيْدٌ الْخارِجِيَّ، لِأَنَّه يَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ لِلنّاسِ في أَنْ يَعْلَموا أَنَّ الْقاتِلَ لَه زَيْدٌ، جَدْوى وَفائِدَةٌ، فَيَعْنيهِمْ ذِكْرُه، وَيُهِمُّهُمْ، وَيَتَّصِلُ بِمَسَرَّتِهِمْ[2]- وَيَعْلَمُ مِنْ حالِهِمْ أَنَّ الَّذي هُمْ مُتَوَقِّعونَ لَه وَمُتَطَلِّعونَ إِلَيْهِ مَتى يَكونُ، وُقوعُ الْقَتْلِ بِالْخارِجِيِّ الْمُفْسِدِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ كُفوا شَرَّه، وَتَخَلَّصوا مِنْهُ./٤ ثُمَّ قالوا: فَإِنْ كانَ رَجُلٌ لَيْسَ لَه بَأْسٌ وَلا يُقَدَّرُ فيهِ أَنَّه يَقْتُلُ، فَقَتَلَ رَجُلًا، وَأَرادَ الْمُخْبِرُ أَنْ يُخْبِرَ بِذلِكَ - فَإِنَّه يُقَدِّمُ ذِكْرَ الْقاتِلِ، فَيَقولُ: قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا؛ ذاكَ لِأَنَّ الَّذي يَعْنيهِ وَيَعْني النّاسَ مِنْ شَأْنِ هذَا الْقَتْلِ، طَرافَتُه وَمَوْضِعُ النُّدْرَةِ[3] فيهِ، وَبُعْدُه -كانَ- مِنَ الظَّنِّ. وَمَعْلومٌ أَنَّه لَمْ يَكُنْ نادِرًا وَبَعيدًا مِنْ حَيْثُ كانَ واقِعًا بِالَّذي وَقَعَ بِهِ، وَلكِنْ مِنْ حَيْثُ كانَ واقِعًا مِنَ الَّذي وَقَعَ

---

[1] سقطت من الكتابين هنا "إِنَّما"، وهي واقعة بطبعة هارون من الكتاب.

[2] المطبوع "فيعنيهم (...) وَيُهِمُّهُم وَيَتَّصل" بالرفع، والصواب -إن شاء الله!- ما أثبتُّ.

[3] راجع ابن منظور: ن، د، ر؛ ففتح نون "نَدْرَة" هو الوارد، لا ضمها.

مِنْهُ!/ه فَهذا جَيِّدٌ بالِغٌ، إِلّا أَنَّ الشَّأْنَ في أَنَّه يَنْبَغي أَنْ يُعْرَفَ في كُلِّ شَيْءٍ قُدِّمَ في مَوْضِعٍ مِنَ الْكَلامِ، مِثْلُ هذَا الْمَعْنى، وَيُفَسَّرَ وَجْهُ الْعِنايَةِ فيهِ هذَا التَّفْسيرَ/٦"[١].

[١] الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٠٧- ١٠٨.

[٥] وفيما يأتي أوازن في تفكير الجرجاني النحوي، بين أسلوبه في ثلاثة نصوص المقتصد، وأسلوبه في ثلاثة نصوص الدلائل- من حيث:

١ تَفْصيلُ الأفكار النحوية (سِياقُها ونِظامُها)، أي إيجادها للكلام عنها، وتَجْزيءُ كُلٍّ منها، وإِتْباعُ بعضِ أجزائها بَعْضًا.

٢ تَمْثيلُ الأفكار النحوية (سِياقُها ونِظامُها)، أي الاستشهاد لها بعباراتٍ اشتملت عليها، طَبيعيَّةً كائنةً في الكلام العربي من قبل التمثيل، أو صِناعيَّةً مخترعةً لهذا التمثيل اختراعًا.

٣ تَوْصيل الأفكار النحوية (سِياقُها ونِظامُها)، أي التَّهَدِّي إلى أدائها، والتعبير عن فصولها وأمثلتها.

إنها وُجوهٌ مُتَداخلةٌ سِياقًا ظاهِرًا ونِظامًا باطِنًا، أو ملامحُ وجهٍ واحدٍ، يصعب الفصل بينها، ولاسيما أنني ممن يرون أن التفكير والتعبير متداخلان تداخلا شديدا، ومترابطان ترابطا وثيقا، بحيث يبدو من التكلف الفصلُ بين ما يُصَنَّفُ في ظواهرِ أحدِهما وما يُصَنَّفُ في ظواهرِ الآخَرِ. ولكن لضرورة البحث اللغوي أحكامًا مثل أحكام ضرورة البحث الطبي التي تفصل بين أجهزة جسمٍ واحدٍ لا تنفصل إلا بموته، ولاسيما أن يَتَوَقَّعَ اللُّغَوِيُّ الوصولَ من البحث عنها مُتَفَاصِلَةً، إلى ما يزيد علمه بها مُتَواصِلَةً- مثلما يصل الطبيب.

والاشتغال بأسلوب توصيل الأفكار النحوية، مُهْمَلٌ من البحث عن تراث النحويين؛ إذ عادة الباحثين أن يَتَعَلَّقوا من نِتاج النحويِّ بنظره في الأفكار النحوية الاصطلاحية تفصيلا وتمثيلا، وربما استطردوا إلى نظره في وجود النحو بكلام غيره حين يشرحه. ولكن لا يخطر لهم أن كلامَ النَّحويِّ هو نفسه مثل كلام غيره، يستقر فيه النحو مثلما يستقر هيكل العظم في صلب الجسم، ويتصل إلى كلمه وجمله وفقره ونصوصه وكتبه، مثلما يتصل إلى أطراف الجسم- يصرفهم عن فهم ذلك أن مجال البحث عنه عندهم، إنما هو النصوص الفنية لا العلمية! وهو

وَهُمْ لا يَسْتَمْسِكُ الآن، بل قد سبق إلى تَبْديِه قديمًا الجرجانيُّ نفسه، باستشهاده مع أبيات الشعر وفقر النثر الفنية، بِفِقَرِ نَثْرٍ عِلْمِيَّةٍ، سبق بها أصحابها "إِلى ضَرْبٍ مِنَ اللَّفْظِ وَالنَّظْمِ، أَعْيا مَنْ بَعْدَهُمْ أَنْ يَطْلُبوا مِثْلَه، أَوْ يَجيئوا بِشَبيهٍ لَه، فَجَعَلوا لا يَزيدونَ عَلى أَنْ يَحْفَظوا تِلْكَ الْفُصولَ عَلى وُجوهِها، وَيُؤَدّوا أَلْفاظَهُمْ فيها عَلى نِظامِها وَكَما هِيَ"[1]، ثم ذكر ثلاث عبارات علمية نحوية لسيبويه، إحداها عبارة التقديم والتأخير المشهورة السابقة الذكر. ومن شاء عثر على كثير مثلها لِلُغويين ومُحَدِّثين وفقهاء ومؤرخين وجغرافيين وأطباء وكيميائيين ....، ...[2].

---

[1] الجرجاني، ١٩٨٤م: ٦٠٤- ٦٠٥.

[2] أبو موسى: ٢٧- ٢٩.

سِيَاقُ أَفْكَارِ النَّصَّيْنِ الْأَوَّلَيْنِ

[٦] وقع نص المُقْتَصِد الأول في أثناء شرح قول أبي علي الفارسي، من باب المُقَدِّمات النحويّة: "الْحَرْفُ ما جاءَ لِمَعْنًى لَيْسَ بِاسْمٍ وَلا فِعْلٍ، نَحْوُ لامِ الْجَرِّ، وَبائِه، وَهَلْ، وَقَدْ، وَثُمَّ، وَسَوْفَ، وَحَتّى، وَأَمّا"[١]- الذي عرض فيه الجرجاني لبيان مخالفة دلالة الحروف على المعاني لدلالة الأسماء، ثم استطرد إلى "انْقِسامات" يُتَكَلَّمُ بها عنها، ثانيها انقسامها إلى الاشتراك والاختصاص، الذي يقع على ثلاثة أوجه، ثالثها "قِسْمٌ يَشْتَرِكُ فيه الِاسْمُ وَالْفِعْلُ"، كانت منه حروف الاستفهام كـ"هَلْ" والهمزة، التي تدخل على الجمل الفعلية والاسمية، ولكنها تلائمها الفعليةُ أكثرَ من الاسمية، لما بينها وبين الأفعال من تلاقٍ دَلالي؛ فإذا تَصَدَّرَتْها اطْمَأَنَّتْ بمكانها، على حين تَتَصَدَّرُ الجملةَ الاسميةَ ذاتَ المبتدأ والخبر الاسمين، اضْطرارًا- حتى إذا كان خبرُها جملةً فعليةً، كُفَّ المُبْتدأُ عن أن يكون مُبْتَدَأً، وهُيِّئَ لفعلٍ مقدَّرٍ قبله، يفسِّره المذكورُ بعده، وإن جاز مع الهمزة (أم باب الاستفهام) وحدها على قبح، أن يَرِدَ مُبْتَدَأً لا يتهيَّأُ ولا يتغيَّرُ- على حين وقع نص الدلائل الأول في أثناء تَبْويبِ باب التَّقْديم والتَّأْخير، الذي عرض فيه الجرجاني لبيان مكانة الباب، ثم استطرد إلى تنويع نوعي التقديم على نية التأخير والتقديم على غير نية التأخير، ثم إلى التنبيه على عبارة سيبويه المشهورة في الترتيب بين الفاعل والمفعول به، وما بذله النحويون في سبيل تحصيلها- ثم إلى التنبيه على أثر وقوف الناس عند حدود ظاهر مثل هذه العبارة، في زهدهم بتأمل خصائص التراكيب، وجوامعها، وفوارقها، ودلالاتها- ثم إلى التنبيه على خطأ تقسيم التقديم والتأخير إلى مفيد وغير مفيد- ثم إلى مسائل

---

[١] الجرجاني، ١٩٨٢م: ١/ ٨٤.

"لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنَ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ تَقْديمِ ما قُدِّمَ فيها وَتَرْكِ تَقْديمِه"[١]، منها الاستفهام بالهمزة. ولقد تنقل في الاستفهام بالهمزة، من الاستفهام بها عن الفعل إلى الاستفهام بها عن الاسم، ومن الاستفهام بها استفهامَ طَلَبٍ إلى الاستفهام بها استفهامَ تَقْريرٍ وإِنْكارٍ وتَوْبيخٍ، ومن الاستفهام بها عن الفاعل إلى الاستفهام بها عن المفعول، ومن الاستفهام بها عن الفعل الماضي إلى الاستفهام بها عن الفعل المضارع، ومن الاستفهام بها والفعلُ كائنٌ إلى الاستفهام بها والفعلُ غيرُ كائنٍ.

نِظَامُ أَفْكَارِ النَّصَّيْنِ الْأَوَّلَيْنِ

[٧] لقد انطلق الجرجانيُّ في المقتصد من عبارةِ أبي علي الموجزة في تعريف الحرف من أقسام الكلم العربية، إلى الكلام عن انقساماتٍ تستوعب مسائله، حتى انتهى إلى انقسام أتاح له أن يتناول طبيعة استعمال حروف الاستفهام الوارد بعضها في عبارة أبي علي. ولكنه انتبه في الدلائل، إلى جدارة ظاهرة التقديم والتأخير بالتبويب لها؛ فذهب يجمع خيوطها لينسج في بُرْدَةٍ واحِدَةٍ من الاستيعاب التام، خصائصَ تراكيبها التي كانت منها تراكيب الاستفهام.

ووقف في المقتصد عند ظاهر تركيب حروف الاستفهام وجملها، منطلقا من الوجه المنطقي الثالث الأخير (قسم يشترك فيه الاسم والفعل)، من أوجه وقوع الانقسام الثاني (انقسامها إلى الاشتراك والاختصاص)، على رغم إيمانه عندئذ بقبح دخولها على الجمل الاسمية ذوات الأخبار الجمل الفعلية، الذي بنى عليه تأويل كل ما يخالفه من ظواهر التراكيب - إلى عمل كأنه تمرين على ضبط علامات الإعراب، وعلى توجيه ذلك الضبط توجيها صناعيا يكبت المخالف! ولكنه بنى عمله في الدلائل على فقه بواطن التراكيب، منطلقا من خصائص

---

[١] الجرجاني، ١٩٨٤م: ١١١.

دلالة اتجاه الاستفهام إلى ما بعد حروفه، فعلا كان أو اسما، أيًّا كان هذان الفعل والاسم، وأيةً كانت تلك الدلالة- إلى عمل كأنه تعبير جديد عن مرادات المُعبِّرين. ونَقَضَ قوله هو نفسه في نص المقتصد الأول: "ذاكَ أَنَّ الِاسْتِفْهامَ واقِعٌ عَلَى الْفِعْلِ فِي التَّقْديرِ وَالْمَعْنى"- بقوله هو نفسه في نص الدلائل الأول: "لا تَكونُ بِدايَةٌ بِالْفِعْلِ كَالْبِدايَةِ بِالِاسْمِ"!

وتناول في المقتصد حَرْفَيِ الِاسْتفهام هَلْ والهمزة مُؤَيَّدَيْنِ ببعض أسماء الاستفهام، دلالةً على تشابههما، ونبه في أثناء ذلك على أثر أمومة الهمزة للباب، في انفرادها ببعض الأوضاع التركيبية[1]. ولكنه اكتفى في الدلائل بحرف الهمزة مُؤَيَّدًا ببعض أسماء الاستفهام كذلك، انصرافا إلى تأمل خصائص تركيب الاستفهام الذي حرفُ الاستفهام عنصرٌ واحد من عناصره، فَثَبَّتَه، وغَيَّرَ ما سواه، رِضًا عن قوله في المقتصد بأمومتها للباب التي طَمْأَنَتْهُ على كفاية أمثلتها كِفايةً لا تتيسر لغيرها.

ولا يخفى أن اقتصاره في الكتابين على حرف الاستفهام، إنما كان عن وَعْيٍ واحد قديم مستمر، لكونه طارئا على جُمْلته، لا يشغل هو نفسه منها موقعا تَأْسيسيًّا (مبتدأ، أو خبرا، أو ما إليهما)، ولا موقعا تَكْميليًّا (مفعولا، أو ظرفا، أو ما إليهما)- كاللذين يشغلهما اسم الاستفهام؛ فتَخْلُصُ الجُمْلةُ بعد الحرف لأوضاعها الاستفهامية الخاصة الملائمة، التي أراد في المقتصد ضبط إعرابها، ويريد في الدلائل تمييز المراد بها.

---

[1] ساوى الهمزةَ بهَلْ في قوله: "(...) هذا حُكْمُ هَلْ"، ثم مَيَّزَها منها في قوله: "الْفَرْقُ بَيْنَ هَلْ وَالْهَمْزَةِ (...)"، تمييزًا خَطَرَ له فَجْأَةً، فعَبَّرَ عنه فَجْأَةً!

سِيَاقُ أَفْكَارِ النَّصَّيْنِ الثَّانِيَيْنِ

[٨] ثم وقع نص المُقْتَصِد الثاني في أثناء شرح قول أبي علي الفارسي من باب الخبر: "قَدْ يَجُوزُ أَنْ تُقَدِّمَ خَبَرَ الْمُبْتَدَأِ، فَتَقولَ: مُنْطَلِقٌ زَيْدٌ، وَضَرَبْته عَمْرٌو، وَتُرِيدَ عَمْرٌو ضَرَبْته. وَيَدُلُّ عَلَى جَوازِ تَقْدِيمِه قَوْلُ الشَّمَّاخِ:

كِلَا يَوْمَيْ طُوَالَةَ وَصْلُ أَرْوَى ظَنُونٌ آنَ مُطَّرَحُ الظُّنُونِ"[١].

الذي عرض فيه الجرجاني لبيان جواز تقدم الخبر على المبتدأ ووجه الاستشهاد على ذلك ببيت الشماخ، ثم استطرد إلى تفصيل أحد انقسامات الكلام عن المبتدأ والخبر (التعريف والتنكير)، إلى ثلاثة أَضْرُبٍ (المعرفة والنكرة، ثم المعرفتين، ثم النكرتين)- على حين وقع نص الدلائل الثاني في أثناء تبويب باب التَّقْدِيم والتَّأْخير نفسه، الذي عرض فيه الجرجاني لبيان النكرة إذا قُدِّمَتْ في الاستفهام على الفعل مُرادًا بها الجنس، ثم استطرد إليها في الخبر (غير الاستفهام).

نِظَامُ أَفْكَارِ النَّصَّيْنِ الثَّانِيَيْنِ

[٩] لقد خرج الجرجاني في المقتصد عن سياق تقديم الخبر على المبتدأ، إلى أضرب وقوع التعريف والتنكير فيهما، من حيث كان هذا في رأيه مقدمة الكلام عن تقديم الخبر على المبتدأ، وإن لم يتجاوز بعدئذ الحديث عن مظهر تقديم الخبر على المبتدأ وجوبًا، إذا كان المبتدأ نكرة لا مسوغ لوقوعها مبتدأ. ولكنه وَطَّنَ نَفْسَه في الدلائل من أول تبويب باب

---

[١] الجرجاني، ١٩٨٢م: ١/ ٣٠٢. وطُوَالَة اسم موضع أو بئر، وأَرْوَى اسم امرأة، وظَنُون مظنون غير مقطوع به، ومُطَّرَح مصدر ميمي بمعنى الاطراح الشديد. والشاهد تقدم "كِلَا" الظرف المتعلق بالخبر "ظَنُون"، على المبتدأ "وَصْل"، والنحاة على أن تقديم المعمول يدل على جواز تقديم العامل فيه.

التقديم والتأخير، على أن يتكلم عن الجمل المؤسسة من أصلها على تقديم الاسم فيها على الفعل، بتنويع التقديم على نوعين:

١ تقديم على نية التأخير، منه: مُنْطَلِقٌ زَيْدٌ.

٢ تقديم على غير نية التأخير، منه: زَيْدٌ ضَرَبْتُه.

فأما النوع الأول فلا اختلاف في كونه من التقديم، وأما النوع الآخر فهو الاعتبار الجديد الذي ربما استفاد فيه الجرجاني من قول بعض النحويين بفاعلية زيد وتقدمه في مثل زَيْدٌ ضَرَبَه، وإن لم يقولوا بذلك في مثل زَيْدٌ ضَرَبْتُه، الذي تَعَمَّدَ الجرجاني صياغته لتظهر دلالته على مراده من هذا النوع الآخر المهمل من المظاهر المتناثرة في كتب النحويين، لظاهرة التقديم والتأخير: "أَظْهَرُ مِنْ هذا قَوْلُنا: ضَرَبْتُ زَيْدًا، وَزَيْدٌ ضَرَبْتُه؛ لَمْ تُقَدِّمْ زَيْدًا عَلَى أَنْ يَكونَ مَفْعولًا مَنْصوبًا بِالْفِعْلِ كَما كانَ، وَلٰكِنْ عَلَى أَنْ تَرْفَعَه بِالِابْتِداءِ، وَتَشْغَلَ الْفِعْلَ بِضَميرِه، وَتَجْعَلَه في مَوْضِعِ خَبَرٍ لَه"[١].

لم يصرفه في الدلائل عما بين "زَيْدٌ ضَرَبْتُه"، و"ضَرَبْتُ زَيْدًا"، من تقديم وتأخير- أن "زيدٌ" مبتدأ متمكن في مكانه على أصله، و"زَيْدًا" مفعول به متمكن في مكانه على أصله؛ "وَما جاءَ عَلَى أَصْلِه لا يُسْأَلُ عَنْ عِلَّتِه"، كما تقول قاعدة التوجيه النحوية القديمة المشهورة. لا، بل تَعَلَّقَ به، يُميِّزُ الأوضاع التركيبية الأَوَّلِيَّة في اللغة العربية، من غيرها في سائر اللغات[٢]، ويَسْخَرُ من المُتَوَقِّفين في ذوق خصائص تراكيب التقديم والتأخير، عند النوع الأول (تقديم على نية التأخير)، الذين يضيعون على أنفسهم تراثا جليلا من أصول التعبير العربية الخاصة[٣]. ولم يكن

---

[١] الجرجاني، ١٩٨٤م: ١٠٧.

[٢] ظهر بترجمة الجرجاني عن الفارسية -الجرجاني، ١٤١٢هـ: ٢٧٨- علمه بها، وربما عرف غيرها.

[٣] ما زال في بعض أساتذتنا ذلك التَّوَقُّف؛ فلقد حاول الدكتور فاضل صالح السامرائي بكتابه "معاني النحو"، أن يُنزِّل مسائل علم المعاني على مسائل علم النحو، بل رتبها على أبواب النحو الألفية الدارجة، فدَعَوْتُ إلى

هو نفسه غير واحد منهم، باشتغاله في المقتصد بتسويغ وقوع النكرة المتضمنة معنى النفي مبتدأ، فيما خبره جملة فعلية، وكأنما أشار إليه في الدلائل ليكمل نقصه بما فُرِقَ له فيه من بيان قَصْد الجِنْسِ!

وأَعْجَبُ ما هنُا أن أصل فَهْمَيْهِ القديم والحديث كليهما، قَوْلُ سيبويه: "أَمّا قَوْلُهُ: شَيْءٌ ما جاءَ بِكَ، فَإِنَّه يَحْسُنُ -وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلى فِعْلٍ مُضْمَرٍ- لِأَنَّ فيهِ مَعْنى ما جاءَ بِكَ إِلّا شَيْءٌ. وَمِثْلُه مَثَلُ الْعَرَبِ: شَرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ"[1]، أَكْمَلَ في الدلائل فَهْمَه كُلَّه، وكان في المقتصد ناقصًا؛ فقد كان ظن أن مسوغ وقوع هذه النكرة مبتدأ، أن تركيبها هذا مُثْبَتٌ بمَعْنى مَنْفِيٍّ، ووقوعها في سياق النفي مسوغ مشهور- غافلا عن قصد الجنس الذي أحسن في الدلائل التأتي إلى فهمه، وعن معنى التقديم والتأخير الذي انتبه إليه في الدلائل بتنبيه سيبويه على افتقاد الفعل المضمر.

كتابه، وما زلتُ، بل زرتُه بدولة الإمارات سنة ألفين الميلادية، وكان أستاذا بجامعة الشارقة -وقد أحسن ضيافتي- أدعوه إلى الاكتفاء في تدريس مسائل علم النحو، بما يشفّ عن تلك المعاني الجرجانية العالية، التي نَزَّلها هو في "معاني النحو"، وكأنه يغري النحويين وهو نحوي- فأبى الدعوة، واستنكر الدعوى، واستشكل بتفاصيل علم النحو المقررة الكثيرة؛ إذ لا يشف كثير منها عن شيء، وهي لا يمكن إهمالها! وذكر طبيعة الجملة العربية مثلا، ما الذي فيها من المعاني العالية؟ فزَيَّفْتُ له اعتراضه بإمكان أن تشف تلك الطبيعة، عن معنى خصائص اللغة العربية المتميزة من سائر اللغات، والتفكير العربي المتميز من سائر التَّفَاكير، وهو من طريقة ما صنعه الجرجاني هنا!

[1] سيبويه: ١/ ٣٢٩.

سِيَاقُ أَفْكَارِ النَّصَّيْنِ الثَّالِثَيْنِ

[١٠] ثم وقع نص المُقْتَصِد الثالث في أثناء شرح قول أبي علي الفارسي من باب الفاعل: "مَرْتَبَةُ الْفَاعِلِ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَى الْمَفْعولِ بِه، نَحْوُ ضَرَبَ عَبْدُ اللهِ زَيْدًا. وَيَجوزُ أَنْ يَتَقَدَّمَ الْمَفْعولُ عَلَى الْفاعِلِ، كَقَوْلِنا: ضَرَبَ زَيْدًا عَبْدُ اللهِ. وَفِي التَّنْزِيل "إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَمَاءُ""[١]- الذي عرض فيه الجرجاني لبيان أثر العناية والاهتمام في تحريك مرتبة الفاعل على رغم وثاقة علاقته بفعله، ثم استطرد إلى أثر أسلوب القرآن الكريم في فقه توجيه العناية والاهتمام، ثم إلى شرح عبارة سيبويه المشهورة في الترتيب بين الفاعل والمفعول به- على حين وقع نص الدلائل الثالث في أثناء تبويب باب التقديم والتأخير نفسه، الذي عرض فيه الجرجاني لبيان مكانة الباب، ثم استطرد إلى تنويع نوعي التقديم على نية التأخير والتقديم على غير نية التأخير، ثم إلى التنبيه على عبارة سيبويه السابقة المشهورة، وما بذله النحويون في سبيل تحصيلها.

نِظَامُ أَفْكَارِ النَّصَّيْنِ الثَّالِثَيْنِ

[١١] لقد انطلق الجرجاني في نَصَّيِ المقتصد والدلائل كليهما، من عبارة سيبويه، ولكنه آثر في المقتصد أن ينتهي إليها، على حين آثر في الدلائل أن يبدأ منها؛ فلم يكن يستطيع في المقتصد وهو شرح إيضاح أبي علي الفارسي، إلا أن يبدأ من عبارته فيه، على حين لم يمنعه في الدلائل مانع من التعبير بالبدء من عبارة سيبويه، عن أمومتها لباب التقديم والتأخير كله، وإن كانت فيما بين الفاعل والمفعول به. وبقي في الكتابين على إحساسه بحاجة العبارة إلى التمثيل؛ فقد شفعها في المقتصد بمثال يشرحها به، وشفعها في الدلائل باتهام سيبويه بأنه لم

[١] الجرجاني، ١٩٨٢م: ١/ ٣٣٠.

يذكر مثالا، على رغم أن مثاله "ضَرَبَ زَيْدًا عَبْدُ اللهِ"، مذكور واضح: "إِنْ قَدَّمْتَ الْمَفْعولَ وَأَخَّرْتَ الْفاعِلَ، جَرَى اللَّفْظُ كَما جَرى فِي الْأَوَّلِ؛ وَذلِكَ قَوْلُكَ: ضَرَبَ زَيْدًا عَبْدُ اللهِ، لِأَنَّكَ إِنَّما أَرَدْتَ بِهِ مُؤَخَّرًا ما أَرَدْتَ بِهِ مُقَدَّمًا، وَلَمْ تُرِدْ أَنْ تَشْغَلَ الْفِعْلَ بِأَوَّلَ مِنْهُ -وَإِنْ كانَ مُؤَخَّرًا فِي اللَّفْظِ- فَمِنْ ثَمَّ كانَ حَدُّ اللَّفْظِ أَنْ يَكونَ فيهِ مُقَدَّمًا، وَهُوَ عَرَبِيٌّ جَيِّدٌ، كَأَنَّهُمْ إِنَّما يُقَدِّمونَ الَّذي بَيانُهُ أَهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيانِهِ أَعْنى، وَإِنْ كانا جَميعًا يُهِمّانِهِمْ وَيَعْنِيانِهِمْ"[1]. ولكنه كأنه لما لم يجده شرح وجه الاهتمام فيه لـ"زَيْدًا" والعناية به كما شرح هو فيما بعد، جعله كأنه لم يذكره أصلًا، تنبيها على ما ينبغي أن يكون!

والمراد بـ" غَيْرِ سيبويهِ"، واضِحٌ في نص المقتصد؛ فكلامه مُحاطٌ من أوله بعبارة الفارسي، ومن آخره بعبارة سيبويه، وبينهما يورد أمثلة الفارسي وأشباهها، ويعلق عليها بمقتضى عبارة سيبويه. ولكنَّ المراد بـ"غَيْرِ سيبويه"، غامِضٌ في نص الدلائل؛ فالكلام كله منسوب إلى عموم النَّحْوِيّينَ من غير اعتراض عليه، بل يعلق عليه دعوته إلى سلوك مسلكه أبدا، في كل موضع من مواضع التقديم والتأخير؛ وكأنه إنما أراد نفسه، وسَتَرَها بِسِتْرِ النَّحْوِيّينَ المجهولين الذين لم أَعْثُرْ لهم على أثر، ليخفف من وَطْأَة تعبيره بين يَدَيْ عبارة سيبويه عن قصورها، ومن خَلْفِها عن افتقادها الأمثلة، ولاسيما أن هذه المَسْرَحَة (تَحْريك الأمثلة في مَقامات مُلائِمَةٍ ظاهِرًا وباطِنًا)، التي مَسْرَحَ بها أمثلة نص الدلائل- مَخْتومَةٌ بخاتَمِه، لم نعرفها إلا له!

لقد كانت عبارة سيبويه أحكم صيغة وأبعد غورا من عبارة أبي علي الفارسي الذي ملأ عليه أَقْطارَ نَفْسِهِ قبل رُبْعِ قَرْنٍ، فلم يطمح في المقتصد إلى أكثر من أن يوازيها، فوَجَّهَ بين يديها أمثلته على وفق مقتضاها. ثم لم تبق كذلك عنده عبارة سيبويه، بعد رُبْعِ قَرْنٍ من التَّعَلُّمِ والتَّعْليم اللَّذَيْنِ ابنى بهما بُنْيانُ عِلْمٍ جديد سامق شامخ، لا تَنْفُذُ في طَوابقه العباراتُ، إلا

[1] سيبويه: ١/ ٣٤.

بنقدها وتصنيفها وترتيبها، من غير تَعَصُّب إِفْراط يُكَبِّر صغائرها، ولا تَعَصُّب تَفْريط يُصَغِّر كبائرها؛ فقد وقف النحويون بظاهر عبارة سيبويه عند الفاعل والمفعول، وبباطنِها عند الأَهَمِّيَّة والعِناية، فتجاوزهما الجرجاني إلى أغوار أبعد منهما[1].

الْأَفْكَارُ النَّحْوِيَّةُ بَيْنَ الِاحْتِبَاسِ وَالِانْطِلَاقِ

[١٢] كيف لمثل هذا الوَعْيِ الكُلِّيِّ المستولي على نصوص الدلائل، أن يتيسر في نصوص المقتصد لأَسيرِ متن كلام غيره -مهما يكن كلامه فذا باهرا!- لا يكاد ينظر إلى خارج سور العبارة التي يشرحها!

أَمْ كيف والمتن الذي يشرحه المقتصد، تَعْليميٌّ صَغيرٌ، لم يَزَلْ عَجيبًا أن يَتَعاهَدَه الجرجاني بتلك الشروح الثلاثة المذكورة من قبل في الفقرة الثانية[2]!

إنه لا يستحيل أن تَتَواثب في عقل الشارح الأفكارُ الطامحة إلى خارج السور، ولكنها ستظل تَتَواثب في مكانها، لِتَتساقط دَواليْك، حتى إذا تَهَدَّمَ السورُ انْطَلَقَتْ!

---

[1] أبو موسى: ٢٩- ٣٠.

[2] الجرجاني، ١٩٨٢م: ٣٥، من مقدمة المحقق.

تَمْثِيلُ الْأَفْكَارِ النَّحْوِيَّةِ

سِيَاقُ أَمْثِلَةِ النَّصَّيْنِ الْأَوَّلَيْنِ

[١٣] مَثَّلَ الجرجانيُّ أفكارَه في نص المقتصد الأول، بالاثنين والعشرين مثالا صناعيا، الآتية بترتيبه:

١ هَلْ زَيْدٌ خارِجٌ؟
٢ هَلْ خَرَجَ زَيْدٌ؟
٣ أَزَيْدٌ خارِجٌ؟
٤ أَخَرَجَ عَمْرٌو؟
٥ زَيْدٌ ضَرَبْتَه.
٦ أَزَيْدٌ ضَرَبْتَه؟
٧ زَيْدًا ضَرَبْتَه.
٨ ضَرَبْتَ زَيْدًا ضَرَبْتَه.
٩ أَزَيْدًا ضَرَبْتَه؟
١٠ أَضَرَبْتَ زَيْدًا؟
١١ أَزَيْدًا ضَرَبْتَه؟
١٢ أَزَيْدٌ ضَرَبْتَه؟
١٣ أَزَيْدًا ضَرَبْتَه؟
١٤ أَزَيْدٌ أَخوكَ؟
١٥ هَلْ زَيْدٌ أَخوكَ؟
١٦ هَلْ زَيْدًا ضَرَبْتَه؟
١٧ هَلْ زَيْدٌ ضَرَبْتَه؟
١٨ أَزَيْدٌ ضَرَبْتَه؟
١٩ كَيْفَ زَيْدٌ ضَرَبْتَه؟
٢٠ هَلْ زَيْدٌ خَرَجَ؟
٢١ هَلْ خَرَجَ زَيْدٌ خَرَجَ؟
٢٢ هَلْ زَيْدًا ضَرَبْتَه؟

ومَثَّلَ أفكاره في نص الدلائل الأول، بالاثنين والعشرين مثالا صناعيا، الآتية بترتيبه:

١ أَفعلْتَ؟
٢ أَأَنْتَ فَعلْتَ؟
٣ أَبَنَيْتَ الدّارَ الَّتي كُنْتَ عَلَى أَنْ تَبْنِيَها؟
٤ أَقُلْتَ الشِّعْرَ الَّذي كانَ في نَفْسِكَ أَنْ تَقولَه؟
٥ أَفَرَغْتَ مِنَ الْكِتابِ الَّذي كُنْتَ تَكْتُبُه؟
٦ أَأَنْتَ بَنَيْتَ هذِه الدّارَ؟
٧ أَأَنْتَ قُلْتَ هذَا الشِّعْرَ؟
٨ أَأَنْتَ كَتَبْتَ هذَا الْكِتابَ؟

٩ أَأَنْتَ بَنَيْتَ الدّارَ الَّتي كُنْتَ عَلى أَنْ تَبْنِيَها؟	١٠ أَأَنْتَ قُلْتَ الشِّعْرَ الَّذي كانَ في نَفْسِكَ أَنْ تَقولَه؟
١١ أَأَنْتَ فَرَغْتَ مِنَ الْكِتابِ الَّذي كُنْتَ تَكْتُبُه؟	١٢ أَبَنَيْتَ هذِهِ الدّارَ؟
١٣ أَقُلْتَ هذَا الشِّعْرَ؟	١٤ أَكَتَبْتَ هذَا الْكِتابَ؟
١٥ أَقُلْتَ شِعْرًا قَطُّ؟	١٦ أَرَأَيْتَ الْيَوْمَ إِنْسانًا؟
١٧ أَأَنْتَ قُلْتَ شِعْرًا قَطُّ؟	١٨ أَأَنْتَ رَأَيْتَ إِنْسانًا؟
١٩ مَنْ قالَ هذَا الشِّعْرَ؟	٢٠ مَنْ بَنى هذِهِ الدّارَ؟
٢١ مَنْ أَتاكَ الْيَوْمَ؟	٢٢ مَنْ أَذِنَ لَكَ فِي الَّذي فَعَلْتَ؟

على خمسة الأوجه الآتية بترتيبه:

١ تَصْويبٌ، عليه أربعة عشر مُقْتَصِديًّا (١- ٤، ٩- ١١، ١٣- ١٦، ١٨، ٢٠، ٢٢)، وثماني دَلائِلِيّات (٣- ٨، ١٥، ١٦) - مَثَّل بها ما رأى أنه صَوابٌ واجب الالْتِزام في التَّواصُل اللغوي؛ ففي هذا المُقْتَصِدِيّ "هَلْ خَرَجَ زَيْدٌ؟" تَصَدَّرَ حرف الاستفهام جملة فعلية فَوَلِيَه فعلُها، وفي هذا الدلائلي "أَبَنَيْتَ الدّارَ الَّتي كُنْتَ عَلى أَنْ تَبْنِيَها؟" وَلِيَ حرفَ الاستفهام الفعلُ المشكوكُ فيه.

٢ تَمْهيدٌ، عليه مُقْتَصِديّان اثنان (٥، ٧)، مَثَّلَ بهما ما رأى أنه الوَضْع اللغوي التَّواصُلِيّ السابق الذي غُيِّرَ لاحقا إلى المثال المراد؛ ففي هذا "زَيْدٌ ضَرَبْتَه" جملة سيَتَصَدَّرها حرفُ الاستفهام فيما بعد- ودَلائِلِيّان اثنان (١، ٢)، مَثَّلَ بهما ما رأى أنه الإطار اللغوي التَّواصُلِيّ العام الذي سيجول فيه المثال المراد؛ ففي هذا "أَفَعَلْتَ؟" قالب أَوَّلِيٌّ ساذج سيمتلئ فيما بعد.

٣ تَخْطِيءٌ، عليه ثلاث مُقْتَصِدِيّات (٦، ١٢، ١٧)، وثماني دَلائِلِيّات (٩- ١٤، ١٧، ١٨)- مَثَّلَ بها ما رأى أنه خَطَأٌ واجب التَّجَنُّبِ في التَّواصُل اللغوي؛ ففي هذا المقتصدي "هَلْ زَيْدٌ ضَرَبْتَه؟" ارْتَفَعَ الاسمُ بعد هَلْ مُبْتَدَأً وخَبَرُه جملةٌ فعلية، وفي هذا الدلائلي "أَأَنْتَ بَنَيْتَ الدّارَ الَّتي كُنْتَ عَلى أَنْ تَبْنِيَها؟" ولي الاسمُ همزة الاستفهام على رغم أنه لم يفعل شيئا يشك به فيه.

٤ تَأْيِيدٌ، عليه مُقْتَصِدِيّ واحد (١٩)، مَثَّلَ به من خارج سياقات هَلْ والهمزة ما رأى أنه خَطَأٌ مُشابِهٌ واجبُ التَّجَنُّبِ في التَّواصُل اللغوي؛ ففيه "كَيْفَ زَيْدٌ ضَرَبْتَه؟" ارْتَفَعَ الاسمُ مُبْتَدَأً وخَبَرُه جملةٌ فعلية بعد كيف اسمِ الاستفهام- وأربع دلائليات (١٩- ٢٢)، مَثَّلَ بها من خارج سياقات الهمزة ما رأى أنه صَوابٌ مُشابِهٌ واجبُ الالْتِزام في التَّواصُل اللغوي؛ ففي هذا "مَنْ قالَ هذَا الشِّعْرَ؟" اسْتُفْهِمَ عن فاعل فعلٍ واقعٍ بمَن اسمِ الاستفهام عن العاقل.

٥ تَخْيِيلٌ، عليه مُقْتَصِدِيّان (٨، ٢١)، مَثَّلَ بهما ما رأى أنه الوَضْع اللغوي العقلي غير التَّواصُلِيّ الذي ينبني عليه المثال المراد؛ ففي هذا "ضَرَبْتَ زَيْدًا ضَرَبْتَه" ظَهَرَ الفعلُ المحذوف المُفَسَّرُ مع مُفَسِّرِه- وليس عليه مِنْ دَلائِلِيٍّ.

نِظامُ أَمْثِلَةِ النَّصَّيْنِ الْأَوَّلَيْنِ

[١٤] لا يخفى رضا الجرجاني في نص الدلائل الأول، عن منهج صناعة الأمثلة الذي انتهجه في نص المقتصد الأول -وإن وَلَّدَها في الدلائل ببيانه، بعد ما أَثَرَها في المقتصد عن النحويين- ولا عن أَوْجُهِ تَمْثِيلِها، إلا وَجْهًا واحدًا -وإن جعلها أَوْجُهًا تَرْكِيبِيَّةً دَلالِيَّةً، بعد ما كانت أَوْجُهًا عَلامِيَّةً إِعْرابِيَّةً- ولا عن تَرْتِيبِ أمثلة الأَوْجُهِ، وإن قَدَّمَ فيها أمثلة التَّمْهيد على

أمثلة التَّصْويب، بعد ما كان أَخَّرَها عنه- رِضًا ربما لم يَعِه، يدلُّ على أن هذا الشيخ الهَرِمَ، من ذلك الرجل الجَلِيدِ، لا يستطيع أن يخلع عن نفسه تراثَها، لأنه الدم الذي يتدفق في شرايينها!

أما الوجه الواحد الذي أعرض عنه في الدلائل (التَّخْييل)، فقد استقلَّتْ به من قديمٍ صنعةُ الإعراب عن وجه الصواب، تُرَتِّبُ به أوضاعا تركيبية لا وجود لها، ولكنها دون غيرها هي السبيل إلى توجيه الإعراب المختار. وأما أمثلة التمهيد المتقدمة في الدلائل على أمثلة التصويب، بعدما كانت متأخرة عنه في المقتصد- فقد كان التمثيل بها في المقتصد من خارج سياقات الاستفهام للإقناع بماهية صوابها، فصار في الدلائل من داخلها لتَجْريد صوابها؛ ومن ثم تقدمت في الدلائل، من بعد أن تأخرت في المقتصد.

وزاد الجرجاني في المقتصد على أَثْرِه أمثلتَه عن النحويين، تكرارَها تكرارا صاخبا؛ فما المثالان الثاني عشر والثامن عشر إلا المثال السادس، ولا المثالان الحادي عشر والثالث عشر إلا المثال التاسع، ولا المثال الثاني والعشرون إلا المثال السادس عشر! ولكنه زاد في الدلائل على تَوْليده أمثلته ببيانه، تَغْييرَها الذي يميز بعضها من بعض تمييزا كاملا.

سِيَاقُ أَمْثِلَةِ النَّصَّيْنِ الثَّانِيَيْنِ

[١٥] ومَثَّلَ الجرجانيُّ أفكارَه في نص المقتصد الثاني، بخمسة الأمثلة الصناعية والمثال الطَّبيعيّ، الآتية بترتيبه:

١	رَجُلٌ مِنْ قَبِيلَةِ كَذا عالِمٌ.	٢	رَجُلٌ مِنْ آلِ فُلانٍ فارِسٌ.
٣	رَجُلٌ ذاهِبٌ.	٤	رَجُلٌ ذاهِبٌ مِنْ داري أَوْ ذَهَبَ مِنْ داري.
٥	شَرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ.	٦	ما أَهَرَّ ذا نابٍ إِلّا شَرٌّ.

ومَثَّلَ أفكاره في نص الدلائل الثاني، بالمثال الطبيعيّ وأربعة الأمثلة الصناعية، الآتية بترتيبه:

١ شَرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ. ٢ رَجُلٌ جاءَني.

٣ ما أَهَرَّ ذا نابٍ إِلّا شَرٌّ. ٤ ما أَتاني إِلّا رَجُلٌ.

٥ ما جاءَني إِلّا زَيْدٌ.

على ثلاثة الأوجه الآتية بترتيبه:

١ تَصْويبٌ، عليه أربع مُقْتَصِديّات (١، ٢، ٤، ٥)، ودَلائِليّان اثنان (١، ٢)- مَثَّلَ بها ما رأى أنه صَوابٌ واجب الالْتِزام في التَّواصُل اللغوي؛ ففي هذا المقتصدي "رَجُلٌ مِنْ قَبيلَةِ كَذا عالِمٌ" تَخَصَّصَت النكرة فوَقَعَتْ مبتدأ، وفي هذا الدلائلي "رَجُلٌ جاءَني" قُصِدَ بالنكرة الجِنْسُ؛ فجاز وقوعها مبتدأ.

٢ تَخْطيءٌ، عليه مُقْتَصِديٌّ واحد (٣)، مَثَّلَ به ما رأى أنه خَطَأٌ واجب التَّجَنُّبِ في التَّواصُل اللغوي؛ ففيه "رَجُلٌ ذاهِبٌ" المبتدأ نكرة لا فائدة منها- وليس عليه مِنْ دَلائِليّ.

٣ تَأْويلٌ، عليه مُقْتَصِديٌّ واحد (٦)، وثلاث دَلائِليّات (٣ - ٥)- مَثَّلَ بها ما رأى أنه المعنى التَّواصُلي للمثال المراد؛ ففي هذا المقتصدي الدلائلي "ما أَهَرَّ ذا نابٍ إِلّا شَرٌّ" تأويل قولهم "شَرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ" بما يسوغ وقوع النكرة فيه مبتدأ.

نِظامُ أَمْثِلَةِ النَّصَّيْنِ الثّانِيَيْنِ

[١٦] لا يخفى قرب ما بين نصي المقتصد والدلائل الثانِيَيْن في منهج صناعة الأمثلة؛ فقد كاد العددان يتطابقان، ثم المثال الطبيعي الوحيد فيهما واحد. ولكن الجرجاني الذي انتهى إلى هذا المثال الطبيعي في المقتصد، بدأ به في الدلائل؛ إذ كان بالمقتصد في حديث تنكير المبتدأ والخبر الذي أوصله إلى نمط منه خاص جدا (نكرة / جملة فعلية) -والجملة عند

النحويين نكرة مستفادة- فصار بالدلائل إلى حديث ما في تنكير المبتدأ والخبرُ جملةٌ فعليةٌ، من تقديم وتأخير، فكان هذا المثال الطبيعي غَنيمتَه الباردة التي وُفِّقَ إلى بناء هذا النص كله عليها.

وربما أحس في المقتصد بتسويغ قصد الجنسية لوقوع النكرة مبتدأ في المثال الرابع، ولكنه لم يحسن التعبير عما أحس، فهرب إلى المثال الخامس الطبيعي (المَثَل الحِواريّ) -ولم ينبه في الدلائل على مَثَليّته، ليتأكد اعتماده فيه على ما ذكره في المقتصد من قبل، وكان في موقف الكلام عن نفسه- ليشغل المتلقين في المقتصد بطرافة مَثَليّته، عن دقة بيانه. فأما في الدلائل فاستحضر ذلك الفهم منسوبا إلى "العلماء"، أي النحويين، لا يريد غير نفسه وما ذكره في المقتصد، فيؤكد الفهم القديم، ويضيف إليه حسن البيان عنه، ويخفي الخصوص في العموم!

سِيَاقُ أَمْثِلَةِ النَّصَّيْنِ الثَّالِثَيْنِ

[١٧] ومَثَّلَ الجرجانيُّ أفكارَه في نص المقتصد الثالث، بستة الأمثلة الصناعية والثلاثة الطَّبيعيّة، الآتية بترتيبه:

١ ضَرَبَ عَبْدُ اللّهِ زَيْدًا. ٢ ضَرَبَ زَيْدًا عَبْدُ اللّهِ.

٣ أَعْطَى الْأَمِيرَ زَيْدٌ. ٤ أَعْطَى زَيْدٌ الْأَمِيرَ.

٥ أَعْطَى زَيْدًا الْأَمِيرُ. ٦ "إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ".

٧ "الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ". ٨ "وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا".

٩ ضَرَبَ الْأَمِيرَ زَيْدٌ.

ومَثَّلَ أفكاره في نص الدلائل الثالث، بثلاثة الأمثلة الصناعية الآتية، بترتيبه:

١ قَتَلَ الْخَارِجِيَّ زَيْدٌ. ٢ قَتَلَ زَيْدٌ الْخَارِجِيَّ.

٣ قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا.

على ثلاثة الأوجه الآتية بترتيبه:

١ تَحْسينٌ، عليه ست مُقْتَصِديّات (١ - ٤، ٦، ٩)، مَثَّلَ بها ما رأى أنه يُحَسِّنُ التَّواصُل اللغوي؛ ففي هذا "أَعْطَى الْأَميرَ زَيْدٌ" تَقَدَّمَ المفعولُ به لأهميته وتأخر الفاعل- ودَلائِلِيّان اثنان (١، ٣)، مَثَّلَ بهما ما رأى أنه مُسْتَحْسَنٌ في التَّواصُل اللغوي؛ ففي هذا "قَتَلَ الْخارِجيَّ زَيْدٌ" تَقَدَّمَ المفعول به لمعانٍ كثيرة وتَأَخَّرَ الفاعل.

٢ تَقْبيحٌ، عليه مُقْتَصِديٌّ واحد (٥)، مَثَّلَ به ما رأى أنه يُقَبِّحُ التَّواصُل اللغوي؛ ففيه أَعْطى زَيْدًا الْأَميرُ" تَقَدَّمَ المفعولُ به غير المهم على الفاعل المهم- ودَلائِلِيٌّ واحد (٢)، مَثَّلَ به ما رأى أنه مُسْتَقْبَحٌ في التَّواصُل اللغوي؛ ففيه "قَتَلَ زَيْدٌ الْخارِجيَّ" تَقَدَّمَ الفاعلُ وتَأَخَّرَ المفعولُ به المتعلقةُ به معانٍ كثيرة.

٣ تَثْقيفٌ، عليه مُقْتَصِديّانِ اثنان (٧، ٨)، مَثَّلَ بهما من خارج السياق ما رأى أنه يُثَقِّفُ التَّواصُل اللغوي؛ ففي هذا "الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمينَ" تركيبٌ خاصٌّ مأخوذ من القرآن الكريم- وليس عليه من دَلائِلِيٍّ.

نِظامُ أَمْثِلَةِ النَّصَّيْنِ الثّالِثَيْنِ

[١٨] ولا يخفى رضا الجرجاني في نص الدلائل الثالث، عن أَوْجُهِ تَمْثيلِ أمثلته في نص المقتصد الثالث، إلا وَجْهًا واحدًا كذلك -وإن جعلها أَوْجُهًا مَقاميَّةً خاصَّةً جِدًّا، بعدما كانت أَوْجُهًا مَقاميَّةً عامَّةً جِدًا- ولا عن تَرْتيبِ أَوْجُهِ تَمْثيلِها- رضًا يحفظ على الشيخ الهَرِمِ تُراثَ الرجل الجَليدِ!

أما الوجه الواحد الذي أعرض عنه في الدلائل (التَّثْقيف)، فلا يخلو من دلالة على تَطَلُّعٍ قديم إلى آفاق ثقافية جديدة، لم يجد مُتَنَفَّسًا واسعا في أَسْرِ شَرْحِ المتن، فآذاه رَسَفانُه (سَيْرُه في قَيْدِه)، فعَثَرَ عَثْرَتَيْنِ واضحتين:

١ نَقْضُ الْأَوْلَوِيَّةِ؛ فعلى رغم دعواه أن الأمير أولى بالتقديم وإن كان مفعولا، يرجع في دعواه سريعا إلى أن "لَوْ قُلْتَ أَعْطى زَيْدٌ الْأَميرَ كانَ حَسَنًا جَميلًا"؛ من أجل أن زيدا الفاعل، وتقديمه الأصل، مما يوحي بأنه أحسن وأجمل من تقديم المفعول به عليه في المقام التَّواصُلي نفسه!

٢ تَزْييفُ الْأَوْلَوِيَّةِ؛ فعلى رغم أن مفعولية زيد ربما كانت أولى بالاهتمام أحيانا من فاعلية الأمير، يوحي كلامه بثبات أولوية الأمير، وكأنها معلقة بإمارته؛ فهي أولوية سياسية، ويؤكدها بأولوية اسم الله -سبحانه، وتعالى!- إذا وقع في الكلام!

حتى إذا آن في الدلائل أوانُ ذلك التطلع القديم إلى الآفاق الثقافية الجديدة، تَفَجَّرَ من خلال فِقْهِ دَخائِلِ أطراف التَّواصُل اللغوي، الذي تَجَلّى في حُسْنِ مَسْرَحَة أمثلته (تَحْريكِها في مَقاماتٍ مُلائِمَةٍ ظاهِرًا وباطِنًا)، مَسْرَحَةً صَوَّبَتِ الصَّوابَ وخَطَّأَتِ الْخَطَأَ!

وعلى رغم رضاه ذلك عن أوجه التمثيل، لا يخفى تقصيره في نص الدلائل عن منهج صناعة الأمثلة الذي انتهجه في نص المقتصد؛ فقد اكتفى بثلاثة أمثلة من بعد أن كانت تسعة، ووقف عند أَثَرِ صِناعيَّتِها عن النحويين، من بعد أن خلط في نص المقتصد الصناعية بالطبيعية. ولكن من تأمل أمثلة نص الدلائل وجد في ذلك التقصير، أَثَرَ استتاره بِسِتْرِ النَّحْوِيّين المَجْهولين؛ فقد كان من تمامه أن يتظاهر بالتمثيل بأمثلة محدودة من أمثلتهم الصناعية ذوات زيد وعبد الله، وإن استبدل بعبد الله هذا الخارجي مرتين، ورجلا مجهولا مرة؛ فلم يملك أن يُخْلِيَها من طابعه! ثم أمثلةُ المقتصد لا يكاد يخلص منها لسياق أفكاره، غيرُ ثلاثة كذلك (٣-٥)؛ فثلاثة منها (١، ٢، ٦)، لأبي علي، لا حيلة له فيها- وواحد (٩)، أعاد به سابقا (٣)، واثنان (٧، ٨)، استطرد بهما إلى خارج السياق!

سِيَاقُ أَطْوَالِ الْجُمَلِ

[١٩] وَصَّلَ الجرجاني أفكاره في نص المقتصد الأول، بثلاثمئة وتسع وعشرين (٣٢٩) كلمة كتابية، في سبع وعشرين (٢٧) جملة نحوية- وفي نص الدلائل الأول، بثلاثمئة وثمان وخمسين (٣٥٨)، في سبع عشرة (١٧)- وفي نص المقتصد الثاني، بمئة وسبع عشرة (١١٧)، في اثنتي عشرة (١٢)- وفي نص الدلائل الثاني، بمئة وثلاث وثلاثين (١٣٣)، في ثمانٍ (٨)- وفي نص المقتصد الثالث، بمئتين وخمس عشرة (٢١٥)، في اثنتين وعشرين (٢٢)- وفي نص الدلائل الثالث، بمئتين وإحدى وأربعين (٢٤١)، في سِتٍّ (٦)؛ ومن ثم يَتَخَرَّجُ مُتَوَسِّطُ كَلِمِ الجملة الواحدة بكل نص منها على الترتيب، في الجدول الآتي:

الكلم	٣٢٩	٣٥٨	١١٧	١٣٣	٢١٥	٢٤١
الجمل	٢٧	١٧	١٢	٨	٢٢	٦
المتوسط	١٢,١٨	٢١,٠٥	٩,٧٥	١٦,٦٢	٩,٧٧	٤٠,١٦

وعلى رغم تقارب كل نصين، من حيث عدد الكلم، تقاربًا جمع بينهما في الموازنة- تَبَاعَدَا من حيث عدد الجمل ومتوسط كلم الجملة الواحدة؛ فكان نص المقتصد أكثر جملا، والجملة الواحدة فيه أقل كلما- وكان نص الدلائل أقل جملا، والجملة الواحدة فيه أكثر كلما.

نِظَامُ أَطْوَالِ الْجُمَلِ

[٢٠] لقد كانت الجملةُ الخامسة من نص المقتصد الأول (أطولُ جمله) مثلا، من أربعين (٤٠) كلمة كتابية- على حين كانت الجملةُ الثالثة من نص الدلائل الأول (أطولُ جمله)، من ثمان وثمانين (٨٨). ولقد جعل الجرجاني جملة المقتصد شرطية، لِيُطَوِّل قسم

شرطها بعطف الجمل: "إِذا قُلْتَ (...)، ثُمَّ أَدْخَلْتَ (...)، فَقُلْتَ (...)"، وقسم جوابها بعطف الأفعال من داخل فاعله المصدر المؤول: "وَجَبَ أَنْ تُضْمِرَ (...)، فَتَنْصِبَ (...) فَتَقولَ (...)، فَتَنْصِبَ". وجعل جملة الدلائل بخبرٍ مصدرٍ مؤولٍ، لينفتح له من داخله فعلُ قولٍ ينعطف عليه بعد حين مثلُه، فيُطوِّل المَقولَيْنِ بتعديد جملهما: "مِثالُ ذلِكَ أَنَّكَ تَقولُ: أَبَنَيْتَ (...)، أَقُلْتَ (..)، أَفَرَغْتَ (...)، وَتَقولُ: أَأَنْتَ (...)، أَأَنتَ (...)، أَأَنْتَ". وعلى رغم أن ما يُعَدِّدُه في مَقولَيْ جملة الدلائل، أكثرُ مما يَعْطِفُه في قِسْمَيْ جملة المقتصد- يَتَّحِدُ بينهما الأصلُ التَّوْصيليُّ (البحث عن نمط ينقسم على قسمين يتيحان التطويل)!

ولكنه يُجَهِّزُ جملتين مضارعيتين طويلتين متشابهتين، ليشرح بهما مقولي جملة الدلائل، ثم يُحَيِّرُنا عن تشابههما، بتعليق الأولى بفعل القول الأول حالا من فاعله: "تَبْدَأُ (...)"، وعطف الآخرة بالفاء على فعل القول الآخر: "فَتَبْدَأُ (...)"- وبالإيحاء بانفصال لام التعليل ومعمولها عن الجملة الآخرة دون الأولى؛ فقد أضاف قبلهما في الآخرة اسم إشارة: "ذاكَ لِأَنَّك لَمْ تَشُكَّ (...)"، لم يضف مثله في الأولى: "لِأَنَّكَ في جَميعِ ذلِكَ مُتَرَدِّدٌ (...)"؛ فانفصلا خبرَ جملةِ حالٍ من فاعل "تَبْدَأُ"- وكأنما يريد أن يخالف بأسلوب جملة الدلائل عن أسلوب جملة المقتصد، ولاسيما أنه أَرَكَّ هذه بإعادة عبارة "فَتَنْصِبُ زَيْدًا"، التي لا يعيدها إلا الشُّداةُ، إذا خافوا طول التعبير، وانفصال آخره من أوله!

ثم كانت الجملةُ الخامسة من نص المقتصد الثاني (أطولُ جمله)، من ثمان وعشرين (٢٨) كلمة كتابية- على حين كانت الجملةُ الأولى من نص الدلائل الثاني (أطولُ جمله)، من ست وثلاثين (٣٦). ولقد جعل الجرجاني جملة المقتصد فعلية، ثم علق بفعلها ظرفا مضافا إلى جملة فعلية مبنية للمجهول: "إِنَّما تَأْتّى النَّكِرتانِ إِذا وُجِدَ تَخَصُّص (...)"، ليطولها من خلال نعت نائب فاعلها: "كَما فَعَلْتَ (...) بِقَوْلِكَ (...)"، والعطف على نعته: "وَنَحْوُ أَنْ تَقولَ (...)"، وفي كل منهما قول تام، بل عطف على فعل قول المعطوف: "فَتَصِفَه (...)". وجعل جملة

الدلائل اسمية مبتدؤها قول تام: "قَوْلُهُمْ (...)"، وخبرها جملة فعلية: "إِنَّمَا قُدِّمَ (...)"، ليفرِّع من المبتدأ مقوله، ويعطف على جملة الخبر جملة مثلها قولية: "فَجَرَى مَجْرَى أَنْ تَقولَ (...)". وكما انتهى في جملة المقتصد إلى نائب فاعل ينعته ويعطف على منعوته، انتهى في جملة الدلائل إلى خَبَرِ جُمْلَةٍ يعطف عليها.

ولكنه يُجَهِّزُ كذلك مصدرين مؤولين متشابهين، يشرح بهما ما في خبر جملة الدلائل وما عطف عليه، ثم يحيرنا عن تشابههما، بجر الأول وتعليقه بفعل جملته، لتزداد متعلقاتها: "لِأَنَّ الْمُرادَ (...)"، وإضافة فعل قبل الآخر استتر فيه فاعله، ليأتي هو مفعولا به، وتنضاف الجملة إلى ما قبلها حالا، لتزداد متعلقاتها: "تُرِيدُ أَنَّه (...)"، على نمط لم يقع له بنص المقتصد.

ثم كانت الجملةُ الثانية والعشرون من نص المقتصد الثالث (أطولُ جمله)، من إحدى وخمسين (٥١) كلمة كتابية- على حين كانت الجملةُ الرابعة من نص الدلائل الثالث (أطولُ جمله)، من تسع ومئة (١٠٩). ولقد جعل الجرجاني جملة المقتصد فعلية قولية، ليفرِّع منها قول سيبويه المنقول نصا، ثم يضيف إليه جملة يشرحه بها، حالا من فاعله: "قالَ صاحِبُ الْكِتابِ (...) يُرِيدُ (...)/٢٢". وجعل جملة الدلائل فعلية قولية كذلك، مستقلة، يشرح بها قول سيبويه المنقول نصا كذلك في الجملة الثانية: "قالَ صاحِبُ الْكِتابِ (...)،٢/ (...) وَقالَ النَّحْوِيّونَ: إِنَّ مَعْنى ذلِكَ (...)٤/٠". لقد عكس هنا ما كان سلكه هناك؛ ففعل بجملة المقتصد ما كان يفعله بجملة الدلائل، وفعل بجملة الدلائل ما كان يفعله بجملة المقتصد، عن أصل تفكيري واحد راسخ!

ولكنه لم يستطع أن يجد بجملة المقتصد، ما وجده بجملة الدلائل، من استبطانٍ أفاض به في مَسْرَحَةِ التواصل اللغوي (تَحْريك أمثلته في مَقامات مُلائِمَةٍ ظاهِرًا وباطِنًا)؛ ولذلك اقتَصَرَتْ معالم تطويل جملة الحال الشارحة في جملة المقتصد، على جعل المفعول به مصدرا مؤولا من أن واسمها ضمير الغائبين وخبرها الجملة الشرطية المقترنة بالواو: "يُرِيدُ أَنَّهُمْ وَإِنْ كانوا

(...) فَإِنَّهُمْ يُقَدِّمونَ (...)"، فأما معالم تطويل جملة الدلائل فانفتحت بتصدير إن في مقول القول ثم جعل خبرها مصدرا مؤولا من أن واسمها ضمير الشأن وخبرها الجملة التي تناسلت فيها المتعلقات بعضها من بعض: "قالَ النَّحْويّونَ: إِنَّ مَعْنى ذلِكَ أَنَّه قَدْ يَكونُ (...)، وَلا يُبالونَ (...)، أَنَّهُمْ يُريدونَ (...)، وَلا يُبالونَ (...)، وَلا يَعْنيهِمْ (...)، فَإِذا قُتِلَ (...)، فَإِنَّه يُقَدِّمُ (...)، فَيَقولُ: (...)، وَلا يَقولُ: (...)، لِأَنَّه يَعْلَمُ (...) وَيَعْلَمُ (...)"!

ربما كثرت الكلم ولم يَتَعَسَّر التركيب، إذا انتظمت في علاقات واضحة، وتوالت فيها على وتيرة واحدة- فأما إذا قَلَّت الكلم فإن التركيب يَتَيَسَّر؛ إذ لا يُتاحُ لِتَداخُلِها مادّة؛ ومن ثم كانت جمل نصوص المقتصد أَيْسَرَ تركيبا من جمل نصوص الدلائل، فإذا ما أضفنا أن كَلِمَ جمل الدلائل التي كانت أكثر من وَزِينَتِها، انتظمت أحيانا في تلك العلاقات الغامضة السابقة، وأنها إذا اتضحت علاقاتها أحيانا، لم تتوال فيها على وتيرة واحدة- تجلى لنا أسلوب الجرجاني في نصوص الدلائل، أَبْعَدَ غَوْرًا منه في نصوص المقتصد!

سِيَاقُ أَنْمَاطِ الْجُمَلِ

[٢١] ولقد اجتهدت أن أُنَمِّطَ لكل جملة من جمل النصوص، نَمَطًا يضبط مَعالِمَها الكبرى بتحديد نوع كلا مُؤَسِّسَيْها، فعلا وفاعلا، أو مبتدأ وخبرا، على النحو المُجَدْوَل الآتي[١]:

١	ضمير خطاب	١					
	جملة ماضوية						
٢	ضمير غيبة					٢	
	نكرة						
٣	ضمير غيبة شأن		٢				

[١] الصف العلوي للمُؤَسِّس الواقع أولا، والأعمدة لجمل النصوص بترتيبها في مقدمة البحث.

	جملة مضارعية						
٤	مضاف إلى ضمير غيبة جملة ماضوية				١		
٥	ضمير غيبة شبه جملة حرفي					١	
٦	ضمير غيبة مصدر مؤول			١			
٧	علم نكرة					١	
٨	اسم إشارة نكرة						١
٩	اسم إشارة جملة مضارعية		١				
١٠	اسم إشارة شبه جملة حرفي		١		٤		
١١	اسم إشارة أو مضاف إليه مصدر مؤول	٢	٢			٢	
١٢	اسم إشارة مضاف إلى مضاف إلى معرف بأل	١					
١٣	معرف بأل أو مضاف إليه نكرة أو مضاف إليها	١		١	١		
١٤	مضاف إلى معرف بأل جملة اسمية		١	١			

١٥	مضاف إلى معرف بأل جملة مضارعية		١				
١٦	معرف بأل أو مضاف إليه شبه جملة حرفي		١	١		١	
١٧	معرف بأل مصدر مؤول	٣			١		
١٨	شبه جملة حرفي نكرة	١					
١٩	شبه جملة حرفي مصدر مؤول		١				
٢٠	شبه جملة حرفي معرف بأل		١				
٢١	شبه جملة حرفي مضاف إلى علم	١					
٢٢	ماض ضمير خطاب	١	٤	٢		٤	
٢٣	ماض أو مضارع مجزوم بلم ضمير غيبة			٤		٦	٢
٢٤	ماض مضاف إلى علم					١	١
٢٥	ماض أو مضارع مجزوم بلم معرف بأل	١			٢		١
٢٦	ماض أو مضارع مجزوم بلم	٤					

	مصدر مؤول						
٢٧	مضارع ضمير خطاب	٦			١		
٢٨	مضارع ضمير غيبة أو مضاف إليه		١			١	
٢٩	مضارع اسم موصول	١					
٣٠	مضارع معرف بأل أو مضاف إليه	١		٢	١	١	
٣١	مضارع مصدر مؤول	٣					
٣٢	مضارع محذوف ضمير خطاب محذوف		١			١	
٣٣	أمر ضمير خطاب					١	١

فوجدت جُملَ نص المقتصد الأول، أربعةَ عشرَ (١٤) نمطًا- وجملَ نص الدلائل الأول، اثني عشر (١٢)- وجملَ نص المقتصد الثاني، سبعة (٧)- وجملَ نص الدلائل الثاني، ثمانية (٨)- وجملَ نص المقتصد الثالث، اثني عشر (١٢)- وجمل نص الدلائل الثالث، خمسة (٥)؛ فتخرج لي مُتوسِّط جمل النمط الواحد، بالجدول الآتي:

الجمل	٢٧	١٧	١٢	٨	٢٢	٦
النمط	١٤	١٢	٧	٧	١٢	٥
المتوسط	١,٩٢	١,٤١	١,٧١	١,١٤	١,٨٣	١,٢٠

ولا يخفى أن نصيب النمط الواحد من الجمل، أكثر في كل نص من نصوص المقتصد، منه في كل نص من نصوص الدلائل، أي أن الجرجاني أكثر تغييرا لأنماط الجمل في نصوص الدلائل، منه في نصوص المقتصد. ولا ريب في دلالة تغيير الأنماط على حَيَوِيَّةٍ تفكيرية، تَصْرِفُ صاحبَها عن التعلُّق بنمط واحد يظل يكرره وكأنه لا يعرف غيره!

ثم وجدت نصوص المقتصد انفردت بأحد عشر نمطا: (١، ٢، ٥، ٦، ٧، ١٢، ١٨، ٢١، ٢٦، ٢٩، ٣١)- ونصوصَ الدلائل انفردت بثمانية: (٣، ٤، ٨، ٩، ١٠، ١٥، ١٩، ٢٠)- ونصوصَ المقتصد والدلائل كلّها، اشتركت في أربعة عشر: (١١، ١٣، ١٤، ١٦، ١٧، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٣).

نِظَامُ أَنْمَاطِ الْجُمَلِ

[٢٢] ولقد فهمت من اشتراك نصوص المقتصد ونصوص الدلائل كليهما في بعض أنماط الجمل، معنى وحدة صاحبهما؛ فإن وحدة الشخصية التي ينبه علم النفس على تَأَصُّلِ أصولها في سنوات العمر الأولى، لَكفيلةٌ بثباتِ الأسلوب على مَعالم قديمة، ثباتًا يوقع بين النصوص هذا الائتلاف الواضح في هذه الأنماط:

إن الجرجاني الذي قال قديما جملته الثانية والعشرين من نص المقتصد الأول: "ذاكَ أَنَّ كَيْفَ (...)"، فشرح بعض ما يمتنع في تركيب الاستفهام بكيف- هو الذي قال حديثا جملته الثالثة عشرة من نص الدلائل الأول: "ذاكَ أَنَّه (...) "، فشرح بعض ما يمتنع في تركيب الاستفهام بمن، وكلتا الجملتين من النمط الحادي عشر (اسم إشارة أو مضاف إليه / مصدر مؤول)!

وإن الجرجاني الذي قال قديما جملته السادسة من نص المقتصد الثاني: "تَحْصُلُ الْفائِدَةُ (...)"، فَبَيَّنَ علة حدوث الفائدة للمبتدأ النكرة المتخصصة- هو الذي قال حديثا جملته السادسة

كذلك من نص الدلائل الثاني: "إِنَّمَا يُتَصَوَّرُ قَصْرُ الْفِعْلِ (...)"، فبَيَّنَ أصل تركيب أسلوب القصر، وكلتا الجملتين من النمط الثلاثين (مضارع/ معرف بأل أو مضاف إليه)!

وإن الجرجاني الذي قال قديما جملته الأولى من نص المقتصد الثالث: "اعْلَمْ أَنَّ الْفاعِلَ (...)"، فبَيَّنَ أصل مرتبة الفاعل من المفعول به- هو الذي قال جملته الأولى كذلك من نص الدلائل الثالث: "اعْلَمْ أَنّا (...)"، فبَيَّنَ أصل دلالة تقديم ما يقدم من عناصر التركيب، وكلتا الجملتين من النمط الثالث والثلاثين (أمر/ ضمير خطاب)!

وفهمت من انفراد كل من نصوص المقتصد ونصوص الدلائل ببعض أنماط الجمل، معنى اختلاف أسلوبيهما؛ فإن ربع القرن الذي بين تأليف الكتابين، لَكفيلٌ بتطوير الأسلوب إلى معالم حديثة، تطويرا يوقع بين النصوص هذا الاختلاف الواضح في هذه الأنماط:

إن الجرجاني الذي قال قديما جملته السادسة والعشرين من نص المقتصد الأول: "كَأَنَّكَ قُلْتَ (...)"، فقَدَّر وجه التركيب المتخيل العقلي غير التَّواصُلِيّ- هو الذي قال حديثا جملته الخامسة عشرة من نص الدلائل الأول: "كانَ تَقْديمُ الِاسْمِ لا يوجِبُ (...)"، فقَدَّر الوجه الدلالي الذي سينقضه، وهذه الجملة من النمط الخامس عشر (مضاف إلى معرف بأل / جملة مضارعية)، الذي انفرد به نص الدلائل الأول، ولكن تلك من النمط الأول (ضمير خطاب/ جملة ماضوية)، الذي انفرد به نص المقتصد الأول!

وإن الجرجاني الذي قال قديما جملته الثانية من نص المقتصد الثاني: "هُوَ أَنْ يَكونا نَكِرَتَيْنِ "، فحدد الضرب الثالث من أضرب تعريف المبتدأ والخبر وتنكيرهما- هو الذي قال حديثا جملته الأولى من نص الدلائل الثاني: "قَوْلُهُمْ: شَرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ"، إِنَّمَا قُدِّمَ فيهِ (...)"، فشرح وجه وقوع النكرة مبتدأ في بعض الأمثال القديمة، وهذه الجملة من النمط الرابع (مضاف إلى ضمير غيبة/ جملة ماضوية)، الذي انفرد به نص الدلائل الثاني، ولكن تلك من النمط السادس (ضمير غيبة / مصدر مؤول)، الذي انفرد به نص المقتصد الثاني!

وإن الجرجاني الذي قال جملته الثالثة من نص المقتصد الثالث: "لَيْسَ بِالْأَصْلِ"، فَبَيَّنَ حكم تقديم المفعول على الفاعل- هو الذي قال جملته السادسة من نص الدلائل الثالث: "هذا جَيِّدٌ (...)"، فاستَحْسَنَ مَسْرَحَةَ بعض الأمثلة، وهذه الجملة من النمط الثامن (اسم إشارة/ نكرة)، الذي انفرد به نص الدلائل الثالث، ولكن تلك من النمط الخامس (ضمير غيبة/ شبه جملة حرفي)، الذي انفرد به نص المقتصد الثالث!

سِيَاقُ عَلَاقَاتِ الْجُمَلِ

[٢٣] ولقد تتبعت علاقات جمل كل نص بعضها ببعض، فعثرت على الجدول الآتي[١]:

العطف	١٣	١٠	٤	١	٨	٤
نسبته	٥٠	٦٢,٥٠	٣٦,٣٦	١٤,٢٨	٣٨,٠٩	٨٠
الاعتراض	١	٢	١		٣	
نسبته	٣,٨٤	١٢,٥٠	٩,٠٩		١٤,٢٨	
الترتب الشرطي	١	٢	٢	١	٢	
نسبته	٣,٨٤	١٢,٥٠	١٨,١٨	١٤,٢٨	٩,٥٢	
الاستئناف	١١	٢	٤	٥	٨	١
نسبته	٤٢,٣٠	١٢,٥٠	٣٦,٣٦	٧١,٤٢	٣٨,٠٩	٢٠

[١] تنقص أعداد علاقات جمل كل نص، علاقة واحدة، من حيث لم يكن للجملة الأخيرة من كل منها، تعلقٌ بشيء.

لقد مال الجرجاني في نصوص المقتصد كلها، إلى تمييز علاقتي العطف والاستئناف كلتيهما، بنسبتي استعمال متطابقتين أو متقاربتين- وفي نصوص الدلائل كلها، إلى تمييز إحدى هاتين العلاقتين وحدها.

ولا تخفى زيادة أنواع علاقات الجمل في نصوص المقتصد، عليها في نصوص الدلائل؛ فقد خلت جمل نصي الدلائل الثاني والثالث كليهما، من علاقة الاعتراض، وخلت علاقات نص الدلائل الثالث وحده من علاقة الترتب الشرطي.

نِظَامُ عَلَاقَاتِ الْجُمَلِ

[٢٤] ولقد تبين لي أن جمل كل نص من نصوص المقتصد، كانت تتوالى على أنحاء معينة من العطف فالاستئناف أو العكس، يحرص عليها الجرجاني؛ ها هو ذا يقول في نص المقتصد الأول: "تَقولُ (...)/١٤ فَتَرْفَعُ (...)/١٥ وَإذا قُلْتَ (...) لَمْ يَجُزْ (...)/١٦"- ويقول في نص المقتصد الثاني: "إِنَّما تَأَتّى (...)/٥ وَتَحْصُلُ الْفائِدَةُ (...)/٦ وَلَوْ قُلْتَ: رَجُلٌ ذاهِبٌ،/٧"- فيشرح فيهما الوضع التركيبي الجائز بجملتين خبريتين متعاطفتين، ثم يستأنف الوضع الممتنع بجملة إنشائية. ويقول في نص المقتصد الثالث: "على ذا يورَدُ قَوْلُه (...)/١٤ تَعالى!/١٦ وَذاكَ أَنَّ اللّهَ (...)/١٧ سُبْحانَه،/٢٠ وَتَعالى (...)/٢١- فيلتزم بعد كل جملة خبرية مشتملة على عبارة قرآنية، جملة إنشائية تَنْزيهيَّة. أما جمل كل نص من نصوص الدلائل، فكانت تتوالى على النحو الواحد بعد النحو الواحد من العطف أو الاستئناف، من غير أن يعبأ بذلك فيها الجرجاني؛ ها هو ذا يقول من نص الدلائل الأول: "مِنْ أَبْيَنِ شَيْءٍ (...)؛/١ فَإِنَّ مَوْضِعَ الْكَلامِ (...)./٢ وَمِثالُ ذلِكَ (...)./٣ فَهذا مِنَ الْفَرْقِ (...)،/٥ وَلا يَخْفى (...)؛/٦- فيعطف الخبريات الثانية على الأولى، والثالثة على الثانية، والخامسة على الثالثة، والسادسة على الخامسة. ويقول في نص الدلائل الثاني: "قَوْلُ الْعُلَماءِ (...)؛/٢ أَلا تَرى

(...)؛٣/ ذاكَ لِأَنَّ الْخَبَرَ (...)٤/. فَإِذا قُلْتَ (...)٥/. وَإِنَّما يُتَصَوَّرُ (...)،٦/ وَمَتَى لَمْ يُرَدْ (...) /٨"- فيستأنف الثالثة الإنشائية عن الثانية الخبرية، والرابعة الخبرية عن الثالثة، والخامسة الإنشائية عن الرابعة، والسادسة الخبرية عن الخامسة، والثامنة الإنشائية عن السادسة. ويقول في نص الدلائل الثالث: "اعْلَمْ (...)؛١/ قالَ (...)،٢/ وَلَمْ يَذْكُرْ (...)٣/. وَقالَ (...)٤/. ثُمَّ قالوا (...)!٥/ فَهذا جَيِّدٌ (...)/٦"- فيستأنف الثانية الخبرية عن الأولى الإنشائية، ثم يعطف الثالثة والرابعة الخبريتين على الثانية، ثم يعطف الخامسة الخبرية على الرابعة، ثم يعطف السادسة الخبرية على الخامسة.

ولقد اتضح بذلك أن تَنْويعَ أنماط الجمل من داخلها، مَشْغَلَةٌ عن تَنْويع علاقاتها من خارجها -والعكس بالعكس- فلقد انصرف الجرجاني في نصوص الدلائل كما سبق، إلى تنويع أنماط الجمل، عن تنويع علاقاتها- مثلما ينصرف الإنسان أحيانا إلى مشكلاته، عن مشكلات أصحابه! إنها ظاهرة اجتماعية واقعية صادقة، تعكسها اللغة (مرآة حياة صاحبها)، وليست أَظْهَرَ في سِنٍّ، منها في شَيْخوخَةٍ كالتي كان فيها الجرجاني حين ألف كتاب الدلائل!

خَاتِمَةُ الْفَصْلِ الْخَامِسِ

[٢٥] إن عدم التطور جمود، وإن الجمود موت، وإن الحياة التي حَيِيَها الجرجاني في كتابيه "المقتصد في شرح الإيضاح"، و"دلائل الإعجاز"- لدليل تَطَوُّرٍ واضِحٍ. ولقد دعتني إلى دراسة هذا التطور، كثرة نعي الجرجاني بالدلائل على النحويين، من بعد أن سلك في سياسة الزاهدين في علم النحو سياسة مريبة، ولاسيما أنه هو نفسه، لا يَبْرَأُ في المقتصد مِمّا نَعاه على النحويين في الدلائل، ولا مِمّا تَبَرَّأَ منه للزاهدين!

ولقد أجريتُ الدراسة على منهج منضبط من الموازنة بين الكتابين، من حيث تَفْصيل الأفكار النحوية، وتَمْثيلها، وتَوْصيلها، في سياقها الظاهر، وفي نظامها الباطن؛ فكنت أعثر على ما يجتمعان عليه؛ فأفهم منه معنى وحدة الشَخْصيَّة- وعلى ما يفترقان فيه؛ فأفهم منه معنى اختلاف العِلْمَيْنِ والخِبْرَتَيْنِ.

ولقد تَجَلَّتْ لي في أثناء دراسة تلك المحاور التي دارت عليها الموازنة بفِقَرِ المباحث السابقة، دقائقُ دلتني على أن الجرجاني تَحَرّى بالدلائل، تَبْديلَ أَثَرِ المقتصد أو تَعْديلَه، وكأنما يشرح بِفِعْلِه "أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُها"، وهو المتعمِّق المتحقِّق- ويَنْقُدُ عَمَلَه بمُقْتَضى "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا"، من قَبْلِ أن يُنْقَدَ عليه، وهو الفقيه الشافعي المتكلم الأشعري!

لقد لزم الإمامُ النحويُّ الفنانُ الشاعرُ بلدَه من مهده إلى لحده، ولم يبرحه طلبا للعلم على عادة أترابه من طلابه -ربما منعته أحوال نفسية أو اجتماعية أو سياسية- ولكنه أدرك بَلَدِيَّه أبا الحسن الجرجاني صاحب "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، المتوفى سنة ٣٩٢هـ - يملأ الدنيا، وسواء علينا أَلَقِيَه كفاحا أم لم يلْقَه- فامْتَلأَ به.

ثم لما وفد على بلده أبو الحسين الفارسي المتوفى سنة ٤٢١هـ، ابن أخت أبي علي الفارسي، لَزِمَ الجلوس إليه، فرصةَ تَعَلُّمٍ لا تُعَوَّضُ، وكأنما وجد فيه الفارسيُّ فرصة تَعْلِيمٍ لا تُعَوَّضُ كذلك، فحنا عليه وأحسن إليه، فاستعبده بإحسانه، وأسره بفضله زمانا طويلا يشتغل بشرح متن خاله أبي علي "الإيضاح"، ثلاثة شروح صغيرا فكبيرا فوسيطا، لا حاجة بالمتن الصغير إليها! ورضي أن يعيش أَسيرًا بارًّا، من أن يعيش حُرًّا عاقًّا!

حتى إذا ما توفي أستاذه أبو الحسين الفارسي، انطلق يستعيد ما أهمله من علم أبي الحسن الجرجاني، الذي كان انتهى إليه علم الشعر، فاستنبط وهو الشاعر، أصول علم معاني النحو[1]، وكان كلما تَأَصَّلَ لديه أَصْلٌ زافَ لديه بعضُ ما كان اشتغل به، ولكنه منعه البِرُّ التّالِدُ أن يُنَفِّرَ طلاب العلم من شرح الإيضاح، ومنعه العلم الطّارِفُ أن يخدعهم، فبقي في مَنْزِلَةٍ بين المَنْزِلَتَيْنِ!

---

[1] أبو موسى: ٩، ١٤، ٤٣، ٤٧، ٥٤؛ فقد ألح على بيان أن عمل الجرجاني بالدلائل مبني على جمع علم صناعة الشعر من كتب الجاحظ، إلى علم معاني النحو من كتاب سيبويه.



مَرَاجِعُ الْكِتَابِ

- الآمدي (أبو القاسم الحسن بن بشر): "الموازنة بين أبي تمام والبحتري"، تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الرابعة، نشرة دار المعارف (القاهرة).
- إبراهيم (زكريا)، ١٩٩٠: "مشكلات فلسفية ٨: مشكلة البنية"، نشرة دار سحنون (تونس)، ومكتبة مصر (القاهرة).
- إبراهيم (شكري بركات)، ١٩٩٤: "دراسات في الشعر العماني: ٤- البديع واللغة في الشعر العماني الوسيط"، نشرة دار الثقافة العربية (القاهرة).
- ابن أبي الإصبع (المصري): "تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن"، تحقيق حفني محمد شرف، نشرة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (الجمهورية العربية المتحدة).
- ابن الأثير (أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم الجزري): "المثل السائر"، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، نشرة دار نهضة مصر (القاهرة).
- ابن جني (أبو الفتح عثمان)، ١٩٨٧: "الخصائص"، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثالثة، نشرة الهيئة المصرية العامة للكتّاب.
- ابن الحاجب (أبو عمر عثمان)، ١٩٨٩: "أماليه"،تحقيق فخر قدارة، نشرة دار الجيل (بيروت).
- ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن)، ١٤١١ (١٩٩١): "الاشتقاق"، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، نشرة دار الجيل (بيروت).
- ابن رشيق (أبو علي الحسن الأزدي)، ١٤٠١ (١٩٨١): "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، نشرة دار الجيل (بيروت).
- ابن سلام (محمد الجمحي): "طبقات فحول الشعراء"، قراءة محمود محمد شاكر، طبعة المدني (القاهرة).
- ابن سنان (أبو محمد الخفاجي الحلبي)، ١٤١٤ (١٩٩٤): "سر الفصاحة"، تحقيق علي فوده، الطبعة الثانية، نشرة مكتبة الخانجي (القاهرة).
- ابن طباطبا (أبو الحسن محمد بن أحمد العلوي)، ١٤٠٥ (١٩٨٥): "عيار الشعر"، تحقيق عبد العزيز المانع، نشرة دار العلوم (الرياض).
- ابن عاشور (محمد الطاهر)، ١٣٧٧ (١٩٥٨): "شرح المقدمة الأدبية"، نشرة دار الكشاف (بيروت)، ودار الكتب الشرقية (تونس).

- ابن عربي (أبو عبد الله محي الدين بن علي الحاتمي الطائي الأندلسي)، ١٢٧١: "ديوانه"، طبعة بولاق (القاهرة)، نشرة دار المثنى (بغداد).
- ابن عصفور (أبو الحسن علي بن عبد المؤمن الإشبيلي)، ١٩٨٢: "ضرائر الشعر"، تحقيق السيد إبراهيم محمد، الطبعةَ الثانية، نشرة دار الأندلس (بيروت).
- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم): "الشعر والشعراء"، تحقيق أحمد محمد شاكر، نشرة دار المعارف (القاهرة).
- ابن ماجه (أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني الحافظ): "سنن ابن ماجه"، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشرة دار الكتب العلمية (بيروت).
- ابن مالك (جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي الأندلسي)، ١٤١٠ (١٩٩٠): "شرح التسهيل"، تحقيق عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، الطبعة الأولى، نشرة دار هجر (القاهرة).
- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم المصري): "لسان العرب"، نشرة دار المعارف (القاهرة).
- ابن نبي (مالك): "الظاهرة القرآنية"، ترجمة عبد الصبور شاهين، نشرة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (دمشق).
- ابن هشام (جمال الدين الأنصاري): "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، نشرة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه (القاهرة).
- ابن يعيش (موفق الدين بن يعيش): "شرح المفصل"، نشرة مكتبة المتنبي (القاهرة).
- أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي)، ١٣٣١ (١٩١٣): "ديوان الحماسة"، الطبعة الثانية ، نشرة المكتبة الأزهرية (القاهرة).
- أبو ديب (كمال)، ١٩٨٦: "الرؤى المقنعة: نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي (١) البنية والرؤيا"، نشرة الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- أدونيس (علي أحمد سعيد):
  ١) ١٩٨٣، "زمن الشعر"، الطبعة الثالثة، نشرة دار العودة (بيروت).
  ٢) ١٩٩٣، "النص القرآني وآفاق الكتابة"، نشرة دار الآداب (بيروت).
- إسماعيل (عز الدين)، ١٩٦٦: "الشعر العربي المعاصر"، نشرة دار الكاتب (القاهرة).

- الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين علي بن الحسين القرشي)، ١٣٨٩ (١٩٦٩): "الأغاني"، تحقيق إبراهيم الإبياري، نشرة دار الشعب (القاهرة).
- الأعشى (ميمون بن قيس): "ديوانه"، تحقيق محمد محمد حسين، المطبعة النموذجية، نشرة مكتبة الآداب (القاهرة).
- أمين (الدكتور عثمان)، نوفمبر ١٩٦٥: "فلسفة اللغة العربية"، المكتبة الثقافية (العدد ١٤٤)، نشرة الدار المصرية للتأليف والترجمة، توزيع مكتبة مصر (القاهرة).
- الأهواني (عبد العزيز)، ١٩٨٦:" ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر"، الطبعة الثانية، نشرة دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد).
- أونج (والتر. ج)، شعبان ١٤١٤= فبراير ١٩٩٤: "الشفاهية والكتابية"، ترجمة حسن البنا عز الدين، مراجعة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة (العدد ١٨٢)، نشرة المجلس الوطني (الكويت).
- البابرتي (كمال الدين محمد بن محمد بن محمود بن أحمد)، ١٣٩٢ (١٩٨٣): "شرح التلخيص"، تحقيق محمد مصطفى صوفية، نشرة المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان (طرابلس ليبيا).
- البحراوي (سيد)، ١٩٩٣: "العروض وإيقاع الشعر"، نشرة الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي): "الصحيح"، نشرة دار إحياء التراث العربي.
- برجشترا سر (ج)، ١٤٠٢ (١٩٨٢): "التطور النحوي للغة العربية"، أخرجه رمضان عبد التواب، نشرة مكتبة الخانجي (القاهرة)، ودار الرفاعي (الرياض)
- البرقوقي (عبد الرحمن)، ١٣٥٠ (١٩٣٢): "شرح التلخيص"، صورة عن الطبعة الثانية، نشرة دار الفكر العربي (القاهرة).
- بزيع (شوقي): حوار بكتاب الأستاذ جهاد فاضل "أسئلة الشعر"، نشرة الدار العربية (ليبيا).
- البغدادي (عبد القادر بن عمر)، ١٤٠٨ (١٩٨٨): "خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب"، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، نشرة مكتبة الخانجي (القاهرة).
- بشر (كمال محمد)، ١٩٩٩: "العربية بين الوهم وسوء الفهم"، نشرة دار غريب (القاهرة).
- بهادر (سعدية محمد علي)، ١٩٨٠: "في سيكولوجية المراهقة"، نشرة دار البحوث العلمية (الكويت).

- بورا (ك. موريس)، ١٩٩٢: "الغناء والشعر عند الشعوب البدائية"، ترجمة يوسف شلب الشام، الطبعة الأولى ، نشرة دار طلاس (دمشق).
- تشومسكي (نعوم)، ١٩٩٦: "اللغة والعقل"، ترجمة بيداء العلكاوي، مراجعة سلمان الواسطي، نشرة دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد).
- التوحيدي (أبو حيان): "كتاب الإمتاع والمؤانسة"، صححه أحمد أمين وأحمد الزين، نشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة)، والمكتبة العصرية (بيروت).
- ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى)، ١٩٩٥: "قواعد الشعر"، تحقيق رمضان عبد التواب، نشرة مكتبة الخانجي (القاهرة).
- الجابري (الدكتور محمد عابد)، أكتوبر ١٩٩٨: "نقد العقل العربي (١) تكوين العقل العربي"، الطبعة السابعة، نشرة مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت).
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، ١٤٠٥ (١٩٨٥): "البيان والتبيين"، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الخامسة، المدني (القاهرة).
- الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر النحوي):
  ١) ١٩٨٢م، "المقتصد في شرح الإيضاح"، تحقيق كاظم بحر المرجان، سلسلة كتب التراث (الحلقة ١١٥)، نشرة وزارة الثقافة والإعلام (بغداد).
  ٢) ١٩٨٤م، "دلائل الإعجاز"، قراءة محمود محمد شاكر، نشرة مكتبة الخانجي (القاهرة).
  ٣) ١٤١٢هـ (١٩٩١م)، "أسرار البلاغة"، قراءة محمود محمد شاكر، الطبعة الأولى، نشرة دار المدني (جدة).
- جرير (ابن عطية بن حذيفةَ الخَطَفى): "ديوانه"، تحقيق نعمان طه، الطبعة الرابعة، نشرة دار المعارف (القاهرة).
- حجازي (أحمد عبد المعطي حجازي)، ١٩٩٩: "رسالة إلى أمل دنقل"، مقال بسفر أمل دنقل الذي حررته عبلة الرويني، نشرة الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- حرب (طلال)، ١٤١٣ (١٩٩٣): "ديوان مهلهل بن ربيعة"، نشرة الدار العالمية (بيروت).

- الحسيني (راشد بن حمد)، ١٤١٧ (١٩٩٦): "اللواح الخروصي سالم بن غسان، حياته وشعره: دراسة موضوعية وفنية"، الطبعة الأولى، النهضة (سلطنة عمان).
- الحلي (صفي الدين): "العاطل الحالي والمرخص الغالي"، تحقيق حسين نصار، نشرة الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة).
- الحمزاوي (محمد رشاد)، ١٩٨٢: "العربية والحداثة أو الفصاحة فصاحات"، نشرة المعهد القومي لعلوم التربية (تونس).
- حسان (تمام)، ١٩٧٩: "اللغة العربية: معناها ومبناها"، الطبعة الثانية، نشرة الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة).
- حسن (عباس): "النحو الوافي"، الطبعة السادسة، نشرة دار المعارف (القاهرة).
- حسين (الدكتور طه):
  ١) ١٩٨٣: "بينَ بينَ"، الطبعة الثانية عشرة، نشرة دار العلم للملايين (بيروت).
  ٢) "حديث الأربعاء"، الطبعة الحادية عشرة، نشرة دار المعارف (القاهرة).
- الخراط (إدوار)، خريف ١٩٩٢: "أنا والطابو: مقاطع من (سيرة ذاتية للكتابة) عن السلطة والحرية"، مجلة فصول (مقال بالعدد ٣ من المجلد ١١)، نشرة الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الخفاجي (محمد علي رزق)، ١٤٠٧ (١٩٨٦): "ظاهرة الابتذال في اللغة والنقد"، الطبعة الأولى، نشرة الدار الفنية (القاهرة).
- خليل (الدكتور حلمي)، ١٩٨٨: "العربية والغموض"، الطبعة الأولى، نشرة دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية).
- درويش (محمود): حوار بكتاب الأستاذ جهاد فاضل "أسئلة الشعر"، نشرة الدار العربية (ليبيا).
- دي بونو (إدوارد)، ١٩٨٩: "تعليم التفكير"، ترجمة عادل ياسين وإياد ملحم وتوفيق العمري، الطبعة الأولى، نشرة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي (الكويت).
- الرافعي (مصطفى صادق):
  ١) "حديث القمر"، الطبعة الثامنة، نشرة دار الكتاب العربي (بيروت).
  ٢) "وحي القلم"، الطبعة الثانية، نشرة دار المعارف (القاهرة).

- رتشاردز (أ. أ): "العلم والشعر"، ترجمة مصطفى بدوي، مراجعة سهير القلماوي، نشرة مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة).
- الرضي (محمد بن الحسن الإستراباذي النحوي):
  1) ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م)، "شرح شافية ابن الحاجب"، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، نشرة دار الفكر العربي (القاهرة).
  2) ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م)، "شرح الكافية"، نشرة دار الكتب العلمية (بيروت).
- زكريا (ميشال) ١٤٠٣ (١٩٨٣): "الألسنية (علم اللغة الحديث): المبادئ والأعلام"، الطبعة الثانية، نشرة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (بيروت).
- السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي): "طبقات الشافعية الكبرى"، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، نشرة دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي (القاهرة).
- ستتكيفيتش (جاروسلاف)، ١٩٨٥: "العربية الفصحى الحديثة: بحوث في تطور الألفاظ والأساليب"، ترجمه محمد حسن عبد العزيز، دار النمر (القاهرة).
- سيبويه (أبو بشر عمرو بن قنبر)، ١٩٨٨: "الكتاب"، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثالثة، نشرة مكتبة الخانجي (القاهرة).
- السيوطي (جلال الدين)، ١٣٥٨ (١٩٣٩): "شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان"، نشرة مصطفى البابي الحلبي (القاهرة).
- شاكر (محمود محمد):
  1) ١٩٨٢م، "أباطيل وأسمار"، الطبعة الثانية، المدني (القاهرة).
  2) ٢٠٠٣م، "جمهرة مقالاته"، الطبعة الأولى، نشرة مكتبة الخانجي (القاهرة).
  3) ١٤٤٤هـ (٢٠٢٣)، "كتاب الشعر"، قرأه وراجعه فهر محمود محمد شاكر، الطبعة الأولى، نشرة شركة القدس للنشر والتوزيع (القاهرة).
- الشماخ (ابن ضرار الذبياني)، ١٩٧٧: "ديوانه"، حققه وشرحه صلاح الدين الهادي، نشرة دار المعارف (القاهرة).

- الشايب (أحمد)، ١٩٨٨: "الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية"، الطبعة الثامنة، نشرة مكتبة النهضة المصرية (القاهرة).
- شبلنر (برند)، ١٩٩١: "علم اللغة والدراسات الأدبية: دراسة الأسلوب، البلاغة، علم اللغة النصي"، ترجمة محمود جاد الرب، الطبعة الأولى، نشرة الدار الفنية للنشر والتوزيع (القاهرة).
- الشكعة (الدكتور مصطفى)، ١٩٧٨: "مصطفى صادق الرافعي كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا"، الطبعة الثانية، نشرة عالم الكتب (بيروت)، ومكتبة المتنبي (القاهرة).
- صادق (آمال أحمد مختار)، ١٩٨٨: "لغة الموسيقا: دراسة في علم النفس اللغوي وتطبيقاته في مجال الموسيقى"، الطبعة الأولى ، نشرة مركز التنمية البشرية والمعلومات (القاهرة).
- صقر (الدكتور محمد جمال):

١) ١٤٢١هـ (٢٠٠٠م)، "الأمثال العربية القديمة: دراسة نحوية"، الطبعة الأولى، المدني (القاهرة).

٢) ١٤٢١هـ (٢٠٠٠م)، "علاقة عروض الشعر ببنائه النحوي"، الطبعة الأولى، المدني (القاهرة).

- صمود (حمادي)، ١٩٨١: "التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس: مشروع قراءة"، نشرة الجامعة التونسية.
- ضيف (الدكتور شوقي):

١) "البلاغة: تطور وتاريخ"، الطبعة السادسة، نشرة دار المعارف (القاهرة).

٢) "الشعر والغناء في مكة والمدينة"، الطبعة الرابعة، نشرة دار المعارف (القاهرة).

- طبانة (الدكتور بدوي)، ١٩٨٨: "معجم البلاغة العربية"، الطبعة الثالثة، نشرة دار المنار (جدة)، ودار الرفاعي (الرياض).
- الطرابلسي (محمد الهادي)، ١٩٨١م: "خصائص الأسلوب في الشوقيات"، نشرة الجامعة التونسية.
- الطناحي (محمود محمد)، ١٤١٠ (١٩٩٠): "ديوان المعاني لأبي هلال العسكري وشيء من التحليل والعروض والفهرسة"، مجلة مجمع اللغة العربية السوري (بحث بالجزء الأول من المجلد السادس والستين)، (دمشق).

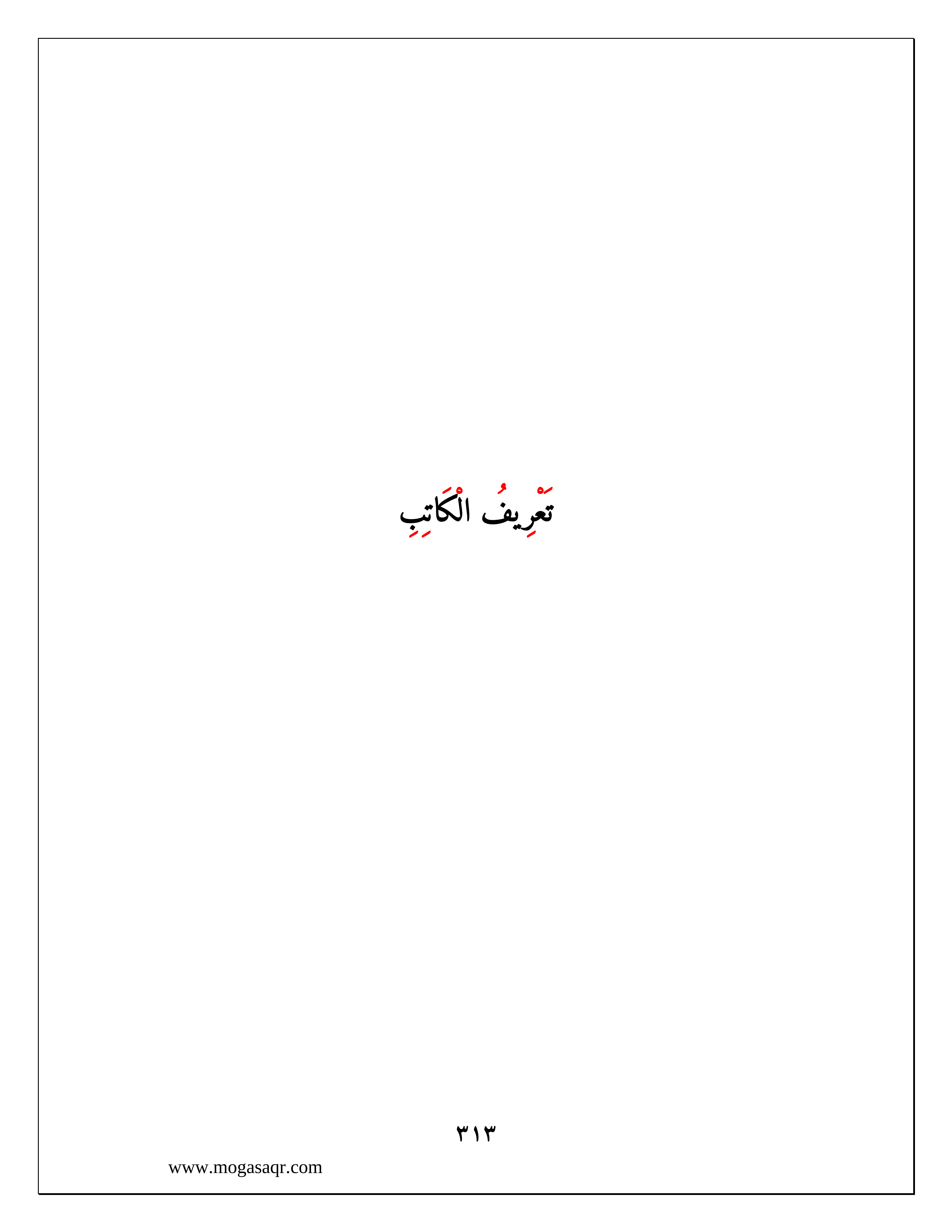
- طوقان (فدوى)، ١٩٨٨: "رحلة جبلية رحلة صعبة: سيرة ذاتية"، الطبعة الثالثة، نشرة دار الشروق (عمّان).
- عابدين (عبد المجيد)، ١٩٨٩: "الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى"، نشرة دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية).
- العبد (محمد)، ١٩٩٠: "اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة: بحث في النظرية"، الطبعة الأولى، نشرة دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع (القاهرة).
- عبد التواب (رمضان)، ١٤٠٤ (١٩٨٣): "فصول في فقه العربية"، الطبعة الثانية، نشرة مكتبة الخانجي (القاهرة)، ودار الرفاعي (الرياض).
- عبد الله (الحساني حسن)، ١٩٧٢: "عفت سكون النار"، الطبعة الأولى (القاهرة).
- عبد اللطيف (محمد حماسة)، ١٩٨٣: "النحو والدلالة: مدخل إلى دراسة المعنى النحوي الدلالي"، الطبعة الأولى، مطبعة المدينة (القاهرة).
- عبد المطلب (محمد)، ١٩٩٤: "البلاغة والأسلوبية"، نشرة مكتبة لبنان (بيروت)، والشركة المصرية العالمية لونجمان (القاهرة).
- عبده (داود)، ١٩٨٤: "دراسات في علم اللغة النفسي"، الطبعة الأولى، نشرة جامعة الكويت.
- العريمي (سالم بن سعيد بن خميس)، سنة ١٤٢١ (٢٠٠١): "حمأة الفشل (قصيدة فائزة بمرتبة التشجيع الأولى)"، كتاب مهرجان الشعر العماني الثاني، الطبعة الأولى، نشرة وزارة التراث والثقافة.
- العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر): "فتح الباري بشرح صحيح البخاري"، عناية عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، نشرة دار المعرفة (بيروت).
- العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله):" كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر"، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، نشرة دار الفكر العربي (القاهرة).
- عطية (نوال محمد)، ١٩٩٥: "علم النفس اللغوي"، الطبعة الثالثة، نشرة المكتبة الأكاديمية (القاهرة).
- العقاد (عباس محمود)، ١٣٩١ (١٩٧٢): "شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي"، سلسلة كتاب الهلال (العدد ٢٥٢)، القاهرة.

- العلوي (يحيى بن حمزة بن علي)، ١٤٠٠ (١٩٨٠): "كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز"، نشرة دار الكتب العلمية (بيروت).
- علي (الدكتور نبيل):
  ١) شوال ١٤١٤هـ (إبريل ١٩٩٤م)، "العرب وعصر المعلومات"، سلسلة عالم المعرفة (العدد ١٨٤)، نشرة المجلس الوطني الكويتي.
  ٢) ١٤٢٢/١/٤هـ (٢٠٠١/٣/٢٩م)، "بلا حدود"، حوار برنامج قناة الجزيرة القطرية الفضائية، الموقع على شبكة الإنترنت (قسم البرامج الحيّة).
- عنبر (الأستاذ أحمد محمد)، أغسطس ١٩٥٤: "قضية الأدب بين اللفظ والمعنى أو بين الأشكال والدلالات قديما وحديثا"، نشرة دار الكتاب العربي، محمد حلمي المنياوي (القاهرة).
- عياد (الدكتور شكري محمد)، ١٩٨٨: "اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي"، الطبعة الأولى، نشرة إنترناشيونال برس (القاهرة).
- الفارابي (أبو نصر محمد بن طرخان): "كتاب الموسيقا الكبير"، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة، مراجعة محمود أحمد الحفني، نشرة دار الكاتب (القاهرة).
- فارمر (هنري جورج): "تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي"، تعريب جرجيس فتح الله المحامي، نشرة دار مكتبة الحياة (بيروت).
- الفريجات (عادل)، ١٩٩٤: "الشعراء الجاهليون الأوائل"، الطبعة الأولى، نشرة دار المشرق، توزيع المكتبة الشرقية (بيروت).
- فضل (صلاح)، ١٩٩٢: "نظرية البنائية في النقد الأدبي"، نشرة مؤسسة مختار (القاهرة).
- فك (يوهان)، ١٤٠٠ (١٩٨٠): "العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب"، ترجمة رمضان عبد التواب، نشرة مكتبة الخانجي (القاهرة).
- فندريس (جوزيف)، ١٩٥٠: "اللغة"، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، نشرة مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة).
- فيشر (إرنست): "ضرورة الفن"، تعريب ميشال سليمان، نشرة دار الحقيقة (بيروت).

- القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي)، ١٤٠٧ (١٩٨٧): "الأمالي"، الطبعة الثانية، نشرة دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، (بيروت).
- القاضي المعتزلي (عبد الجبار): "المغني في أبواب التوحيد والعدل"، نشرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي (القاهرة).
- قباني (نزار توفيق)، يناير ٢٠٠٠: "الشعر قنديل أخضر"، الطبعة السادسة عشرة، منشورات نزار قباني (بيروت).
- قصاب (وليد)، ١٩٨٥: "قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم: ظهورها وتطورها"، الطبعة الثانية، نشرة المكتبة الحديثة بالعين (الإمارات العربية المتحدة).
- القرطاجني (أبو الحسن حازم)، ١٩٦٦: "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه، نشرة دار الكتب الشرقية (تونس).
- القوال (أنطوان محسن)، ١٤١٥ (١٩٩٥): "ديوان المهلهل"، الطبعة الأولى، نشرة دار الجيل (بيروت).
- ماي (روللو)، ١٩٩٢: "شجاعة الإبداع"، ترجمه فؤاد كامل، الطبعة الأولى، نشرة دار سعاد الصباح (القاهرة).
- محمد (السيد إبراهيم): "الضرورة الشعرية: دراسة أسلوبية"، نشرة دار الأندلس (بيروت).
- محمد (محمد سيد)، ١٩٨٤: "الإعلام واللغة"، نشرة عالم الكتب (القاهرة).
- محمود (زكي نجيب):
١) ١٤٠٨ (١٩٨٧): "تجديد الفكر العربي"، الطبعة الثامنة، نشرة دار الشروق (القاهرة).
٢) سنة ١٤٠٨ (١٩٨٨): "قشور ولباب"، نشرة دار الشروق (القاهرة).
- المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران): "الموشح: مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر"، تحقيق علي محمد البجاوي، نشرة دار الفكر العربي (القاهرة).
- المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد)، ١٤١١ (١٩٩١): "شرح ديوان الحماسة"، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، الطبعة الأولى، نشرة دار الجيل (بيروت).

- المسدي (عبد السلام)، ١٩٩٣: "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون"، الطبعة الرابعة، نشرة دار سعاد الصباح (القاهرة).
- مصلوح (سعد)، ١٤١٠ (١٩٩٠): "العربية من نحو (الجملة) إلى نحو (النص)"، بحث بالكتاب التذكاري "عبد السلام هارون: معلما ومؤلفا ومحققا"، الذي أعدته وديعة طه النجم وعبده بدوي.
- الملائكة (نازك)، ١٩٨٣: "قضايا الشعر المعاصر"، الطبعة السابعة، نشرة دار العلم للملايين (بيروت).
- أبو موسى (محمد محمد)، ١٤١٨ (١٩٩٨): "مدخل إلى كتَابَيْ عبد القاهر الجرجاني"، الطبعة الأولى، نشرة مكتبة وهبة (القاهرة).
- ناصف (مصطفى):
  ١) جمادى الآخرة ١٤٠٩ (يناير ١٩٨٩): "اللغة بين البلاغة والأسلوبية"، نشرة النادي الأدبي الثقافي (جدة).
  ٢) "نظرية المعنى في النقد العربي"، نشرة دار الأندلس (بيروت).
- هيكل (أحمد)، ١٩٩٤: "تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية"، الطبعة السادسة، نشرة دار المعارف (القاهرة).
- وات (سكوت)، ٢٠٠٠: "كيف تضاعف ذكاءك"، الطبعة الأولى، نشرة مكتبة جرير (الرياض).
- وافي (علي عبد الواحد):
  ١) "علم اللغة"، الطبعة التاسعة، نشرة دار نهضة مصر (القاهرة).
  ٢) "فقه اللغة"، نشرة دار نهضة مصر (القاهرة).
- الوعر (مازن):
  ١) ١٩٨٩م، "دراسات لسانية تطبيقية"، الطبعة الأولى، نشرة دار طلاس (دمشق).
  ٢) ١٩٩٢م، "نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية"، الطبعة الثانية، نشرة دار طلاس (دمشق).
- وهبه (الدكتور مجدي): "معجم مصطلحات الأدب"، نشرة مكتبة لبنان (بيروت).

- ويليك (رينيه)، ووارين (أوستن)، ١٩٨٥: "نظرية الأدب"، ترجمة محي الدين صبحي، مراجعة حسام الدين الخطيب، الطبعة الثالثة، نشرة المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت).
- يوسف (جمعة سيد)، يناير ١٩٩٠: "سيكولوجية اللغة والمرض العقلي"، سلسلة عالم المعرفة (العدد ١٤٥)، نشرة المجلس الوطني الكويتي.



تَعْرِيفُ الْكَاتِبِ



الدكتور محمد جمال صقر، مصري مولود بمصر في ١٣٨٥/١١/٢٨ (١٩٦٦/٣/٢٠). كاتب أديب لغوي، أستاذ بقسم النحو والصرف والعروض، من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، مشغول من الأدب بالشعر والقصة والمقال ومن اللغة بنظرية النصية العروضية وتطبيقاتها، في موقعه هذا: www.mogasaqr.com، بيان سيرته العلمية والعملية، وطائفة من أعماله كبيرة متنوعة.

ثُمَّ "الْحَمْدُ لِلّٰهِ

الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا

وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللّٰهُ"؛

صَدَقَ اللّٰهُ الْعَظِيمُ!